ستة شعراءٍ عراقيّين مَنسيّين

الشيخ د. جعفر المهاجر

الشيخ د . جعفر المهاجر :

ستة شعراءٍ عراقيّين مَنسيّين

جرى إعدادُ الكتاب في :

ـــ مـركـز بـهـاء الديـن العاملي للأبحاث والدراسات والتدريب (**مـُبــدع**)
www.mobie.org

ـــ الناشـر :

ـــ تاريخ النشـــر

بســــــــم الله الرحمن الرحيم

فهرست موضوعات الكتاب

المقدمـة

(1)

أثناء عملي على بعض مؤلفاتي ، بدأت تُلفتُ انتباهي ظاهرةٌ أثارتْ دهشتي واستغرابي لأوّلِ وهلة ، وحرّكتْ لديَّ جُملةَ أسئلةٍ ، طلبتْ بدورها أجوبةً شافية . هذه الظاهرة هي كَثرةُ المَنسيين بين الشعراء العراقيين ، الذين ضاع شعرهُم مجموعاً في ديوان ، سواءٌ ما كان منه قد جُمِع إبّان حياة صاحبه ، أم من بعده ، أم لم يُجمَع إطلاقاً . على الرُّغم من أنّ بعضَ هؤلاء من ذوي الأسماء المعروفة ، بل وأحياناً اللامعة ، في أوساط المثقفين العراقيين على مختلف مستوياتهم . وعلى الرُّغم أكثر من أنّ بغداد قد حظيتْ أثناء القرن الميلادي الماضي بعددٍ جَمٍّ من أفاضل الباحثين ، الذين توالوا العملَ تحقيقاً وإحياءً على التراث الغنيّ والجميل لبلدهم ، وأنتجوا من بدائع الأعمال ما لا يزال ، وسيبقى إن شاء الله ، موضعَ التقدير والعناية والاستفادة من مختلف القُرّاء والباحثين . ومع ذلك فإنّنا لم نرَ أنّهم قد أولوا شعراءَهم الذين جارَ عليهم الزمانُ وتصاريفُه ما بعثر شعرَهم ، وأضاع دواوينَ بعضِهم ، ولم يُبقِ منه في أحسن الأحوال إلا على ما تضمّنته المصادرُ من كُتُب السيرة والتراجم والطبقات وغيرها ، ــ ما يستحقّونه من اهتمام . مع أنّ أولئك الأفاضل كانوا الأقدرَ والأجدرَ بهذا العمل الجليل .

من المُتوقّع والمفهوم إجمالاً ، أن يضيعَ بعضُ تراث هذا الأدب أو ذاك من صنوف الآداب العالميّة . هذه ظاهرةٌ معروفة ، لها أسبابُها ، ممّا يتصلُ بتصاريف حياة هذا الشاعر أو ذاك ، أو بالظروف التاريخيّة التي اضطرب فيها إبّان حياته ، أو بالأُخرى التي جدّتْ من بعده . ومع ذلك فإنها تبقى على كل حال ظاهرةً شاذّة . وككلّ ظاهرةٍ من نوعِها تبقى محصورةً في أعدادٍ قليلةٍ نسبيّاً . ولكنّها في الظاهرة العراقيّة خصوصاً بارزةٌ جدّاً ، وذلك بالنظر للعديد الكبير لذلك

القبيل من الشعراء المَنسيين . على الرغم من أنّه ، أي ذلك العديد ، لم نحصل عليه نتيجةَ عمليّةٍ إحصائيّةٍ منهجيّةٍ مقصودةٍ ، ترمي إلى الاستقراء التّامّ . بل أتى عفواً في سياق الاهتمام بأعمالٍ أُخرى . ثم تراكمَ مع استمرار العمل فيها . ممّا يتركُ الاحتمالَ قويّاً بأنّ هناك المزيد والمزيد من أعدادٍ إضافيّةٍ منهم ، لم يُصادفْ أنّها وقعت لدينا . وهي بالتالي تنتظرُ مَن يكشُفها ، مُقدّمةً للاهتمام المُناسب بها .

على أنّه يجبُ المُسارعة إلى القول ، تجنّباً لسوءِ فَهم مغزى المُلاحظة ودلالتِها ، أنّ الظاهرةَ وإن تكن قد أنتجت بعض ما هو سيّءٌ ممّا ألمحنا إليه ، ولكنّها بذاتها تحملُ دليلَ عافيةٍ أيضاً . من حيث أنّها تُشيرُ ضمناً إلى غنى العراق المُدهش بالشعراء ، بالقياس إلى غيره من الأقطار العربيّة . وما كثرةُ أولئك الشعراء المنسيين ، إلا لكثرة الشعراء فيه إجمالاً . ولعلّنا لو أجرينا دراسةً لنسبة هؤلاء إلى شعرائه إجمالاً ، بالقياس إلى غيره من الأقطار ، لربما وجدنا أنّها تقعُ ضمن النِّسَب العاديّة .

مهما يكُن ، فإنّني ما أن نضجتْ لديّ تلك الملاحظة ، حتى طفقتُ أُسجّل اسمَ كلّ شاعرٍ شاعرٍ من هؤلاء ممّن يعِنُّ لي أو أقعُ عليه ، فيما يصلحُ أن يكونَ مقدّمة ملفّ . ثم مضيتُ أضمُّ إلى كلّ ملفٍ منها ما قد أقعُ عليه من شعر صاحبه . ومع الوقت تعدّدت الملفّات حتى قاربت المائة ، كلُّ ملفٍّ منها مُختصٌّ بشاعر . وسَمِنَ بعضُها بما أُضيف إليه من مادةٍ تتعلّق بسيرةِ صاحبه أو بشئ من شعره . أودعتُها جميعها في خزانةٍ خاصةٍ بمكتبتي ، مُمَنّياً النفسَ بأن أفرُغَ لها في يومٍ من الأيام .

إذن ، فما القصدُ من عملنا هذا إيفاءُ هؤلاء الشعراء حقّهم كاملاً من التجديد والإحياء . وإنما تحريكُ الاهتمام بقضيّتهم وقضيّة أمثالهم من الشعراء المَنسيين .

(2)

تلك كانت قصّـةَ هذا الكتاب منذ أن بـدأ فكـرةً ، سـاقَت إليها المُلاحظة ومن ثَـمّ التأمُّلُ في وُجوه الحُلول لأزمـةٍ ممّـا يُعانيه أهلُ البحـث . رويناها علـى سبيل تسويغ الاهتمام بالموضوع ، وبياناً لبُغيتنا منه ومن مُعالجة موضوعه على هـذا النحـو دون غيره . يبقى أن نقولَ لمـاذا وقع اختيارُنا على هؤلاء الستة الشـعراء دون سـواهم .

والحقيقةُ أنّ الأمرَ لم يكُنْ على نحو الاختيـار الحُـرّ ، الخاضـع لاعتباراتٍ نقديّـةٍ تتعلّقُ بموضوعـه. كلُّ ما في الأمـر، أنّـه صـادفَ أنّ ملفّاتِ هؤلاء الستة ، من بين جميع الملفّاتِ التي قلنا قبل قليل أنّها اجتمعت لدينا لغيرهم من الشـعراء المَنسـيين ، كانت أغنى من سـواها ، بحيث يمكنُ أن نبدأ معها فـوراً ، وذلك باستـخدام مادتِها في تصنيف هذا الكتاب . وبمـا أن غرضنا في النهاية هو تحريكُ الاهتمام بإحياء وتجديد ذكر كلّ الشـعراء العراقيين المَنسـيين حيث يُمكنُ موضوعيّاً ، فقد اتجهنـا إلى أن لا نتركَ الميسور من مادّة هذا الكتاب بالمعسور ممّا ليس تحت اليد ، خصوصـاً وأنّـه ما من سببٍ أيضـاً لاختيار مَن سـواهم .

(3)

من الضروري في ختام هذه المقدمة أن أُنبّـهَ على أمريَن يتصـلان كلاهما بالعنوان الذي وضعتُهُ للكتاب ، يرميان إلى بيان المقصود من كلماتِه ، دفعاً لالتباسٍ قد يُسـئُ إلى فكرة الكتاب . فعنوان الكتاب هو بمثابةِ التزامٍ للكاتب تجاهَ القارئ ، وعليه فينبغي أن يكونَ خالياً من أيّ التباس .

ــ الأمر الأوّل : إنّنـي أُريد بـ " العراق " ، هذا العراق السياسي بحُدودِه السياسيّة الحاليّة . ذلك أنّ العارفين بالحُدود البُلدانيّة القديمة يعرفون أنّ هناك بعض الفرق بينه وبين الآخَر البُلداني . وعليه فإنّ " العراقي " هو الذي عاش مُدّةً يُعتَدُّ بها ونظم شعرَه أو قسماً منـه في هذا " العراق " .

ــ الأمر الثاني : وقد ألمحتُ إليه إلماحاً قبل قليل ، ولكنّني الآن أُريدُ التنصيصَ عليه صراحةً ، أعني صفة " مَنْسي" . ذلك أنّ هـذه الصفة لا تعنـي بالضرورة المَوصوفَ بكلِّ معنىً ، لأنّنا نجِدُ بينهم مَن هو من المَعارف ، ومثالُهُ الناشئ الأكبر عبد الله بن محمد الأنباري وعلي بن عيسى الأربِلي ، اللذين يرجعُ الفضل بشُهرتِهما إلى أسبابٍ أُخرى غير شعرهما . بل المقصود هنا أنّه مَنسيٌّ بوصفه شاعراً ، إمّا بضياع شعرِهِ في مُختلَف المصادر، وإمّا بأنّ شعرَه مجموعٌ ولكنّه غير مَنشـور ، وإمّا بأنّه مجموعٌ ومنشور ، ولكنّ نشرتَـه محـدودة الانتشار.

خطتنا فيما سيأتي من هذا الكتاب أن نخُصَّ كلَّ شاعرٍ من هـؤلاء الستة بترجُمـةٍ مُختصرةٍ له ، تفي بما في مصادر عصره وسيرته ومذهبه في الشعر وما إلى ذلك . ثم نُعقّـبُ بإيراد نماذجَ مُنتَخَبَة من شعره . ننتخبُها ممّا يكون قد اجتمـع لدينا من مصادره . بحيث تُعطي القارئَ الحصيفَ فكـرةً كافيةً عن شعره ومكانته الشعريّة وأغراضِه في الشعر.

ونقولُ أخيراً إنّ لنا وطيد الأمل ، بأن نرى في يومٍ من الأيام أن عملنا هذا كان مُقدمةً وباعثاً وحافزاً لعملٍ آخَرَ أكبر بكثير ، يُجدّدُ ذكرَ عددٍ كبير من شعراء العراق المَنسيين ويُحيى شعرَهم .

والحمد لله ربّ العالمين

جعفر المهاجر

بعلبك في 2014/3/13

علي بن محمد الحِمّاني الكوفي

(ت : 260هـ / 873 م)

الشـاعر

1 ـ الاسمُ وإشكاليّاته

علي بن محمد بن جعفر بن محمد بن زيد الشهيد العلوي الحِمّاني [1]. لُقِّب بـ الجمّال ، وعُرف بـ الأفوه .

أمّا نسبته بـ " **العلوي** " فهي إلى جدّه الأعلى الإمام علي(عليه السلام) .

وأمّا " **الحِمّاني** " فهي إلى محلّةٍ من محالِّ " الكوفة " كان يسكنها بطنٌ من تميم يُعرَفُ ببني حِمّان " **نزلها هو فنُسب إليهم** " [2] . والطريفُ أنّ مَن يقرأُ ما تحت عنوان "حِمّاني" في كتاب (الأنساب) للسُّمعاني ، لتروعُهُ كثرةُ من يحملون هذه النسبة ، خصوصاً بين حَمَلة الحديث ورُواته ، بحيث غطّتْ ثلاث صفحاتٍ من الكتاب . وكلّهم حالُهُم حالُ صاحبنا : نزل بينهم فأُلحق بهم . وكأنّ في هذا الحي من أحياء الكوفة قوّةُ جَذْبٍ وقوّةُ صِبغَة ، بحيث يجذبُ هذه النُّخَب إليه ، ثم ينتزعُ منهم أنسابَهم الأصليّةَ ليصبغهم بصبغته وليُحمّلهم اسمَه . إنّ في الأمر لسرّاً ، ولعلّه كامنٌ في قوّة المدينة وسطوتِها ، بما تنطوي عليه من طاقةِ دمْجٍ ، لا يتمتّعُ بمثلِها مُجتمعُ البداوة ، الميّالُ إلى نَبْذِ كلِّ مَن هو لايحملُ رابطتَه النسبيّة .

وأمّا " **الجمّال** " فهو لا يحتملُ النسبةَ إلى غير مهنةٍ من المِهن ذات العلاقة بالجَمَل والجِمال ، مثل الاتجار بها أو كرائها وما إلى ذلك . ولكن ما من أحدٍ من الكثيرين الذين ترجموا للحِمّاني قال ما يُساعدُ على قبول هذا التفسير. بل إنّ كلَّ ما قيل عليه وعلى سيرته في مختلف المصادر، ممّا سنقفُ عليه إن شاء الله ، لا يُناسبُ أن يمتهنَ الرجلُ ما يُصحّحُ نسبته تلك . إلا أن تكونَ النسبةُ ساريةً إليه من أبيه مثلاً .

وأمّا لقبه " **الأفوه** " فهو وصفٌ يوصَفُ به مَن منحهم بارئهُم سُلطةً على الكلام ، باعتبار أنّ الفمَ هو مخرجُ الكلام ، كما تقولُ في صفة جميل العينين الأعيَن . ولقد كان الرجلُ من خُطباء بني هاشم وشُعرائهم كما سنعرفُ أيضاً .

إلاّ أنّ هاهنا نسبةٌ أُخرى ، نظنُّ أنّها مكتومة حتى الآن . انفردَ بإضافتها إلى اسم الحِمّاني ابنُ شهراشوب المازندراني ، محمد بن علي (ت : 588هـ /1192 م) في كتابه المؤسِّس (معالمُ العُلماء) ، حيث وصفه بأنّه " **زيدي**" ، بنحوٍ يُفهَمُ من كلامه أنّه يقصدُ بذلك المذهبَ وليس النّسَبَ الثابت له . قال ، تحت عنوان : " **فصلٌ : في المُقتصدين** " ، يعني من الشُعراء : " ...... **وأبو الحسن عليّ بن محمد الحِمّاني المعروف بالأفوه ، زيدي** " [3]. ولو انّه قال : (الزيدي) ، لأتتْ الكلمةُ تتمّةً لـ " الحِمّاني" و "الأفوه" ، ولأمكنَ أن نفهمَ منها باعتبار السّياق ما يُنسَبُ إليه من مختلَف النِّسَب، ومن ذلك النسبة إلى جدّه زيد . ولكنّه نكّر الكلمةَ فقطع السياق ، لحساب سياقٍ جديدٍ ، فصرفَ الكلمةَ باتجاه معنى المذهب . ومن المعلوم للقارئ العارف أنّ ابنَ شهرآشوب ابنُ منطقةٍ لها تاريخٌ مَديدٌ مع الزّيديّة والزّيديين . ولذلك ، ربّما ، كان الوحيدَ الذي اهتمّ بهذا الجانب من هُويّة الحِمّاني وسيرتِه .

على أنّ ها هنا إشكالٌ ، أراهُ سيُثير شُكوكَ قارئٍ حصيفٍ على فهمنا لهذا الجزء من نصّ ابن شهرآشوب بالنحو الذي قُلناه . وذلك حيث سيعرفُ فيما سيأتي العروةَ الوثيقة التي شدّتْ إمامَ زمان الحِمّاني إليه ، أعني عاشرَ الأئمة الإمام علي الهادي (عليه السلام) . فمن المعلوم أن الزّيديّة انفصلوا عن التشيّع الإمامي منذ الإمام الباقر(عليه السلام) ، أي أنّ الهادي لم يكُن عنده إماماً لو انّه كان حقّاً زيديّاً ، ممّا قد يرى فيه بعضُ القُرّاء ما يتنافي مع احتفاء الإمام به وما ذهبنا إليه من معنى " **زيدي** " في نص ابن شهرآشوب . ولكنّ الحقيقةَ أن لا تنافي على الإطلاق . لأنّ الفاصل بين الإماميّة والزّيديّة حتى زمان الحِمّاني كان فاصلاً إجرائيّاً ، أي أنّه في أُسلوب العمل وليس في مقاصده ومَراميه . ولم تكُنْ الّزيديّة قد استعارت من المُعتزلة خطَّها الكلامي ، ومن الشافعيّة فقهَها ، ثم طبختْ الجميعَ في قدرٍ واحدٍ تحت اسم المذهب الزيدي ، كما هو اليوم .

2ـ عصره

(1)

عاش الحِمّانيُّ عامّةَ عُمره ، بمقدار ما نعرف ، في الكوفة . وكانت المدينةُ في أوانه قد غادرتْ أيامَ عزّها السّابقة القصيرة ، وانحدر أمرُها وهانت أيّ هوان . وصار الحضورُ والأثرُ والمكانةُ لبغداد ، عاصمة الدولة ، ومحلّ إدارتها ، وموطن الحياة العقليّة التي كانت آنذاك في عزّ حيويّتِها ، ومُلتقى التيّارات الفكريّة المُتنوّعة .

ومن الإماراتِ الكاشفة على ما انتهى إليه أمرُ الكوفة في زمان الحِمّاني ، أنّك لا تقع فيها أثناء القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد على عالِمٍ ذي شأن ، أو على ذكرِ حَلْقةٍ علميّةٍ ذات أثر . وهي التي كانت في القرن السابق تعجّ بالمئات الكثيرة من تلاميذ وأصحاب الإمام الصادق (عليه السلام) (114 ـ 148 هـ / 732 ـ 765 / م) . وكان مسجدُها الجامع إذ ذاك خليّةَ عملٍ دائبٍ ، أنتجت المئات الكثيرة من أهل العلم في مُختلف فروعه ، ممّن يتنافسُ المؤلفون في إحصاء أسمائهم وأعمالهم في مؤلفاتٍ خاصة وغير خاصة .

(2)

ما من ريبٍ في أنّه كان لهذا الفَقر المعنويّ في بيئة مَنبتِ الحِمّاني أثرَه الدّائم عليه رافقه طوال حياته . ولطالما اشتكى ضعفَه باللغةِ وفقهِها وبالنحوِ وقواعِده ، وهو الشاعرُ الفحلُ المُفلِقُ للمعاني . بحيث أنّه كان ربما انصرفَ عن المعنى المليح ، خشيةَ سُوء إقامةِ لُغته ، أو مَخافةَ الوُقوعِ في اللّحن (4) . كما كان سيّءَ الخطّ جدّاً . ممّا يدعو إلى أن يُفهَمُ منه أنّه لم يتلقَّ تعليماً جيّداً في الصِّغَر ، حيثُ يكونُ الخطُّ من أوّلِ ما يتعلّمُهُ الناشئون ، وبحيث أنّه اشتكى من سُوء خطّه في بيتين :

أشكو إلى الله خطّاً لا يُبلّغني خطَّ البليغ ولا خطَّ المُرجّيـــنا
إذا هممتُ بأمرٍ لي أُزخرفُـه سدّتْ سماجتُه عنّي التحاسينا [5]

فهذا مَعلَمٌ من معالم عصر الشاعر ، اتصلَ بـه اتصالاً وثيقاً ، وترك فيه أثراً قويّاً مُلازِماً.

(3)

ثم أنّ هاهنا أيضاً مَعلَمٌ آخَرُ بارزٌ من معالم عصر الحِمّاني لابُدّ من الوقوف عليه ، لِما لـه من أثّر في تصاريف حياته ، وإن لم يكن بقوة واستمرارِ ذاك فيما يبدو لنا. ذلك المَعلَم هو الثوراتُ العلويّةُ / الزيديّة الكثيرةُ ، التي كانت تنفجرُ بالتوالي في هذه الناحية أو تلك من نواحي إيران ، خصوصاً في المنطقةُ الجبليّةُ منها ، للاستفادةِ من حصانتِها الطبيعيّة ، وبعضُها الأقلّ في العراق . نذكُرُ منها ثورةَ الحسن بن زيـد الحسني سنة 250هـ / 864 م ببلاد طبرستان الجبليّة ، والحسن بن علي الحسني، المعروف بالأطروش وولَدُه ، ثم الدّاعي الحسن بن قاسم الحسني ، ومحمد بن جعفر الحسني ، وكلّها في منطقة طبرستان أيضاً ، والحسن بن إسماعيل الحسني ، المعروف بالكركي ، في قزوين ، وأحمد بن عيسى الحسيني في الريّ ، ويحيى بن عُمر الزيدي ، والحسين بن محمد الحسيني في الكوفة [6]. وكلُّها في سنواتٍ مُتقاربة ، وأثناء حياة الحِمّاني المَديدة . وسنرى أنّها كانت سببَ مُعاناته في خواتيم حياته .

ولقد اكتوى الشاعرُ بنارِ تلك الثورات ، ممّا سنقِفُ عليه في القسم المُخصّص لسيرته ، مع أنّـه لم يضرب فيها بسهمٍ ، ولم يَسِرْ فيها بقَدَم . كلُّ ما تذكرهُ لـه المصادر في هذا الشأن ، أو على هامشِه ، موقفٌ قويٌّ بوجه السُلطة على أثر شهادة أحد أبطال تلك الثورات من ذوي قُرباه . سنقفُ عليه وعلى تداعياته على سيرته فيما سيأتي إن شاء الله . ولكنّ الذي يبدو، أنّه كان يكفي أن يكـون المرءُ في ذلك الأوان علويَّ النّسَب ، مع شيءٍ من قـوّة النّفْس والشّجاعـة

الأدبيّة ، بالإضافةِ إلى الموقع الاجتماعي ، لكي يُصبحَ موضعَ مُلاحقة السُلطة ، مُلاحقةً قد تصِلُ إلى حدّ الاضطهاد وإنزال العقوبة الاحترازيّة المُسبَقَة ، كما حصل لشاعرنا بالفعل .

(4)

فهذان عنصران يبدوان لنا أساسيّين من عناصر العصر الذي اضطربَ فيه صاحبُنا ، بما فيه ما تيسّر لنا قراءَتُهُ من مُواصفاتِ المكان والزمان . خصصناهما بالذكر دون غيرهما من عناصر مُفترضَة ، ممّا يرسمُ معالمَ سيرةِ الناس من قبْلِ الحِمّانيّ ومن بعده ، لأنّهما ما تيسّر لنا كما قُلنا . ثم لأنّهما تركا أثرَهما بيّناً على ما نعرفُه من سيرته. فكان من الطبيعيّ أن نقفَ عليهما في سيرته المكتوبَة ، لأن السيرةَ المكتوبةَ أو المَحكيّة لأيّ شخصٍ ما هي إلا صورةٌ عن الواقعيّة الحقيقيّة ، ستكونُ أقربَ إلى الوفاء كلما كانت عمارتُها أكثرَ بَسْطاً ، وكلّما كانت مادتُها مُمثِّلةً لكلّ عناصر الأصل .

3ـــ سيرتُـه

(1)

ما من ذكرٍ على الإطلاق لمولـد الحِمّاني ، لا في الزمان ولا في المكان . ولكنّنا نعلمُ أنّ والـدَه قد عاش في الكوفة ، وأنّه كانت له فيها مكانةٌ عالية [7] . ممّا يُرجّحُ أنّ ابنَه علي قد وُلـد فيها .

فهذا يحلُّ مُشكلة مكان المولد حلاً ما ، وإنْ على سبيل الترجيح القويّ .

أمّا بالنسبةِ لزمانه . فلقد عرفنا أنّه ما من نصٍّ مباشرٍ عليه . ولذلك فقد حاولنا الحصولَ على تاريخٍ وإنْ تقريبيٍّ لمولِده عن طريق إجراءِ مُقارنات بين المعلومات الميسورة ذات الاتصال بدرجةٍ ما بسيرة الرجل . تعلّمنا من تجاربنا السابقة أنّها قـد تصِلُ أحياناً إلى نتائجَ مُدهشة ، حيث معلومتيَن منها قـد تكشفان المجهولَ الذي نُعالجُ أمرَه ، كما في المُعادلات الرياضيّة . فكان أقصى ما وقعنا عليه كلاماً للناصر الأطروش الحسني ذكر فيه الحِمّاني وأشاد بشعره إشادةً عاليةً [8]. وليس يهمّنا الآن ما قاله ، وسنقتبسه عند موضع الحاجة بعد قليل . وكذلك كلامٌ للإمام عليّ الهادي (عليه السلام) بالمؤدّى نفسه إن لم يكُنْ أعلى ، قاله جواباً على سؤال المُتوكّل العبّاسي : مَن أشعرُ العـرب [9] ؟

(2)

والناصر الأطروش هو الحسن بن علي الحسني ، الإمامُ الثالث عشر عند الزّيديّة (ت: 304هـ /916م) . المُهمُّ بالنسبة لنا الآن أنّ إشادته بشعر الحِمّاني تدلُّ ضمناً على أنّه ، أي الحِمّاني، كان قبل السنة 304 هـ على الأقلّ ، أي سنة وفاة الأطروش ، شـاعراً معروفاً . وهذا يُقرّبنا من المقصود خطوةً . ولكنّ المُشكلة أنّه يقـول لنا ضمناً تأريخاً موقـوفاً عنـد تاريخ وفـاة الأطروش في السنة 304 أو

قبلها ، دون أن يقولَ قبل بكم من الزمان .

الإمامُ الهادي تمتدُ إمامتُه على أربعة أو خمسةٍ وثلاثين سنة (220ـ254هـ / 835 ـ868 م) . إذن فهي ترفعُ تاريخَ شُهرةِ الحمّاني شاعراً خمسين سنة دفعةً واحدة . ولكنّنا عند مُقارنتها بفترةِ حُكم المتوكل (232 ـ 247هـ) ، لأنّ السؤالَ للإمام كان منه ، نُحدّدُ الفترةَ التي تقاطعتْ فيها إمامةُ الإمام مع خلافة الخليفة بخمسة عشر سنة تقع بين السنتين 232و247. كان الحِمّاني أثناءَها قد غدا شاعراً مشهوراً. وعليه فيُمكننا بالاستناد إلى هذه المُقارنة التخمينُ أن تاريخ ولادة الحِمّاني هو في حدود العقد الأخير من القرن الثالث للهجرة . وسيكون لهذه المُقارنة فائدةٌ أُخرى أوثقُ قريباً .

(3)

مهما يكُن ، فيبدو أنّ الشاعرَ قد نشأ وشبّ في الكوفة . وأنّه لأمرٍ ما لم يتلقّ من التعليم ما نتوقّعُ أن يحرصَ أولياءُ البنين الهاشميين خصوصاً على تلقينه لأبنائهم . ولذلك فقد ظلّ طول عُمره يُعاني من ضعف اللغة تركيباً وضبْطاً بالإضافة إلى سُوء الخط ، وهما من أعراض سُوء الإعداد في الصِّغَر. ومع ذلك فقد تغلّبتْ موهبتُهُ الشعريّة على تلك المُعوّقات ، ربما لأن الشعر كان فيه حتى ذلك الأوان بقيّةٌ من صفة الثقافة الجَمْعيّة السّارية بطاقتِها الذّاتيّة ، مثلما كان منذ نشأته الأُولى .

لكنّ ما يُثير لدى المُتأمّل أقصى العجب هو وصفُه فيما وُصف به ، في أقرب المصادر إلى عصره وأوثقِها ، بأنّه " **مُدرّس** " الطالبيين ، بالإضافة إلى أنّه " **نقيبُهم وشاعرُهم ولسانُهم** " [10] . فإذا نحن تقبّلنا بشئ من المَضَض أن هذه الصفات الثلاث ليست ممّا يقتضي بالضرورة أن يكون صاحبُها قد تلقّى ثقافةً منهجيّةً متينةً ، فإنّنا لانتقبّلُ بالسهولة نفسها أنّ هذا الذي عرفنا فَقْرَه بالعلم قد

غدا ، فيما يُقالُ ، " **مُدرّس** " جماعةٍ مُتميّزة كالطالبيين . ثم ماذا كان يُدرّسهم ، وهو الذي لم يُعرفْ أبداً بغير الشعر؟! نقولُ هـذا على الرغم من وصفه في بعض المصنّفات الحديثة بالأوصاف العريضة في هـذا الباب [11] . ونحن لا نرى في ذلك كلّه إلا حماسةً زائدةً في غير محلّها .

(4)

على أنّ هذه النتيجة المؤسفة بالنسبة للرجل لا تسري على ما كان له من موقعٍ مُتقدّمٍ في بلده . فلقد كان شاعراً مُبدِعاً دون ريب ، في عالَمٍ كان الشعرُ فيه من أهم وأجدى أدوات الخطاب العام في كافة الشؤون ، خصوصاً الشأن السياسي. وكان قسمٌ لا يُستهانُ به من شعره وظيفيّاً ، غالباً لغرضٍ سياسيّ ، عبّر فيه بوضوح عن تعاطفه مع الثائرين العلويين / الطالبيين . ومن المفهوم أنّ ذلك منحهُ موقعاً مُتميّزاً في الكوفة ، المدينة المُعرقة في التشيّع . الأمرُ الذي عبّر عنه المؤرّخُ المسعودي بوصفه بـ " **نقيبهم** [الطالبيين] **وشاعرهُـم ولسانهم**" . شرط أن لا نفهم من كلمة "**نقيبهم**" أنّه كان يشغلُ منصبَ النقابة رسميّاً، على النحو الذي جَدّ فيما بعد ، بحيث كان للطالبيين نقيبٌ مركزيّ في بغداد ، وأحياناً نقيبٌ محلّيّ في الكوفة ، حيث تقطنُ جاليةٌ واسعةٌ منهم . ولكنّه كان حقاً "**شاعرهم ولسانهم**" الذي لم يُفوّت فرصةً للتعبير عمّا تكنّهُ نفوسُهم . ممّا يمنحُنا ما وصل إلينا من شعره صورةً على حدّ الوفاء به .

(5)

هكذا يمكنُ أن نتصوّرَ الوضعَ البالغ الدِّقّة الذي كان الحِمّاني يتحرّكُ ضمن حُدوده . هو طالبي وشاعر الطالبيين ولسانهم ، وإنْ يكُنْ (أي اللسان) قصيراً بسبب دِقّةِ الموقع الذي يصُولُ فيه . في الوقت الذي كانت فيه ثوراتهم تتوالى في أنحاء إيران والعراق ، وتنجحُ في إنشاء أنظمة حُكمٍ محليّة مُستقلّة ، تعيشُ زمناً ما

ثم تنهارُ لسببٍ أو لغيره ، لكن لتنهضَ رصيفتُها في مكان آخر ، ومنه الكوفة ، وهكذا دواليك . ومن الغني عن البيان أن مُحافظةَ إنسانٍ كالحِمّاني على شئٍ من التوازن ضمن هذا الوضع البالغ التعقيد، بحيثُ ينسجمُ مع موقعِه داخل المجموعة الطالبيّة المحلّيّة بوصفه شاعرُهم ولسانُهم، وفي نفس الوقت لا يستفزُّ السُلطة بما لن تسكتَ عليه ، ـ كـان على حُدود الاستحالة . وسيبقى مرهوناً بحصول لحظةٍ تتكسر فيها كلُّ إمكانيّةٍ لهذا التوازن السّلبي .

ولقد أتتْ هذه اللحظة على أثر قَتْل أحد الثائرين الطالبيين بالكوفة . ذلك هو يحيى بن عُمر بن يحيى بن الحسين بن زيد . وهو ابنُ عمٍّ بعيدٍ للشاعر ، يلتقيان في ابني الشهيد زيد : حسين جد يحيى ، ومحمد جدُّ علي .

ظهر يحيى في الكوفة سنة 248هـ/862 م لمحنةٍ نالته من المتوكّل العباسي وبعض رجاله [12] ، فلقيهُ الحسين بنُ إسماعيل ، قائدُ الشُّرطة ، بجيشٍ فقاتله وقتله سنة 250 هـ / 864 م . ورثاه الحِمّاني ببضع قصائد من عُيون الشعر سنوردُها فيما سنأتي عليه من شعره . ولو انّ الأُمور بقيتْ عند هذا الحدّ ، لكان من المُمكن أن تبقى ضمنَ ذلك التوازن الحَرِج الذي وصفناه أعلاه . لكن يبدو أنّ رغبةَ قائد الجيش باستعراض نصره بطريقةٍ لا تخلو من الفظاظة المعهودة في أمثاله ، قد تفاعلَ بحيث أنتجَ وضعاً يصعُبُ الإغضاءُ عليه ، ممّن يُفترَضُ أنّه يُمثّلُ الطالبيين في الكوفة . ذلـك أنّ ابنَ إسماعيل لمّا دخل الكوفة جلس للناس جلوساً عامّاً ، لتلقي التهاني . " **ولم يتخلّفْ عن سلامه أحدٌ من آل علي بن أبي طالب** " إلا صاحبنا . فبعث إليه الحسين بمن استحضره مخفوراً وعاتبه على تخلُّفه. فأجابه بجواب يُوصفُ في غير مصدرٍ بأنّه " **جوابُ مُستقتلٍ آيسٍ من الحياة** " . قال مُستنكراً : "**أردتَ أن آتيكَ مُهنّئاً بالفتح وداعياً بالظفر؟!**" وأنشد :

قتلتَ أعزَّ مَـن ركب المطايا وجئتُكَ أستلينُك في الكلام

وعــزَّ علـيَّ أن ألقـــاك إلا وفيما بيننا حـــدُّ الحُسام
ولكنّ الجنـاحَ إذا استُهيضَتْ قوادمُهُ يَـــرفُّ على الإكام (13)

والذي يستظهرُهُ المُتأمّل من مُجمل موقف الحِمّاني ، وخصوصاً الأبيات التي واجه بها هذا المَغرور، أنّه كان يتوقّعُ ما سيواجهه به ، وأنّه هيّأ في ذهنه الجــوابَ الحازم ، ومن ذلك وضْعُ الطالبيين عموماً في دولة بني العباس ، حيث وصَفَهُم في البيت الأخير بأنّهم كالجناح الجريح ، الذي لا مطمعَ له بأكثر من أن "**يرفَّ على الإكام**" الدّانية . أمّا العوالي فهي مسرحٌ لغيرهم . والظاهرُ أيضاً أنّ الحسين لم يكُن يتوقّعُ أن يسمعَ من مُخاطبه كلاماً على هذا المُستوى من الحزمِ وطَرْحِ الحذر.
فأنهى الجلسة بأن خاطبه قائلاً :" **أنت موتور ، فلستُ أُنكرُ ما كان منك** (14)" . وهذا كلامٌ يدلُّ على مكْرٍ ودهاء .

(6)

كانت تلك الجلسة وما جرى فيها بمثابة النّذيرِ الصّريحِ للدولة ، بأنّ هذا الطالبيَّ البارزَ هو مشروعُ ثائرٍ مُنتَظَرٍ آخَر، في سلسلة الثائرين المُتوالين من أهلِ بيته ، الذين ما انفكوا يصدعون رأسَها ثائراً من بعدِ ثائر . فلا عجب ، إذن ، في أن نراها بعد قليل وقد زجّت بالحِمّانيَّ في السجن. لا لذنبٍ جناه ، وإنّما " **لأمرٍ شُنّع به عليه أنّه يُريدُ الظهور**" (15)" يعني أنّه يُريد الخُروج على السُّلطة القائمة بالفعل. وكلُّ شئ يدلُّ على أنّ هذا الذي سمّاه النصُّ المُقتَبَسُ أعلاه بالتشنيع أتى نتيجةَ تلك الجلسة الحافلة . وأنّ الحسين بن إسماعيل لم يُغضِ على الكلام الكبير الذي سمعه من الحِمّاني أثناءَها ، إلا ليستأمرَ أولياءَ الأُمور في بغداد فيما تراه في شأن ما يُمثّله هذا الطالبي من خطر . بالنتيجة أمرَ المُوفّق بالله بحبسه فحُبس . وبقي الحِمّاني رهين الحبس سنين ، لعلّها عشرٌ أو تقِلُّ عن ذلك قليلاً . وقيل أنّه لم يُطلَقْ إلا بعد أن استعطفَ الموفّقَ ببيتين من الشعر، كتب بهمـا إليه

من الحبس ، خاطبَه فيهما بقولِه :

قد كان جدُّك عبدُ الله خيرَ أبٍ لابنـَي عليٍّ حسين الخير والحســـن

فالكفُّ يوهنُ منهـا كلَّ أنملـةٍ ما كان في أُختِها الأُخري من الوهن

والمقصود بـ " **عبد الله** " في البيت الأوّل ابن عبّاس حَبْرَ الأُمّـة .

والذي في عامّة المصادر أنّه " **لمّا وصلَ هذا الشعر إليه** (أي إلى المُوفّق) **كُفِـلَ** [يعني الحِمّاني] **وخُلـيَ إلى الكوفة** "[15]. والذي يقودُ إليه التأمُّلُ في البيتيَن وملابستِهما ، على مافيهما من ركاكةٍ يسهُلُ تفسيرُها ، أنّه ما من سببٍ يدعو إلى الشكِّ في صحّة الخبر ، بيدَ أنّنا لسنا نرى أنّ هذا الاستعطاف كان السّببَ التامَّ لإطلاق الرجل مـن السجن ، بل نظنُّ أنّه إنّما كان سبباً لإعادة النظر بوضعه ، وهو الذي كان قد بلغ السبعين أو تجاوزها[16] ، وبذلك لم يعُدْ هناك من سببٍ جِدّيّ لحبسه الاحترازي . بل وربما كان مريضاً مُدنَفاً ، بدليل أنّ حياته لم تطُلْ بعـد السجن ، وتوفي بعد أن أُخلي بمُدّةٍ قصيرةٍ .

بالنسبة لتاريخ وفاته ، فإنّ ما أوردناه من قصّةٍ دقيقةٍ في جُزئيّاتِها لسيرته ، فضلاً عن أنّها مُركّبَةٌ تركيباً مُتكامِلاً ، يحسمُ النزاعَ في الأمر بين ثلاثِ رواياتٍ ، تقولُ بمُجملِها أنّها حصلتْ ، أي الوفاة ، في السنة 260 أو 270 أو 310 . ومن الواضح للقارئ الحصيف أنّ التاريخَ الوحيدَ الذي يُناسبُ القصّة ، منذ ثورة يحيى بن عُمر ومقتله سنة 250 حتى وفاة الحِمّاني ، هو التاريخُ الأوّل حصْراً . والتدقيقُ في هذا مُمكن جدّاً ، ولكنّنا نراه دون طائل . خصوصاً وأنّ هذا التاريخ هو ما ذهب إليه المؤرخان الكبيران المُعاصران له : المسعودي والطبري [17] .

---

4 ــــ شعره

يُعتبَرُ الحِمّاني أحدُ أكبر شاعريَن من آل أبي طالب ، ثانيهما محمد بن أحمد بن طباطبا الحسني (ت : 322هـ / 933م) . ولكنّه أيضاً من بيتٍ مُعرِقٍ في الشِّعر . وكان من قوله :" **أنا شاعرٌ ، وأبي شاعر ، وجَدّي شاعر ، وأبو جَدّي شاعر إلى أبي طالب** " [18] .

ما وصلَ إلينا من شعره هو من أغراضٍ عديدةٍ ، أكثرُها أهميّةً العقيدةُ والسياسة . ومن هذه الرّثاء ، وهو حصْراً في الشهداء من آل بيته ، فيكونُ بهذا الاعتبار جزءً ومُعبّراً عن موقفه السياسي ، ومرآةً لعصره وما اضطرب فيه الناسُ ، وهو منهم ، في ذلك الأوان . ولقد أشَرْنا فيما فات قبل قليل إلى اعتزاز العلويين بشعره فيما قاله الإمامُ الهادي (عليه السلام) جواباً لسؤال المُتوكّل إياه : " **مَنْ أشعرُ العرب ؟** " فأجاب : " **الحِمّاني** " ، وفيما أثِرَ عن الحسن الأطروش أنّه قال : " **لو جازَ قراءةُ الشِّعر في الصلاة لَكان شِعر الحِمّاني** " [19]. لكنّ الحقيقةَ ، من وُجهةِ نظرٍ نقديّةٍ صِرْفَةٍ ، أنّ إبداعَ الحِمّاني هو ، فيما أرى ، في غزليّاته وتشبيهاته . أظنُّ أن المفاجأة التي يُخبّئها شاعرُنا لذوّاقة الشعر وللنُّقاد هي في هذا الباب .

ولقد كان شعره مجموعاً في ديوان ، ظلّ معروفاً مُتدَاوَلاً حتى القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر للميلاد، بشهادة قول النسّابة ابن عنبة (ت : 828 هـ / 1424 م) : " **له** [أي للحِمّاني] **ديوانٌ مشهور** [20]" ، ولكنّه ، على شُهرته إلى ما قبل خمسة قرون على الأقلّ ، مفقودٌ اليوم من أسف . كما أنّ المسعودي اعتنى بذكر كثيرٍ منه في كتابه (أخبار الزمان) ، عند ذكر أخبار الطالبيين ، وأيضاً في كتابه(مَزاهر الأخبار وطرائف الآثار) في أخبار آل النبي (صلوات الله عليه وآله) [21] ، وهما أيضاً مفقودان . كما أنّهُ استشهد في كتابه الأشهر(مروج الذهب) بمجموعةٍ جيّدةٍ من شعره ، بحيث أصبح الكتابُ أوثقَ وأحوى مصدرٍ له . المُهمُّ أن ما بقي

من شعره موزّعٌ اليومَ في كُتُب التاريخ والأدب والسيرة .

سنُخصّصُ الفصل التالي لمُنتخباتٍ ممّا وصلنا من شعره . مُراعين في الانتخاب أولُ أن يكون ممّا صحّت نسبتُهُ إليه ، ثم أن يكونَ بمُجمَله مُعبّراً عن أغراضه في الشِّعر .

هوامش الفصل

1ـ في عُمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب لابن عنبة ، ط. النجف 1961/ 200 : "**علي بن محمد بن جعفر بن محمد بن محمد بن زيد**" .

وقد أخذ الشيخُ الأميني بهذه السلسلة في كتابه : الغدير في السُنّة والتاريخ والأدب ، ط. طهران 1372هـ : 3 / 57. وهو خطأٌ فيما نُرجّح ، لأننا لم نجِد في كُتُب الأنساب أنّ لمحمد بن زيد ولداً اسمه أيضاً محمد .

2 ـ السُّمعاني، عبد الكريم بن محمد التميمي: الأنساب، نشرة محمد عوامي، ط. بيروت لات: 2 / 258 .

3 ـ ابن شهرآشوب المازندراني، محمد بن علي: معالم العُلماء ، ط. بيروت، دار الأضواء لات/ 150.

4 ـ محمد بن عمران (ت: 384هـ/ 994 م) : المُوشّح في مآخذ العلماء على الشُعراء ، ط. القاهرة 1343هـ / 346 .

5 ـ انظر تخريج البيتين أدنى .

6 ـ فيما يرجع لهذه الثورات المُتلاحقة انظر : المسعودي : مروج الذهب ، نشرة شارل بلّلا ، منشورات الجامعة اللبنانيّة ، بيروت 1974م / الفِقَر 3031 ـ 3041 .

7 ـ محمد بن خلف ، الأشهر بالقاضي وكيع (ت: 306هـ/ 918 م): أخبار القُضاة ، ط. القاهرة 1950/ 191 .

8 ـ معالم العلماء / 150 .

9 ـ الأميني، عبد الحسين : الغدير: 3 / 58.

10 ـ مروج الذهب / الفقرة 3029.

11 ـ وصفه الأميني في الغدير:3 / 59 بأنه " في الرعيل الأول من فقهاء العترة ومُدرّسيهم" . وتُرجم له في (موسوعة طبقات الفقهاء) : 3 / 401 ـ403 بما يعني أنّه فقيه ، ووُصف هناك بـ " مُفتيهم بالكوفة " يعني الطالبيين . وما من دليلٍ على شئ من ذلك . والظاهر أنّ وصفه بـ " مُفتيهم " أتى من تصحيف كلمة " نقيبهم " في بعض المصادر .

12ـ انظر تفصيلَ ذلك في : الطبري : تاريخ ، ط. مصر ، دار المعارف لات :9 / 266 .

13ـ مروج الذهب / الفقرتان 3029 و 2030 .

14 ـ نفسه الفقرة / 3030.

15 ـ أيضاً الفقرة / 3031 .

16 ـ قال من بيتين سنأتي على ذكرهما في (مُنتخبات من شعره) :

أعُدُّ سبعين ولو جُمّلت   نعماؤها عادت إلى عامِ

وقال يشكو الكِبَر :

أُجالس معشراً لاشكلَ فيهم   وأشكالي قد اعتنقوا اللحودا .

17 ـ ايضاً الفقرة 3035 ، والطبري : 9 / 267.

18 ـ أعيان الشيعة : 1 / 379 .

19 ـ معالم العلماء / 150 .

20 ـ عُمدة الطالب / 301 .

21 ـ مروج الذهب / الفقرة 3032 .

مُنتَخباتٌ من شعره

" **وكان ممّن رثاه** [يعنى يحيى بن عُمر العلوي] **عليّ بن محمد بن جعفر العلوي ، فقال :**

يا بقايا السّلف الصّـــا لحِ والتّجْـرِ الرّبيح
نحن لـلأيـــام مـــن بيـــن قتيـــلٍ وجــريـــح
خـابَ وجـــهُ الأرض كم غيّـبَ من وجـهٍ صبيح
آه مــن يومِـك مـا أنـكـــاهُ للقلــبِ القريـــح

" **وفيـه يقـول** " :

تضـوّعَ مسكاً جانبُ القبر إذ ثوى وما كان لولا شِـلْوهُ يتضـــوّعُ
مصــارعُ فتيـانٍ كـــرامٍ أعـــزّةٍ أُتيحَ ليحيى الخير فيهنّ مضجعُ

" **وقولُـه** " :

إنّـي وقومـي من أحساب قومكــمُ كمسجدِ الخيف من بحبوحة الخيفِ
ما علّقَ الســيفُ منّا بابنِ عاشـرةٍ
إلا وسُنّتُه / وهمّته أمضى من السيفِ[1]

" **أنشدَ** [الحِمّاني] **شعراً لا يقومُ على مثلهِ مَن يرغبُ في الحياة وهو** " :

قتلتَ أعـــزَّ مَن ركب المطايــــا وجئتُكَ أستلينُكَ في الكــــــلامِ
وعـــزّ علـــيَّ أن ألـــقـــاك إلا وفيمـــا بيننــــــا حــــدُّ الحُسامِ
ولـكـنّ الجـنــاحَ إذا أُستُهـيضـت قوادمُـهُ يـرفُّ علــــى الإكـامِ (2)

" ...... **فكتبَ** [الحِمّاني] **إليه** [أي إلى المُوفّق] **من الحبْس** " **:**

قد كـان جدُّكَ عبدُ الله خيـــرَ أبٍ لابنـَي عليٍّ حسـين الخير والحسـنِ
فالكفُّ يوهـنُ منهـــا كـــلَّ أنملــــةٍ
ما كان فـي أُختها الأُخرى من الوهنِ (3)

" **وممّا رثى به عليُّ بن محمد أيضاً يحيى بن عمر قوله** " **:**

لعمري لئنْ سُرّتْ قريشٌ بهلْكهِ لَمـا كان وقّـافاً غداةَ التّــوقُّـفِ
فـإن مـات تلـقـاءَ الرماح فإنّـــهُ لمن مَشْعرٍ يشـنون موتَ التنزُّفِ
فلا تشتموا فالقومُ مَن يبـقَ منهمُ على سَنَنٍ منهم مقامَ المُخلّــفِ
لهم معكـم إمّـا جدعتـم أُنوفَكــم مقاماتُ مـابينَ الصّفا والمُعرّفِ
تـــراثٌ لهـم مـن آدمٍ ومحمـــدٍ إلى الثقليَنِ من وصايا ومصحفِ (4)

" **وفيه يقولُ أيضاً** " :

قد كـان حين بـدا الشـبابُ به يقَقَ السّـوالفِ حالكَ الشـعَرِ
وكــأنّــه قمرٌ تـمنطــق فــي أُفُــق السـماء بــدارة البدَرِ
يـابنَ الـذي جُعِلَتْ فضـائلهُ فَلَكَ العُلـى وقـلائدَ السِّــوَرِ
مـن أُســرةٍ جُعِلَتْ مخـايلُــهُ للعالَمين مخايلَ المطــــرِ
تتهيّـبُ الأقــدارُ قـدْرهـــــمُ فكأنّهم قــــدَرٌ على قــَدرِ
فالمـوتُ لا تســوى رميّتُــهُ فَلَكَ العُلى ومواضعَ الغررِ (5)

" **ومن مراثيه المُستحسَنَة في أخيه [** إسماعيل العلوي ، وهو أخوه لأُمّه**] قولُه:**

هذا ابنُ أُمّي عديلُ الروحِ من جسدي شـقّ الزمـانُ بـه قلـبي إلى كبدي
فاليـــوم لـم يبـــقَ شـئٌ أســـتريحُ بـهِ إلاّ تفُتُّتُ أعضـائي مـن الكَمَـدِ

أو مُقلَــةٌ بخفيّ الدّمــع باكيــةٌ أو بيتُ مَرثيّةٍ تبقى على الأبدِ
تُرى أُناجيكَ فيها بالدموع وقد نام الخَليُّ ولم أهجع ولم أكَدِ
مَنْ لي بمثلكَ يانور الحياة ويا يُمنى يديَّ التي شُلّتْ من العضدِ
قد ذُقتُ أنواعَ ثُكلٍ كُنتَ ابلغَها على القلوب وأحشاها على كبدي
قُل للرّدى : لا تُغادرْ بعدَهُ أحداً وللمنيّةِ مَن أحببتِ فاعتمدي
إنّ الزّمان تقضّى بعد فُرقتهِ والعيشُ آذنَ بالتفريقِ والنّكَدِ (6)

" **قال يُخاطبُ صديقاً له رُزق بنتاً فسخطها**" :

قالوا له ماذا رُزقتا؟ فأصاخ ثم أجاب : بنتا
وأجلُّ مَن ولَدَ النساءُ أبو البنات فلِمْ جزعتا
إنّ الذين تودُّ من بين الخلائق ما استطعتا
نالوا بفضل البنت ما كبتوا به الأعداءَ كبْتا (7)

" **قال يطعنُ في نسب الشاعر علي بن الجهم مُخاطباً إياه**" :

لو اتخذتَ النّضْرَ أو مَعَدّا أو اتخذتَ البيتَ كهفاً مهدا
وزمزماً شريعةً ووِردا والاخشبيَن محضَراً ومبدا
ماازددتَ إلا عن قريشٍ بُعدا أو كُنتَ إلا مصقليّاً وغدا (8)

" **وقال يطعنُ في نسب علي بن الجهم ، مُعرّضاً باضطراب الناس في عقِبِ سامة بن لؤيّ ، الذي يزعمُ ابنُ الجهم أنّه منه**" :

وسامةُ منّا فأمّا بنوه فأمرهمُ عندنا مُظلِمُ
أُناسٌ أتونا بأنسابهم خرافةُ مُضطجعٍ يحلمُ
وقُلتُ لهم مثلَ قول النبي وكلُّ أقاويلهِ مُحكَمُ

إذا ما سُـئلتَ ولم تَدْرِ ما   تقولُ فقلْ: ربّنا أعلمُ[9]

" قال يُخاطبُ صاحبَ الزّنج ، وقد ادّعى أنّـه علوي" :

يقولُ لك ابـنُ عمّك من بعيـدِ   لَتَبّـــتْ أو لـنوحٍ أو لـهُــودِ
لهِجْـتَ بنـا بـلا نسبٍ إلينـا   ولو نُسِبَ اليهـودُ إلى القرُودِ
لحِقتَ بنـا علـى عجَلٍ كـأنّـا   علـى وطنٍ وأنتَ على بريــدِ
فهبْنـا قـــد رضيناك ابنَ عـمٍ   فمَن يرضـى بافعال اليهودِ [10]

سادتي عُدّتي عمادي مَـــلاذي سـادةٌ عندهم تُحَطُّ الرّحـالُ
سـادتي سـادةٌ بهم ينـزلُ الغيـ ـثُ علينا وتُقبَـلُ الأعمـــالُ
ســادةٌ حبُّهُم يحِـطُّ الخطايـا ولديهـــم تُصَـدّقُ الآمـــالُ
ســادةٌ قــادةٌ إليهـــم إذا مـــا ذُكِرَ الفضلُ تُضرَبُ الأمثــالُ
وبهم تُدفَعُ المكــارهُ والخيــ ـفَةُ عنّا وتُكشَـفُ الأهـــوالُ
وبهم طابـتْ المواليـــدُ وامتـا زَ لنا الحقُّ والهُدى والضلالُ
وبهـم حُـرّمَ الحـرامُ وزال الشّـكُّ في ديننـا وحَـلّ الحــلالُ[11]

يــاآلَ حــم الـذيـــن بحُـبّــهـم حكـمَ الكتـابُ مُنـزّلاً تنزيـــلا
كـان المَديـحُ حلِى الملوكِ وكنتمُ حِلَلَ المدائـح غـرةً وحُجـــولا
بيــتٌ إذا عـدّ المـآثـرَ اهلُـــهُ عـدّوا النبـيَّ وثـانيـاً جبـريـلا
قومٌ إذا اعتدلوا الحمائلَ أصبحوا مُتَقسّمينَ خليفَــةً ورســـولا
نشأوا بـآياتِ الكتاب فما انثنــوا حتـى صدرنَ كُهــولـةً وكُهولا
ثقَـلان لــن يتفرّقـا أو يُطـفِـئـــا
بالحـوضِ مـن ظمـأ الصُّدور غليــلا

وخليفتــان علـى الأنـام بقولـــهِ الحقُّ أصـدقُ مَن تكلّمَ قيــلا
فـأتوا أكُفَّ الآيسـين فـأصبحــوا مايعدلون سوى الكتاب عديلا (12)

قالت : عييتَ من الشكوى . فقلتُ لهـا
جُهـدُ الشّكايـةِ أن أعيـا مـن الكَلِــمِ
أشكو إلــى الله قلبـاً لو كحلـــــتُ بـــه
عينــيكِ لاختضبَتْ مـن حُمـرةٍ بـــدمِ
لا تُبرمـي فاقـــــدَ الدنـيــا وبـهجتَـهــا
ومـا يُســـرُّ بـــه منهـا ، بـلا ولـمِ (13)

ربمــاسـرّنـي صُدودُكِ عنّـي وتنـائيكِ وامتنـاعـكِ عنّـي
ذاك ألاّ أكـونَ مفتـاحَ غيـري وإذا مـا خلوتِ كنتُ التمنّي (14)

هواكِ هـو الدنيا ، ونيلُكِ مُلكُهـا وهجْـرُكِ مقــرونٌ بكلِّ هـــوانِ
كذبتُكِ، ما قُلتُ الذي أنتِ أهلهُ بلى، لم يجِدْ ما فوقَ ذاك لساني (15)

بـأبـي فمٌ شـهِدَ الضميرُ لـهُ قبلَ المَذاق بـأنّـهُ عـذبُ
كشـهـــادتـــي لله خـــالصـــةً قبلَ العيان بـأنّـــهُ الـرّبُّ
والعينُ لا تغنـى بنظـرتِهـا حتـى يكـونَ دليلُهـاالقلب (16)

وجـهٌ هـو البـدرُ إلا أنّ بينهمـا فضـلاً تـلألأُ عن حافاته النورُ
في وجـه ذاك أخاطيطٌ مُسوّدةٌ وفي مضاحكِ هذا الدر منثورُ (17)

ترى ضبّها مُطلِعاً رأسَـهُ كمـا مدّ سـاعدَه الأقطـعُ
لـه ظاهـرٌ مثلَ بُرْدِ الوشـى وبطنٌ كمـا حسرَ الأصلـعُ
هو الضّبُّ ما مدّ سكّانَـهُ وإن ضمّه فهو الضفـدع (18)

إنّي سـألتُكِ باخـتـلا س اللّحظِ من تحت السيوف
وبمـا جنَتْ تلك العيو نُ على القلـوب من الحُتُـوف
وبسطـوة المولـى إذا أزرى علـى العبـدِ الضعيـف
لا تجمعي ضَنَّ البخيـ ل وسطوةَ المولـى العَسـوف (19)

وهيفاءُ تلـحظُ عـن شـادنٍ وتبسُمُ عن زهَر الأُقحـوان
وكالغُصـن بان وجدْل العنـان وميّـادة القُضُب الخيـزُران
ترى الشمسَ والبدر، معناهُما بهـا واحداً ، وهمـا معنيـان
إذا أطلعَـتْ وجههـا أشـرقا بطلعتِها وهمـا آفـلان (20)

" **قال يُجيبُ الوضّاح الكوفي وقد اعتذر إليه** " :

ليس جُودُ الربيع راشف وجـه الأ رضِ عـن مَبسَـمٍ مـن الأنـوارِ
لا ولا العاشقان ضمّـهُمـا الشّـو قُ على غاية الضّنى فـي إزارِ
فهمـا مُلصقـان كالسّـاعـدِ البيـ ضاء عضّضتَها بضيق السّوارِ
كأخٍ عهدُهُ وعهـدي فـي الـودِّ كعهـدِ الأنـواءِ والأمطـارِ
رقّ معنـاهُما ، فلم يلبسـا الأ يّـامَ إلا علـى اقتراب المَـزارِ
لـجّ فـي الاعتذار مـن شفقِ الوجـ دِ ، وأجللتُهُ عن الاعتذارِ (21)

عصيتُ الهوى وهجرتُ النساءا وكُنـتُ دواءً فأصبحـتُ داءا

وما أنسَ لا أنسَ حتى الممات نَزيبَ الظباء تُجيبُ الظباءا
دعيني وصبري على النّائبات فبالصّبر نِلْتُ الثَّرا والثواءا
وإن يكُ دهري لوى رأسَهُ فقد لقي الدهرُ منّي التواءا
ليالي أروى صُدورَ القَنا وأروي بهنّ الصُدور الظّماءا
ونحن إذا كان شربُ المُدام شربنا على الصافناتِ الدماءا
بلغنا السماءَ بأنسابنا ولولا السماءَ لجُزنا السماءا
فحسبُكَ من سُؤددٍ أننا بحُسن البلاءِ كشفنا البلاءا
يطيبُ الثناءُ لآبائنا وذكرُ عليٍّ يزينُ الثناءا
إذا ذُكر الناسُ كُنّا ملوكاً وكانوا عبيداً وكانوا إماءا
هجاني قومٌ ولم أهجُهُم أبى الله لي أن أقولَ الهجاءا (22)

ساعٍ بكأسٍ بين نُدمائي كالغُصُنِ المُنعصرِ الماءِ
كأنّما يسعى لوجدي بهِ ما بينهم في ثَنْي أحشائي
أغارُ من وقفتهِ كلّما قال لحاسي الكأس : مولائي
حتى لقد صاروا ـ وهم إخوتي ـ من شِدّة الغَيرة أعدائي (23)

هبني حنَنْتُ إلى الشبابِ فطمستُ شيبي باختضابِ
ونفقتُ عند الغانياتِ بحيلتي وجهاز ما بي
مَن لي بما وقفَ المَشيبُ عليه من ذُلِّ الخضابِ
ولقد تأمّلتُ الحياةَ بُعيدَ فقدان التصابي
فإذا المُصيبةُ بالحياةِ هي المُصيبةُ بالشّبابِ (24)

لـعـمْـركَ مـا المشيـبُ علـيّ ممّا فقدتُ مـن الشبـاب أشــدّ فوتا
تملّيـتُ الشـبـابَ فصـار شــيباً وأبـليتُ المَشيبَ فكان موتا (25)

هبْنـي بقيتُ على الأيّـامِ والأبدِ ونِلْتُ ما شئتُ من مالٍ ومن ولدِ
مَنْ لي برؤيـة مَن قد كُنتُ آلفُهُ وبالشـباب الـذي ولّـى ولـم يعُـــدِ
لا فارقَ الحُزنُ قلبي بعد فرقتهم حتى يُفرّق بين الروحِ والجسدِ (26)

فلمّـــا وردَ الشّــيـــبُ بنوعيــن من الـوردِ
تصدّيـــتُ فصدّت خلـ وةٌ مـن ألــم الصّــدّ
كما صُدّتْ عن الشمس سراعاً أعين الرُّمــدِ (27)

ويومٍ قد ظللتُ قريرَ عينٍ بـهِ في مثلِ نعمَةِ ذي رعينِ
تُفكِّهُني أحاديثُ النّدامــى وتُطربُنــي مُثَقّفَـةُ اليـــدينِ
فلولا خوفُ ما تجني الليالي قبضتُ على الفُتوّةِ باليــدينِ (28)

وليــلٍ مثل خافيَةِ الغُـرابِ عيِيّ مَـــذاهبٍ وخفـيّ بـــابِ
دلفْتُ لـهُ بأسودَ مُســتَمِرٍ كما نظَرُ الغِضاب إلى الغِضابِ
أجَشُّ كأنّمـا قابلـتَ منـهُ تَبَعُّــقَ لُجّـةٍ وحريـقَ غـــابِ
تـراهُ كـأنّ عينَكَ لا تــراهُ إذا وصلَ الوثاب إلـى الوثـــابِ
كـأنّ لـدى مَغـابِنِـهِ التماعاً تـهـــارشُ عنـدَهُ بقـعُ الكـــلابِ
يُخالِسُ بينها رَفْعاً ووضعاً كما خفقَتْ بنانُــكَ بالحساب (29)

سقياً لمَنزلـةٍ وطِيــبِ بيـن الخورنـق والكثيـــبِ
بمــدافــع الجرعات من أكنافِ قصرِ أبي الخصيبِ
دارٌ تخـيّـرهــــا الملو كُ فهتّـكـتْ رأيَ اللبيـــبِ
واهــــاً لأيّـــامِ الشـبا بِ بَعُدْنَ من عهدٍ قريـبِ
أيّامَ غصـنُ شــبيبتي ريّـان مُعتدلَ القضيـــبِ
أيّـــامَ كُنتُ من الطروبَـ ـة للصّبا ومن الطّـــروبِ
أيّامَ كُنتُ من الغواني كالسّـــوادِ مــن القُلـــوبِ
لـو يســتطعنَ خبأنني بين المخـــانقِ والجُيــوبِ
أيّـــامَ كُنــتُ وكُــنّ لا مُتَحَـرّجينَ مــن الـذّنُـوبِ
غِــرَّيْـنِ يشـــتكيان ما يجِــدان بالـدّمع السّـكوبِ
لـــم يعرفـا نكَـداً سوى صـــدّ الحبيب عن الحبيبِ (30)

مَررتُ بِـــدُورِ بنـــي مصعبٍ بدُورِ السّرورِ ودُورِ الـفـرَح
فشـبّهتُ سُــــرعـةَ ايّـــامِهم بسُــــرعة قوسٍ يُسَمّى قُزَح
تلوَنَ مُعتــرضاً فـي السّــما ءِ فلمّا تمكّنَ منها نــــزح (31)

فيا أسفي علـى النّجـفِ المُعرّى وأوديـــةٍ مُنَــوّرةِ الأقــــــاحِ
ومـــا بسطَ الخورنقُ من رياضٍ مُفَجّـــرةٍ بأفنيَــةٍ فِســـــاحِ
ووأســـفاً على القنّـــاصِ تغدو خرائطُها على مَجرى الوِشاحِ (32)

حسْـبُ العواذل أنّ الوَجدَ أوحشَـهُ من نومـهِ فكأنّ النومَ تسهيدُ
أبقى الهوى منـهُ جسماً كالهواءِ ضنـىً تنسّمُ الريحُ فيه وهو مَقصودُ

كأنّ مَدمعَهُ تجري أوائلُه   كمـــا يفيضُ على أُخراهُ مردودُ
أنستُ بالذكرِ منها والسُّهادِ لــهُ   أعجِبْ بهِ من مُسيءٍ وهو مورودُ
أتبعتُهـا نفَســاً تـدمـى مســالِكُـهُ   كأنهُ من حمى الأحشاءِ مقدودُ
ما زِلْـتُ أعرفُ أيّامي وأُنكرُها   حتى انبرتْ وهي لا بيضٌ ولا سُودُ
خاضـتْ بـيَ الشّـكَّ حتى قـال قائلُها   لا القُربُ قُربٌ ولا التبعيدُ تبعيدُ [33]

بين الوصـيّ وبين المصطفى نسبٌ   تختالُ فيه المعالى والمحاميدُ
كانا كشمسِ نهارٍ في البُروج كما   أدارَها ثَمّ إحكامٌ وتجويدُ
كسَيرِها انتقلا من طاهرٍ عَلَمٍ   إلى مُطهّرةٍ أبــاؤها صِــيـدُ
تفرّقا عند عبد الله واقترنا   بعد النبوّة ، توفيقٌ وتسديـدُ
وذّرّ ذو العرش ذَرّاً طاب بينهمـا   فانبثَّ نـورٌ لـــه في الأرض تخليدُ
نورٌ تفرّعَ عند البعث وانشعبت   منه شُعوبٌ لها في الدين تمهيدُ
هم فتيةٌ كسيوف الهند طـــال بهم   على المَطـاوِلِ آبـاءٌ مناجيدُ
قومٌ لمــاء المعالي في وجوههمُ   عند التّكَـرُّم تصويبٌ وتصعيدُ
يدعون أحمـدَ إنْ عُـدّ الفخـار أبــاً   والعُودُ ينبتُ فى أفنانـهِ العُـودُ
المنعمون إذا ما لـم تكُنْ لهـم نِعَـمٌ   والذّائدون إذا قلّ المـذاويـدُ
أوفـوا من المجدِ والعليــاء في قُلَـلٍ   شُــمٍّ قواعـدهنّ البأسُ والجُـود
ما سوّدَ الناسَ إلا مَن تمكّنَ مـن   أحشــائِهِ لهمُ ودٌّ وتســويدُ
سُبْطُ الأكُـفِّ إذا شيمَت مخايلُهــم   أُسْـدُ اللّقـاءِ إذا صدّ الصناديـدُ
يزهـى المَطـافُ إذا طافوا بكعبَتـهِ   وتشـرئبُّ لهم منهـا القواعيـدُ
في كلِّ يــومٍ لهم بـأسٌ يُعاشُ بــهِ   وللمكارمِ من أفعالهــم عيـد
مُحَسّـدون ومَن يعقُـد بحُبّهــمُ   حبـلَ المودّةِ يضحـى وهو محسودُ
لا ينكـر الدهـر أن ألـوى بحُبّهــمُ   فالدهرُ مُذ كان مَذمومٌ ومحمودُ[34]

أنتُمـا سيّدا شبابِ جنــان الــ ـخُلـدِ يوم الفوزيَن والرّوعتيَن
يـاعديلَ القرآن من بين ذي الخَلـ ـقِ ، ويا واحِداً من الثّقليـنِ
أنتمـا والقُران مُذ أنـــــــــ ـزِلَ مثـلَ السّـماء والفرقـديـنِ
قُمْتُمـا من خلافة الله فـــي الأر ضِ بحقٍّ مقامَ مُسـتَخلَفَين
قالـهُ الصادقُ الحـديث ، ولـن يفـ ـترقا دون حوضِـهِ واردين [35]

يـا آلَ أحمدَ أنتــم خيرُ مُشــتَمِلِ بالمكرُمــاتِ وأنتـم خيرُ مُعتـرفِ
خلافـةُ الله فيـكم غيرُ خافيــةٍ يُفضي بها سلَفٌ منكم إلى خلف
طبتُم فطابـتْ مواليكُـم لطيبتكُــم وبـاءَ أعداؤكم بالخُبثِ في النُطفِ
رأيـتُ نفعـي وضَرّي عندكُم فــإذا ماكان ذاك فعنكم أين مُنصَرَفي [36]

متى أرتجى يوماً شفاءً من الضّنـا إذا كان جانيهِ علىّ طبيبى
ولي عائداتٌ ضِفتُهُنّ فجئن في لباس سوادٍ في الظلام قشيبِ
نُجومٌ أُراعي طولَ ليلي بُروجَها وهُنّ لبُعد السّيرِ ذات لُغوبِ
خوافقُ في جنح الظلام كأنّهـا قُلوبٌ مُعَنّـاةٌ بطولِ وجيبِ
ترى حُوتَها في الشرق ذات سباحةٍ وعقربَهـا في الغرب ذات دبيبِ
إذا ما هوى الإكليلُ منه حسبتَهُ تهدّلُ غصنٍ في الرياض رطيبِ
كأنّ التي حول المجرّةِ أوردتْ لتكرعَ في ماءٍ هناك صبيبِ
كأنّ رسولَ الصُبح يخلطُ في الدُجى شـجاعةَ مقـدامٍ بجُبنِ هيـوبِ
كأنّ اخضرارَ البحر صرحٌ مُمَرّدٌ وفيه لآلٍ لم تُشَ بثقوبِ
كـأنّ سوادَ الليل في ضوء صُبحهِ سوادُ شبابٍ في بياض مَشيبِ

كأنّ نذيرَ الشمس يحكي ببشره   عليّ بن داودٍ أخـي ونسيبي
ولولا اتّقائي عتبَه قلتُ سيّدي   ولكن يراها من أجلّ ذُنوبـي
جوادٌ بما تحوي يداهُ مُهذّبٌ   أديبٌ غدا خِلاًّ لكل أديبِ
نسيبُ إخـاءٍ وهو غير مُناسِبٍ   قريب صفاءٍ وهو غير قريبِ
ونسبةُ ما بين الأقارب وحشةٌ   إذا لم يؤلّفها انتسابُ قلوبِ (37)

لا والذي عـاذَ بإحرامـهِ   رَكْــبٌ يُلبّون بإحــرامِ
أعُدُّ سبعين ولو جُمّلتْ   نعماؤها عادتْ إلى عامِ (38)

ولقد نظرتُ إلـى الفِـراقِ فلم أجِدْ   للموتِ لو فُقِـدَ الفِراقُ سـبيلا
إنّ المَصـائِبَ لو تُصوّرُ ما عَدتْ   مُسـترحِــلاً بالبيـنِ أو مَرحـولا
ياسـاعةَ البينِ انبري فكــأنّـمــا   واصلْتِ ساعاتِ القيامة طُـولا(39)

هوامـش الفصل

1 ـ مروج الذهب / الفقرة 3028 .

2 ـ نفسه / الفقرة 3030.

3 ـ أيضاً / الفقرة 3031 .

4 ـ أيضاً / الفقرة 3032 .

5 ـ أيضاً / الفقرة 3034 .

6 ـ أيضاً / الفقرة 3035 .

7 ـ أحمد بن عبد الرزاق المقدسي : الظرائف واللطائف ، ط. إيران على الحجر 1286هـ / 93 . ومن الواضح أنّ المَعنيّ في البيت الأخير هو السيّدة الزهراء (سلام الله عليها) .

8 ـ مروج الذهب / الفقرة 2934 ها .

9 ـ نفسه / الفقرة 1725.

10 ـ نشوان الحميري : الحورُ العين ، ط.القاهرة 202/1948 .

11ـ ابن شهراشوب المازندراني : مناقب آل أبي طالب ، ط. بيروت 1412هـ : 3 / 439.

12 ـ نفسه : 3 / 339 .

13 ـ محمد بن داود الإصفهاني : الزهرة ، ط. بيروت 1932 / 38 .

14 ـ نفسه / 74 .

15 ـ أيضاً / 142.

16 ـ ابن معصوم المدني : أنوار الربيع في أنواع البديع ، ط. النجف 1968: 92/4.

17 ـ المُوشّح في مَآخذ العُلماء على الشُعراء / 56 .

18 ـ أبو هلال العسكري : ديوان المعاني ، ط. القاهرة 1352 هـ : 2 / 147.

19 ـ أنوار الربيع : 3 / 221 .

20 ـ زهرة الآداب / 80 والنويري : نهاية الأرب ، ط. مصر، دار المعارف لات. :33/2.

21 ـ زهرة الآداب / 131 .

22 ـ إبراهيم البيهقي : المحاسن والمساوئ ، ط. القاهرة 1961 / مقدّمة الكتاب لمُحقّقه محمد أبو الفضل إبراهيم .

23 ـ إبراهيم بن أبي عون : التشبيهات ، ط. كمبردج 1950 / 400 .

24 ـ الغدير : 3 / 64 .

25 ـ ديوان المعاني : 2 / 158 .

26 ـ أنوار الربيع : 4 / 147 .

27ـ التشبيهات / 262 .

28 ـ الثعالبي : ثمارُ القلوب ، ط. القاهرة 1965 / 280 .

29 ـ ديوان المعاني : 2 / 114 .

30 ـ أعيان الشيعة :

31 ـ محاضرات الأُدباء : 4 / 384 .

32 ـ معجم البلدان / مادة (النجف) .

33 ـ المورد ، المجلد الثالث العدد الثاني (1974) / 205 .

34 ـ نور الله التستري : مجالس المؤمنين ، ط. إيران على الحجر ، لات /468.

35 ـ مناقب آل أبي طالب :3 / 164 .

36 ـ نفسه : 3 / 439 .

37 ـ زهرة الآداب :2 / 753 .

38 ـ خاصُّ الخاص / 101 .

39 ـ إبراهيم بن أبي عون : التشبيهات ، ط. مُصوّرة بالأُفست عن مجهولة الأصل / 302.

النّـاشـــئ الأكـبــر*

عـبـدُ الله بـن محمـد الأنـبــاري

(ت : 293 هـ / 1002 م)

*من الاعتراف بالفضل لأهله أن نُنوّهَ بالجهد المشكور الذي بذله البحّاثة العراقي المرحوم الأستاذ هلال ناجي الشّقاقي (ت : 1432 هـ / 2011 م) في جَمْع شعر الناشئ من مصادره الكثيرة ، ونَشْرِه في فصليّة (المورد) العراقية الشهيرة في خمسة أقسام بالتوالي ، ابتداءً من العدد الأوّل من السنة الحادية عشرة للمجلّة / سنة 1982م . وقد استفدنا كثيراً من عمله الدقيق في هذه الدراسة .

ـ الشّـــاعر

1 ـ الاســـم وإشكاليّاتُه

عبد الله بن محمد بن عبد الله بن مالك . كذا في **(الفهرست)** لابن النديم[1] و**(لسان الميزان)** لابن حجر العسقلاني [2] . أمّا بقيّةُ المصادر التي ذكرته أو ترجمَتْ له فقد اقتصرتْ على اسمه واسم أبيه ، ولا مُشاحّةَ في ذلك . كُنّي بـ **أبي العبّاس**[3] . ولُقّب بـ **النّاشئ** ، مُحقّقَةَ الهمزة أو بتسهيلها ، مُضافةً إلى " **الأنباري** " أحياناً . وعُرف بـ **ابن شِرْشِير**.

أمّا كُنيته " **أبو العبّاس**" فهي كُنيةٌ دارجةٌ غالباً لمن اسمهم عبد الله .

ويُوردُ غيرُ مصدرٍ على لقبه " **الناشئ**" قصةً خلاصتُها أنه ، وهو الذي نشأ وعاش وماتَ مُعتزليّاً صَلْباً ، دخل مجلساً فيه جَمْعٌ من أهلُ الجَدَل ، وقد كانت هاتيك المجالس ما تزالُ حيّةً في بغداد أيامَ فتوّته وحداثة سنّه ، فتكلّمَ على مذهب المُعتزلة فأجادَ الكلام. فقام شيخٌ من بين الحاضرين فقبّلَ رأسَه وقال :" لا أعدمنا الله مثلَ هذا **الناشئ** أن يكونَ فينا ، وينشو في كلّ وقتٍ مثلُه" [4] . ومُذ ذاك صار "الناشئ" أو "الناشي" لقباً له . ومثلُ هذه الفذلكة ، التي نراها مُصطنَعة ، شائعٌ في تفسير ألقاب المشاهير، خصوصاً التّمجيديّة منها . كما أنّ أثرَ الصّنعة فيها غير خفيّ . وعلى كلّ حال فإنّ من الواضح أنّ هذا النقد موجّهٌ إلى التعليل وليس إلى أصل تلبُّس الشاعر بهذا اللقب ، فهو لقبُهُ الذي يُعرَف به أكثر ممّا يُعرَف باسمه . وقد أُضيفَ إلى لقب الشاعر فيما بعد لقبُ "الأكبر"، تمييزاً له عن شاعر آخَرَ متأخّرٍ عنه ، حمل اللقبَ نفسَه مع إضافة لقب "الأصغر" إلى اسمِه . هو الشاعرُ والكلاميّ البغدادي الذي عاش في مصر زمناً أيضاً، علي بن عبد الله بن وصيف(ت : 366هـ / 976 م) . إذن فهو يُشارِكُ الأكبرَ في أربعٍ من صفاتِه . وربما لذلك مُنِحَ لقبَه . وإنْ

خالفَهُ في مذهبِه .

و"**الأنباري**" نسبةً إلى "الأنبار" . وهي بلدةٌ قديمةٌ ، كانت على نهر الفُرات في جهة بغداد. يفصلُ بينهما دجلة. بينها وبين بغداد عشرة فراسخ ، أي ستون كيلو متراً تقريباً . قيل أنّها إنّما سُمّيت بذلك ، لأنّ الأكاسرة كانوا يخزنون فيها الطعام . والكلمةُ (أنبار) بالمعنى نفسه ، أي البناءُ المخصّص للتخزين من طعامٍ أو غيره ، ما تزالُ في اللغة الفارسيّة الدّائرة اليوم . إذن فلا علاقة لها بمُحافظة الأنبار غرب العراق ، التي مركزُها اليوم مدينةُ الرّمادي ، فهذه المُحافظة وما سُمّيت به حادثة ، وإن يكُن اسمُها مُستفاداً فيما يبدو من اسم تلك البلدة .

وأمّا ما ذُكر من كنيته : " **ابن شِرْشِير** "، فمن الواضح أنّه في الأصلِ لقبٌ لوالده ثم سرى إليه ، مثلما قد تسري ألقابُ الآباء إلى وُلدانهم . وقيل أنّ الـ "شِرْشِير" هو في الأصل اسمٌ لطائرٍ من الطيور المُهاجرة (5) . فتنزلُ في فصل الشتاء المواطنَ الدافئة ، ومنها شواطئ غرب وجنوب البحر المتوسّط والعراق . ولكنّنا نُلاحظُ أن لا وُجودَ اليوم لطائرٍ بهذا الاسم أو بما يُشبهه . ومثل هذه الاسماء ثابتةٌ لا تتغيّر عادةً . كما أنّنا لا نجِدُ له ذكراً حيث يُتوقّعُ أن يُذكَر ، ومن جُملتِها المعاجمُ الكثيرة من مُختصّةٍ وغيرها . الأمرُ الذي يُلقي ظلاً قويّاً من الشكّ على ما أتانا به ابنُ خلّكان على سبيل شرح الكلمة وبيان معناها . وعلى كلّ حال ايضاً ، فما من ذكرٍ لمُناسبة تلقيب الوالد بالـ (شِرشير) ، لكي يلبسَ الابن فيما بعد . ولعلّه ، إن صحّ أنّ الكلمة في الأصل اسمٌ لطيرٍ، لمُناسبةٍ من المُناسبات ذات الصّلة بولع أو اهتمام الأب بالصّيد ، ومنه ـ مثلاً ـ صيدُ هذا الطائر المُفتَرَض ، مثلما سنعرفُ عن أبناء بلده الأنبار ، ومنهم ابنه الشاعر .

وأخيراً نذكرُ له لقبيَن آخَرين نادريَن هما " **الجَدَلي**" الذي نقرأه لدى ابن معصوم المَدَني[6] ، و " **الكَلِمي**" لدى ابن مُنقذ الكناني [7] . ومن الواضح أنّهما لقبان ارتجاليّان ، انتُزعا انتزاعاً من اهتمام الشاعر بعلم الكلام وبجَدَلِه .

هوامشُ الفصل

---

1 ـ ابن النديم : الفهرست ، نشرة جامعة طهران 1391 هـ / 1971 م / 217 .

2 ـ ابن حجر العسقلاني : لسان الميزان ، ط. حيدر آباد 1329هـ : 3 / 334 .

3 ـ ابن خلّكان : وفيات الأعيان ، ط. بيروت 1972 : 3 / 92 .

4 ــ الفهرست / 217 ولسان الميزان : 3 / 334 وغيرهما .

5 ــ وفيات الأعيان : 3 / 92 .

6 ــ أنوار الربيع :4 / 18 .

7 ــ أُسامة بن مُنقذ : البديع في نقد الشعر ، ط. القاهرة 1380هـ / 1960 م /136.

---

2 ـ عصـــرُه

(1)

بالنظر إلى الأماكن التي اضطرب فيها الناشئ أيّامَ عُمُره ، فإنّ من المُمكن ، بل من الضروري ، قسمةُ أطوار سيرته إلى ثلاثة :

ــ الأوّل : طورُ المنبِتِ والنشأة . وسنقفُ على القليل الذي نعرفه عنه في هذا الطّور في القسم التالي من البحث .

ــ الثاني: طورُ بغداد التي عاش فيها بعد أن باينَ بلدَه . وهو أطولُها مُدّةً ، وأحفلُها بالعمل والنشاط والانتاج . ولذلك فإنّهُ أحراها منّا بالاعتناء والذّكر تحت عنوان " عصره " ، لأنّها الطّرَفُ الآخَرُ للتفاعُل مع الانسان الذي كانه . مثلما يتفاعلُ أيُّ امرئٍ هانَ أم بانَ مع مُواصفاتِ عصره .

ــ الثالث : طورُ مصر التي سنعرفُ أنّه ، بعد أن هجر بغداد ، قضى فيها أيامَه الأخيرة وفيها مات . هـذا الطورُ نراهُ قَطْعاً حادّاً في حياته . وهو ككلِّ قطْعٍ في حياة جماعةٍ أو شخصٍ ، يقصمُ سياقَ ومَسَارَ السّيرةِ، بحيث تستدعي من بعده عِمارةً جديدةً، يندُرُ أن تتوفّرَ مُعطياتُها .

(2)

ومن المعلوم أنّ بغدادَ التي دخلها الناشئ مُحتقباً شاعريّتَهُ ، كانت قد تعرّضتْ لقمعٍ فكريٍّ ــ سياسيٍّ فظٍّ ، ولِيَهُ الخليفةُ العباسيُّ العاشرُ جعفرُ بن المُعتصم الشهيرُ بلقبه المُتوكّل على الله (232 ـ 247 هـ / 846 ــ 861 م) ، الذي قلبَ ظهرَ المِجَنّ للمُعتزلة ، فعزلَ رجالَها عمّا كان لهم من مناصبَ في أجهزة الدولة ، ومنها ــ طبعاً ــ القضاء ، وصادر أموالَهم ، وغيّبهم في السُّجون . بعد أن كانوا عُمدةَ إدارتِهـا ،

وكانت أفكارُهُم المذهبَ الرّسميَّ لها ، في عهود أسلافه المأمون والمُعتصم والواثق (198 ـ 232 هـ / 813 ـ 846 م) .

نقول : " كانت قد تعرّضت . . . . الخ ." بصيغة الماضي ، مع انّنا لا نعرفُ تاريخَ دخوله بغداد ، لأنّ الناشئ عاش بعد حملة المُتوكّل ستّاً وخمسين سنةً عَدّاً، كما سنعرف. فالقولُ أنّه شهدَ الواقعة يقتضي أن يكون قد عاش عمراً طويلاً ، وذلك ما لم يُذكَرْ له . ثم أنّنا لا نقعُ على ذكرٍ أو إشارةٍ لها في شعره ، ممّا يشهدُ ضمناً أنّها كانت قد غدتْ خارجَ الذّاكرة الحيّة .

على أنّه ينبغي أن لا نُبالغَ في تأثير ذلك القمْعِ على الحالةِ الفكريّةِ إجمالاً ومظاهرِها في بغداد . فالمُتوكّلُ إنّما رمى من وراءِ عملهِ إلى الخلاص من نهجهم السياسي الذي يُقيّدُ الحاكمَ ويجعله عُرضةً للمُساءَلة وأكثر . وليس في وُسعه أن يحجُرَ على العقول ، وأن يُخرسَ الألسنة على الفور بقرارٍ سياسيٍّ ، حتى وإنْ يكُنْ مدعوماً بالسّطوة والترهيب والقمع . ومن المعلوم أنّه بدأ حملتَه على المُعتزلة في السنة 237 هـ / 851 م ، ومع ذلك فإنّهم ظلّوا بعد ذلك حاضرين في الساحة الفكريّة ببغداد. ومن هنا فإنّنا نرى شعرَ الناشئ حافلاً بضُروبِ الفخرِ بالاعتزالِ والإشادةِ برجالِه ، ولا يتردّدُ في النّيل من خصومَه . كما أنّه صنّفَ في توجيه مذهبه وتهزيل غيره . ونظمَ قصيدةً مُطوّلةً في علم الكلام ، ذكر فيها أهلَ المِلَل والنِّحَل ، في أربعة آلاف بيت على رويٍّ واحدٍ وقافيةٍ واحدة ، لم تصِلَنا من أسفٍ لنبني عليها . ولكنّنا ما نشكُّ في أنّها لا تختلفُ عمّا نجِدُهُ في شعره وتصانيفه من هذا الباب . فضلاً عن أنّ مُجرّدَ التصنيف في هذا الموضوع يُخالفُ المذهبَ الذي سوّقَه المتوكّل وفريقه من أهل النّقل . وكلُّ

ذلك سنقِفُ عليه في مطاوي شعره وفيما سنذكره من تصانيفه .

(3)

على أنّ الكلامَ يختلفُ اختلافاً بيّناً حين يصِلُ إلى ما لابُدّ أن يصِلَ إليه ، أعني علاقةَ الرجل بمُحيطه الإنساني . ونخصُّ علاقَته بوصفه شاعراً بالنُّخبة الغنيّة والمُتقدّمة سياسيّاً في بغداد . فمن المعلوم أن أمثالَه من الشعراء يبنون معاشَهم على شبكةٍ من العلاقاتِ الطيّبةِ بهذا القبيل من الناس ، ابتغـاءَ الحصولِ على نوالهم ، في مُقابل ما ينظمونه فيهم من مدائح . بيدَ أنّنا لا نجِدُ فيما وصل إلينا من شعر الشاعر وأخباره ما يذكرُ أو يُشيرُ إلى صِلةٍ مّا له بواحدٍ من هؤلاء . ممّا يُجيزُ لنا القولَ بما يكفي من الثّقة أنّه لم يكُنْ يوماً على صِلةٍ بأيٍّ من رجال تلك النُّخبة وخصوصاً رجال الحُكم . والظاهرُ أنّ مُجاهرتَه بالاعتزال التي لم ينفكّ عنها يوماً ، في الحين الذي كانت هذه الفئة مغضوباً عليها من الدولة ، هو ما حالَ بينه وبين نعيم كرَمِ الكارمين .

فهذا موقفٌ من الشاعر، فيه شئٌ من التصريح الضمنيّ أو المكتوم بنقص المصداقيّة لديه عند رجال الحُكم وبيئتهم ، بحيثُ يستكبرُ عن مدحهم ، وفيه اعتزازٌ واستمساكٌ مُطلَقٌ بعقيدته . ومن الواضحِ جِدّاً أنّ هذه نقطةٌ إيجابيّةٌ بامتياز بحقّ الشاعر المُلتزم ، الذي أخلص لعقيدته ايَّ إخلاص . ولم يُبالِ أبداً بالخسارة التي تنزلُ به في هذا السبيل . ولم يبذِلْ من ذات نفسِه ومن شعرِه ، في سبيل الحصول على عوائده ، كيفما كان ومن أينما تأتّى له . ومن المُفيد في سبيل تعزيز هذه الصورة ، أن يُقارنَ القارئُ الحصيفُ بين هذا وبين سيرة الشاعريَن الكبيريَن المُعاصريَن له : ابن الرومي والبحتري . إذ ذاك سيبدو الناشئ بحِليته الكاملة ، شاعراً كـرّم نفسَه

وشعرَه فلم يبذلهما لمَن يستحقُ ولمَن لا يستحقّ من ذوي الشا، والثروة على حَدٍّ سواء .

على أنّ الأمرَ لم يكُنْ كلّه خسارةً في رصيد الشاعر ، ولم يكُن وحِرماناً من التمتّع بعوائد ما منحه خالقُه من مواهب . فالظاهرُ أنّ هذا الالتزام الدقيق منه ، بجانبيَه الإيجابيّ والسلبيّ ، الإيجابيُّ في حقّ عقيدته ، والسّلبيُّ تجاه النُّخبة حاكمَةً وغير حاكمة ، قد جعل منه بطلاً ومثالاً لدى مذهبييه على الأقلّ في بغداد ، بحيث أنّهم كانوا يتلقّفون شعره ويتدارسونه مثلما يتدارسُ المؤمنُ ما يعتقدُ أنّه نصٌّ مُقدّس . ونحن طبعاً لم ولن نجِدَ نصاً صريحاً مُباشِراً على ذلك ، وإنّما استفدناه من قصيدةٍ هجا فيها ابنُ الروميّ الناشئَ لأن هذا وصفه بحقّ بأنّه مُوسوس . ولكنّ الطريفَ أنّه في هجائه كشف عمّا كان مستوراً خبيئاً في ذات نفسه تجاه ضحيّته ، من الحسد الــذي كان يسكنُه مكتوماً ، ممّا للناشئ من مكانةٍ عاليةٍ عند الناس أو فريقٍ منهم ، بحيث أنّهم كانوا يتدارسون شعرَه ، فصرّحَ به حيث قال من قصيدة :

كيـف لا يشتدُّ وســـــواســي وأشــعارُك تُدرَس

بعد قوله :

تِـهْ على الدهر وقُل ما شئتَ واظلِـم وتغطـرس
لم يُقــدّس منـك شــيُ ولك الجِدُّ المُقـدّس (1)

فتأمّل في معاني هـذه الأبيات ، وفيما تدلُّ عليه من مكانةٍ عاليةٍ كانت للمهجُوّ . واعجبْ معي لِما فيها من مديحٍ ضمنيٍّ ، لا أظنُّ أنّ الناشئ كان يطمعُ بمثله من قائلِها . وإن أتى تحت عنوان هجاء.

فهـذه نُبـذةٌ على العصر الـذي عاش فيه الشـاعر، تكفـي ليتصوّرَ

القارئُ تصوُّرا ما ، ماضطربَ فيه من مواصفات عصره وزمانه أثناءَ إقامته الطويلة في بغداد .

---

(١) ديوان ابن الرومي نشرة د. حسين نصّار : 3 / 1197 .

3 ـ سـيرتـــه

(1)

من الثابت بإجماع المصادر التي عنيتْ بالأمر أنّ الناشئَ وُلِدَ ونشأَ في الأنبار[1] ، البلدة التي سبق وقلنا ما عندنا عليها . ولكنّنا لا نجِدُ أدنى ذكرٍ لتاريخ مولدِه فيها . على أنّ ذلك لايُفاجئُنا ، فمَن ذا الذي يهتمُّ بتسجيل تاريخ ولادة طفلٍ ، في أُسرةٍ لا شأنَ لها ، تعيشُ في بُليدةٍ حقيرةٍ تستقرُّ على حافّة الصحراء . بل نقولُ ربما لم يكُن الناشئ نفسه يعرفُ تاريخَ مولدِه . وبل أنّنا لا نجِدُ فيما وصلنا من شعره أدنى ذكرٍ لوطنه الأوّل ، شأن كثيرٍ من الشعراء ، بل شأن طبيعة البشر عامّةً في الحنين إلى مآربِ الفتوّة والشبابِ ومواطنِهما . وذلك ما يمكنُ أن نفهم منه أنّ علاقتَه بالأنبار ، وبكلّ ما يتصلُ بها من شؤونه ، كانت علاقةً ضعيفةً واهيةً . وإنّني إخالُ أنّ الإمارةَ الوحيدة على ذاكرة أيّام الفتوّة لديه ، تتمثّل في طرديّاته (يعني الأشعارَ التي يصِفُ فيها الصيدَ والطرائد) التي أبدع فيها في وصف الصيد وطرائده . وهي الهوايةُ التي شُهر بها أهلُ بلده ، الذين تُحيطُ ببلدتهم الصحراءُ ، بما فيها من أنواع الطيور والضّواري . وسنقِفُ على هذا الجانب من أدبه في القسم التالي .

(2)

مهما يكُن فإنّ الناشئ خرجَ من بلده غيرَ آسِفٍ فيما يبدو ، واتخذَ طريقَه إلى بغداد . والظاهرُ أنّ خُروجَه منها كان بنيّة الهجرة الدّائمة . والشاهدُ على ذلك ما قُلناه قبل قليل أنّ خُروجَه الجسدي كان خُروجاً بالذّاكرة أيضاً . في حين أنّه سيذكرُ خُروجَه من بغداد في شعره ذكْرَ من فارقَ فيها جزءً من نفسه .

لكنّ المصادرَ التي اهتمّتْ بذكر تحوّله إلى العاصمة لم تقُل لنا متى بالتحديد كان ذلك [2] . على أنّ الباحثَ لن يُعدَمَ وسيلةً للاقتراب من حلٍّ لهذه المُشكلة فيما بين أيدينا من معلومات ونصوص ذات علاقةٍ بسيرة الشاعر.

فمن ذلك الرواية التي وقفنا عندها فيما فات ، وتُفسّرُ إطلاقَ لقبَ الناشــئ عليه . وهي تدلُّ ضمناً على أنّه دخل بغداد في مرحلةٍ مُبكّرةٍ جداً من العُمُر . فلكيّ تصحَّ صفةُ الناشئ عليه ، يجبُ أن يكونَ ما بين العاشرة والخامسة عشرة تقريبــاً من

العُمُر. ولكن لكي يكون على اطّلاعٍ على الآراء الكلاميّة ، بحيث يتكلّمُ على مذهب المُعتزلة فيُجيدُ الكلام ، كمـــا قالت الرّواية ، يجب أن يكونَ قد اجتاز كافة المراحل الدّراسيّة المُهيِّئة ، وُصُولاً إلى علم الكلام وشُجونه . وذلك أمرٌ يبعُدُ جدّاً أن يتمَّ لمَن لا يزالُ يصحُّ أن يُلقّبَ بـ (الناشئ) . لذلك ارتبنا فيما فات بصحّة هذه الرواية ، وذهبنا إلى أنّـها مصنوعة . وها نحن بهذه المُراجعة النقديّة لها نُؤكّدُ ذلك .

إذن فهذه الرواية ليست ذات فائدة لنا فيما نُعالجه بهذه المرحلة من البحث .

ثم أنّ فيما وصلنا من شعر الشاعر ما يزيدُ ما ذهبنا إليه هنا قُوّةً . نراهُ كامناً في طرديّاته ، بما احتوته من صُوَرٍ حيّةٍ جميلةٍ ، وبما انطوتْ عليه من معلوماتٍ جمّةٍ عن الطرائد بمختلف أنواعِها وأصنافِها . وبذلك تدلُّ ، بما لا يقبلُ الرّيبَ ، على أنّها صدرتْ عن خِبرةٍ عمليّةٍ عالية . وتغرفُ من ذاكرةٍ شخصيّةٍ خصبةٍ حافلةٍ بالمعلومات والمشاهد والصُّوَر . إذن فهي تدلُّ بالتّضمُّن على أنّه قضى زمـنَ الفُتـــوّة وأوائلَ الشباب على الأقلّ حيث وُلِـدَ

ونشأ ودرج ، أي في الأنبار . وإذن فهي تدُلُّ بالإلتزام على أنّه دخل بغداد وقد اكتملَ له الشبابُ أو قاربَ الاكتمال . وفيها حصّلَ وحسَمَ أمرَ انتمائه الفكري إلى مذهب الاعتزال .

(3)

مهما يكُنْ فقد دخلَ ابنُ البلدة الصحراويّة بغداد ، وليس في جُعبته غير موهبته الشعريّة الفجّة . ولعلّه لولاها لَما خطرتْ له فكرةُ الانسلاخ عن عالَمه البسيط ، والدّخولِ في مُعتَرَك المدينة الكُبرى المُضطرم . وليس هو أوّلُ شاعرٍ حملَهُ شِعرُهُ إلى عالَمٍ جديد حيثُ يجِدُ مَن ينفُقُ عليه .

بالنظر إلى ما سنعرفهُ من معارفِ الناشئ المُتنوّعة ، بين كلامٍ ونحوٍ وعَروضٍ ومنطق (وكلُّها ممّا ضرب فيه بسهم) ، فهو لا بُدّ أنّه انصرفَ في وطنه الجديد لمُدّةٍ إلى التحصيل والدّراسَة . بيدَ أنّنا لا نجِدُ في كلِّ ما قيلَ على الرجلِ من ذكرٍ لأنّه قد تتلمذَ على أحدٍ ، أو لمَن درسَ عليه من أساتذةٍ مُفترَضين . إلا أن نقولَ أنّه حصّلَ على نفسه وبسعيه . وليس هـذا بالأمر البِدْع بالنسبة لشخصٍ من مثله في عبقريّته وميله إلى الاستقلال والاجتهاد بالرأي كما سنعرف بعد قليل .

من المُؤكّد أنّ المسألة المعرفيّةَ الأُولى التي شغلَتْ بالَهُ وأشغلتهُ منذ الآن إلى كلّ ما بقي من عُمره هي الفكرُ الاعتزالي ، دعْماً له ، ودفاعاً عن آرائه ، وهجوماً على خصومه من مُرجِئةٍ ومُشبّهةٍ وظاهريّة . وقد سخّر قسماً كبيراً من شِعره ونثره لهذه الأغراض . وسنهتمُّ في فصل "مُنتخَبَات من شِعره" بإيراد نماذجَ من كلّ ذلك . كما أنّنا سنذكرُ ما صنّفه على ذلك أو بعضِه من نثر فيما سنأتي على ذكره قريباً من مُصنّفاتِه .

(4)

ولكن انشغالَه بكلّ ذلك لم يمتصّ كلَّ الطّاقةِ التي لديه . فهو أحكمَ أيضاً علمَ النحو ونظرَ فيه ، ولكن ليس على النهج الذي ينظرُ فيه أهلُ هذا العلم ، بحيثُ قيل :" أوهى من حُجّة نحويّ" ، بل نظرَ كلاميّ يُحكّمُ عقلَهُ ومنطقَهُ الخاصّ . ومن هذا الطريق انتهى إلى "نقْض أُصولِه" [3] . كما صنّف في نقْض كتاب أرسطو في علم المنطق ، بما أعجزَ المُتعصّبين له عن أن يردّوا عليه بالمُستوى اللائق نفسِه[4] . وراجعَ علمَ العَروض كما وضع قواعدَه مؤسّسهُ الخليل بن أحمد ، فأورد عليه ، ومثّلَ له بأمثلةٍ غير ما ما مثّله الخليل [5] . كما صنّف مُصنّفاتٍ كثيرة ، ضاعَ أكثرُها من أسف ، وصلنا منها :

1ـ **مسائلُ الإمامَة** . وهو الفصلُ الأوّلُ من كتابٍ له في علم الكلام ، عني فيه ببيان ما اختلفَ فيه أهلُ الصلاة . نشره المُستعربُ الألماني فان إس فيما نشره معهد الدراسات الشرقيّة في بيروت سنة 1971 ، مع ترجمةٍ له إلى الألمانيّة .

2 ــ **الكتاب الأوسط في المقالات** . في علم الكلام أيضاً . وصلنا منه ما اقتطفهُ منه ابنُ العسّال النصراني . نشره المُستعربُ نفسه فيما نشره المعهد نفسه .

3 ــ **تفضيلُ السُّودان على البيضان** . وصلتنا منه نسخةٌ خطّيّة [6] .

4 ــ **مُفاخَرةٌ بين الذهب والزُّجاج** . وصلتنا منه نسخةٌ خطّيّة أيضاً [6] .

أمّا ما ذُكر له ولكنّه مفقودٌ حتى الآن فهو :

1 ــ **ديوانُ شعره** . ذكره ابنُ النديم في كتابه (الفهرست) ، وأنّه في خمسين ورقة [7] . والذي يغلبُ على الظنّ أنّ ما فيه جزءٌ من شعره وليس

كلّه . لِما تقولُهُ المصادرُ من كثرة أشعاره.

2 ــ ردٌّ على داود بن عليّ إمامُ المذهب الظّاهري . لم يُذكَر ذكراً مُستقلاً ، وإنّما ورد ذكــره ضمناً فــي اســم كتابٍ لمحمد بن داود الإصفهاني اســمه (الانتصار على محمد بن جرير[الطبري] **وعبد الله بن شرشير** وعيسى بن إبراهيم الضّرير) [7] .

3 ــ تفضيلُ / نقدُ الشّعر . وهو كتابٌ في النقد الأدبي ، بل هو أوّلُ كتابٍ في هذا الباب ، إذن فهو من أعمال الناشئ الرّياديّة . وقد أورد الباحثُ ناجي في مقالته ماعثر عليه في المصادر من نُصوصٍ مُقتَبَسةٍ [8] .

هذا ، بالإضافةِ إلى ما أشرنا إليه أعلاه من نقْضِهِ على أهل المنطق والنحو والعروض ، ما يُفهَمُ منه أنّها موضوعاتٌ لكُتُب . يبدو أنّها هي التي أشار إليها المسعودي في قوله : "**وله مُصنّفاتٌ واسعةٌ في أنواعٍ من العُلوم**" [9] .

هكذا كان الناشئُ ليس شاعراً كبيراً فقط ، بل ، بالإضافة إلى ذلك ، عبقريّةً مُتنوّعةً أصيلةً . عملتْ على شقِّ طريقِها الخاص في المُعتَرَك الفكري الحافل لبغداد في ذلك الأوان .

(5)

مَلمَحٌ آخَرُ من باب سيرة الناشئ في بغداد ، لا غنى لنا من الوُقوف عليه ، وإنْ يكُن يُبعدُنا عمّا خُضنا فيه حتى الآن .

فبغداد لم تكُن صِرْفَ مُضطّرَبٍ فكريّ ــ أدبيّ ، يخوضُ أهلُهُ غُمارَه ويضطربون فيه اضطراباً لا يخلو من إرهاقٍ ونَصَب. عبّر عنه الشاعرُ تعبيراً ظريفاً حيث سمّاه " علم التّشاجُر " [10] . بل كانت إلى ذلك عالَمَ لذّات ، فيه نساءٌ ، وفيه خمرٌ ، وفيه مجالسُ أُنسٍ ولهوٍ وقيان. انغمسَ فيها الشاعرُ وكرعَ منها حتى الثُّمالَة . وسجّله في شِعره .

إنّ فائدةَ هذا الباب من شِعره في عِمارة سيرة صاحبه عِمارةً شاملةً دقيقةً ، أنّه أشبهُ بالسّيرة الذّاتيّة التي يصوغُها صاحبُها لنفسه . فتكونُ بذلك أقربَ إلى الصّدق ، مالم تسقط في تلميعِ صورةِ صاحبِها وتزويقِها . ونحن نراه في هذا يكشفُ لنا كم كان عاكفاً على مجالس اللهو والشّراب والغناء ، وكم كان غَزِلاً شَغوفاً بالجمال ، مُحبَّباً إلى النساء ، وكم كانت لـه من صولاتٍ وجولاتٍ في هذا الميدان . ولكم شهدتْ مُتنزّهاتُ بغداد ودُورُ بعض معارف أهلِها من جلساتٍ لـه مع أصحابه ، نهلَ فيها من اللذّات ما سجّله في بعض شعره . وما من ريبٍ في أنّ شاعريّتَه وخفّةَ ظلّه كانت جوازَ مُروره إلى هذا العالَم البهيج .

هكذا تبدو لنا شخصيّةُ الناشي وكأنّها ذاتُ وجهين . فبينا هو رجل عقيدةٍ عنيد ، لها من الصّفةِ الدينيّةِ ما لها ، إذا به طالبَ لذّةٍ من أينما وكيفما تأتّتْ له . ونقولُ لمَن يرى في هذا عجبا : لا تعجبْ ! فتلك هي حالُ بغداد وأهلِها في ذلك الأوان . لا ينقصُ من صُورتِها ، فيما يخصُّ صاحبنا ، إلا أنّنا لسنا نجِدُ في شعره أدنى إشارةٍ إلى الغلمان والغلمَنَة .

(6)

تلك الحياةُ العريضةُ ، بما فيها من "شِجارٍ" علميٍّ ، ، وبما فيها من تصنيفاتٍ مُبتكَرَةٍ ، وبما فيها من صنوف اللهوِ واللُذاذات ، انقطعتْ فجأةً بهجرة الشاعر إلى مصر ، هجرةً تبيّن أنّها نهائيّة لا عودةَ منها .

والحقيقةُ أنّ هذه البادرةِ منه هي اللغزُ المُستعصي على التفسير في سيرته . فلماذا يُديرُ رجلٌ له مثل ماكان للناشئ من مكانةٍ في مُجتمع بغداد العلمي ـ الأدبي من مكانةٍ ، وفي مثل حياته البهيجة ، وجهَهُ ويُولّى دون أن يلتفتَ إلى الوراء ؟

هذه البادرة ، تاريخُها وسببُها ، في المصادر التي بين أيدينا ، إمّا مسكوتٌ عنها ، وإمّا تقولُ ما لاتطمئنُّ إليه النفس ولا يثبتُ للنقد .

تاريخُ هجرته في المسكوت عنه ، مع انّ الرجلَ كان ملءَ الأعين في بغداد . ولكنّ جامعَ شعره ، الباحثُ العراقي هلال ناجي رحمه الله ، ينقلُ عن سليمان بن أحمد الّطبَراني ما يُفهمُ منه أنّه كان بمصر سنة 280 هـ / 893 م [11] حيث أنشده شيئاً من شِعره . ولكنّ ناجي سهى عن ذكر مصدره إلى هذه المعلومة . ومع ذلك فإنّنا نأخذُ بما رواه ، ثِقةً مِنّا بضَبْطه ونقلْه . وبناءً على ذلك نقولُ أنّ هجرتَه كانت قبل هذه السنة بمُدّةٍ غير معلومة ، وأنّه أمضى بمصر ثلاث أو أربع عشرة سنة على الأقلّ ، أي إلى حين وفاته فيها سنة 293هـ / 1002م .

أمّا سببُ هجرته فقد قيل ، نقلاً عن المرزباني (ت : 386 هـ / 996 م) فيما سقط من كتابه (مُعجم الشُعراء) ، أنّه إنما هاجر لأنّه "**سقطَ ببغداد**" ، بسبب خلافه على أهل المنطق والشُعراء والعَروضيين، فلجأ إلى مصر [12] . هذا كلامٌ تفرّدَ به قائلُه ، فضلاً عن أنّه لا يُقنعُ عارفاً ولا يثبتُ للنقد . ذلك لأنّ بغداد كانت آنذاك ميداناً طبيعيّاً للآراء المُتعايشَة ، المُختلفة فيما هو أكثرُ أهميّةً بكثير من هاتيك الموضوعات . وأنّ الناشئ كانت له فيها مكانة عالية في عالَمها المُتنوّع ممّا يمنحهُ درجةً من الحَصانَة . وخلافُه لأهل المنطق والعَروض ليس بذلك الأمر ذي البال ، لأنّ هذين الموضوعيَن ليسا ممّا يتصلُ بضمير الناس وما يعتقدونه ولا بأغراضِ أهلِ السُلطة ، لكي يكون خلافه فيه سبباً لغضبهم وضيقهم بمَن يُخالفهم . ثم أنّ أصحابَ ذينك العِلْميَن لم يكُن لهم من قُوّة التأثير المعنوي ما يُؤهّلهم لأن يجعلوا من بغداد مكاناً يضيقُ بمَن يُخالفهم بحيث لا يجِدُ بُدّاً من الهجرة .

والذي نراهُ ، نظراً لِما لدينا من خِبرةٍ بهذا النّمط من المصادر ، أنّ سُكوتَ المصادر المُعاصرة له هُنا يُشتَمُّ منه رائحةُ أمرٍ كبير. استنكفتْ بكافّتِها عن قوله لسببٍ ما لا نعرفه ، ربما كان يتصلُ بتمذهبه الاعتزالي ، في وقتٍ كان فيه الاعتزالُ مُحارَباً دون هوادةٍ من أهل الحديث والنّقل ذوي السّطوة . وهم الذين لم ينسوا ما نزلَ بهم من قبل بسبب خلافهم مع المُعتزلة في مسألة خلْق القرآن . وعليه نقولُ، بالعودة إلى وُجهة نظر المرزبّاني في سبب هجرته ، نعم ! ربما كان هناك بالفعل سببٌ فكريٌّ وراء هجرة الشاعر، ولكن ليس خلافَه مع أهل المنطق والشعراء، بل مع أهل الحديث

والنّقل . هذا التوليف يُخرجُنا من كل ما أخذناه على وُجهة نظر المرزباني ، مع المُحافظَة على روحِها . وهو مَطلَبٌ صحيحٌ في منطق البحث . والمرزباني الشيعي لم يكن ميالاً إلى أهل الحديث ، ولكنّه أيضاً لم يكُن مُعتزليّاً . ونحن نشُمُّ نكهةَ تحامُل في العبارة التي ذكر فيها سببَ هجرةِ الشاعر عندَه ، بأنه "**سقط ببغداد**" . فقد رأيناهُ يقولُ بحقّه "**وشعره كثير ، وهو مع كثرته قليلُ الفائدة**" [13] . وما ندري ماذا قصدَ بـ "**الفائدة**" . بل ومتى كان الشعرُ يُطلَبُ أو يُوزَنُ بمعيار فائدته . وعلى كل حال ، فإنّه يُخالِفُ كلَّ ما قاله النُقّادُ العارفون على شعرِه [14] .

على كلّ حال ، فإنّ من شبه المُؤكّد أنّ هجرة الناشئ لم تكُنْ عن حالة غبطةٍ ورضى . تدلُّ على ذلك أبياتٌ قالها " **حين سارَ من العراق إلى مصر** " مطلعُها :

يا ديارَ الأحباب هل من مُجيبٍ عنكِ يشفي غليلَ نائي المَزارِ

ختمها بقوله :

حرمتنا الأيّامُ احسنَ ما كُنّـ ـاعلى حين غفلةٍ واغترارِ

فافترقنا من بعد طُولِ اجتماعٍ ونـأينـا بعد اقـتراب الـديـارِ [15]

(7)

لسنا نعرفُ ما يُذكَرُ عن حياته أثناءَ المدّة التي أمضاها في مصر. ولكن كلُّ شيءٍ يدلُّ على أنّها كانت حياةً خامدةً لا روحَ فيها ، بالقياس إلى الحياة العريضة المُتنوّعة ، الحافلة بكلّ ما يتمنّاهُ المُتمنّي في بغداد . خُصوصاً وأنّ من المُؤكّد أنّه في مصر كان قد غادرَ وراءَهُ الشبابَ وأيّامَه بسنين طويلة . حتى أنّنا لا نجِـدُ أيَّ ذكـرٍ لشعره في وطنه الجديد وإن ضِمناً ، فكأنّ قريحتَه الفيّاضة قـد جفّتْ وانقطـعَ مَدَدُها . اللّهمّ إلا ذِكرَ قصيدةٍ هجا فيها الفقيهَ الشاعرَ منصور بن إسماعيل التميمي (ت : 306 هـ / 918 م) هي ممّا ضاعَ من شعره فيما يبدو ، ردّ عليها هذا ردّاً هادئاً نبيلاً قال فيه :

إنّ ذكْرَ السّياق أصلحك اللـ ـه وذكْرَ المَبيت في اللّحد وحدي

حَمَيـاني عـن الحـديث بما لو ذاعَ لم تشـتغِل بمَدحي وذمّـــي

فاهجِني باطلاً فما لكَ عنـــدي أبداً غيرَ ما لغيركَ عندي [16]

وإنّنا وإن كُنّا لا نعرفُ ما كان السّببُ وراءَ زجِّ الناشي نفسَه في هجو الرجل ، ومع ذلك فإنّنا نرى في الإقدام على هجو مثل هذا الفقيه ، الذي يدلُ ردُّهُ النبيل على ورعه وتقواه ، دليلاً على أنّ الناشئ في مصر هو غير ماكان عليه في بغداد . شتّان ما بين شعره البغدادي الذي يُصوّرُ لقارئه صورةَ رجلٍ يتحلّى بالنُّبل ، يكرهُ التّصنُّع ، مؤثراً للصدق ، شديدَ الاعتزاز بالعقل ، وبين ما يُوحيه هجوُه بالباطل لمثل هذا الفقيه النبيل . لكأنّه قد غدا في مصر مُتوحّداً ضيّقَ الصّدر حَرِجاً. وهذا يُصوّرُ لنا، بمقدار ما توحي لنا به هذه الواقعة ، حياتَه في السنوات الأخيرة في مصر ، إلى أن توفي فيها .

هوامـشُ الفصل

ا ــ أبو الفدا إسماعيل بن عمر القُرشي : البداية والنهاية، ط. بيروت 1966م :198/2 و فِرق وطبقات المُعتزلة ، ط. الاسكندريّة 1972 / 92 .

2 ـ انظر ، مثلاً ، وفيّات الأعيان : 3 / 91 و القفطي : إنباه الرّواة على أنباه النُحاة ، ط. القاهرة 1369 ــ 1392هـ/1950 ــ 1972م :128/2 وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب ، ط. بيروت المكتب التجاري لات : 2 / 214 .

3 ـ إنباه الرُّواة : 2 / 128 .

4 ـ ياقوت الحموي : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، ط. مصر 1923 : 3 / 119 .

5 ـ إنباه الرُّواة : 2 / 128 .

6 ـ بروكلمان ، الطبعة الثانية من الترجمة إلى العربيّة : 1 / 128 .

7 ـ مروج الذهب ، الفقرة 3404 .

8 ـ المورد العدد الأوّل من سنتها الحادية عشرة 1982 / 97 ــ 80 .

9 ــ مروج الذهب ، الفقرة 2773 .

10 ـ يقولُ من قصيدةٍ له مُفتَخراً بقومه المُعتزلة :

وأوتادُ أهل الله في كلِّ بلقَعٍ وموضع فُتياها و **عِلمِ التّشاجُرِ**

وسنُوردُ القصيدةَ في "مُنتخباتٌ من شعره " .

11 ــ المورد العدد الأوّل من السنة الحادية عشرة / 94 .

12 ــ الرواية في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، ط.بيروت ، دار الكتاب العربي لات : 10 / 93 ووفيات الأعيان : 2 / 91 و شذرات الذهب : 2 / 214 والوافي بالوفيات للصفدي : 15 / 129 وإنباه الرُّواة : 2 / 128 . كلّهم عن المرزباني .

13 ــ تاريخ بغداد : 10 / 92 .

14 ــ انظر، مثلاً: البداية والنهاية لابن كثير:11 /101 والبصائر والذخائر للتوحيدي :2 / 117 .

15 ــ مروج الذهب ، الفقرة 2774 .

16 ــ المرزباني : مُعجم الشُعراء ، ط. مصر 1960 / 280 .

---

4 ـ شـعره

جمع الناشئُ في شعره بين الجمال والمَتانَة ، إلى غنىً بالمعاني والتقنيّات المُبتَكَرة . شعرٌ مُتعدّد الأغراض ، صوّرَ فيه حياته وعالَمه الفكريّ ولهوَه ولذاذاته ، وعصرَه وما فيه من مُضطّرَبٍ فكريّ وغيرَ فكريّ ، تصويراً أميناً صادقاً .

فمنه أولاً شعره العقيديّ . وفيه أشاد بمذهبيه المُعتزلة ، وبسطَ أفكارَهم ، ونافحَ عنهم ، وافتخر بالانتماءِ إليهم ، وبيّن سُموّهم العقلي واعتزازهم بالعقل وسطوته ونَبْذَهُم ضروب الخرافات ، وجهادَهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكَر . وهو في هذا الباب من شعره كثيراً ما يستخدم المنهج الجدلي الكلامي . داعماً أقوالَه بالحُجّة والبرهان . وتدورُ فيه المعاني الكلاميّة . وهو أقلُّ ما وصلنا من شعره .

ومنه ثانياً طرديّاتُه . وهي أغلبُ ما وصلنا من شعره . والمُلاحَظُ أنّه محضَها تقريباً لوصف الحيوان الصّائِد . فهي ، إذن ، أقربُ إلى أن تكونَ وصفيّةً ، موضوعُها الجوارحُ والضّواري . وبذلك يكونُ قد زادَ في موضوعاتِ هذا النّمط من الشعر وجدّدَ فيه ، بالقياس إلى طرديّات امرئ القيس وأبي نُؤاس والمُعتَزّ . فوصفَ الجوارحَ والضّواري ، والصيدَ وأساليبَه . فجاءت طرديّاتُهُ مُستوفيةً للموصوف ، غنيّةً غنىً مُدهِشاً بالصُّوَر . وقد استعانَ في صُوَرِهِ بالتشبيه والاستعارة ، فأبدع فيها . كما حشدَ فيها الكثيرَ من الألفاظ الحِضاريّة . ومنها ما هو فارسيٌّ مُعرّبٌ . مع التزامٍ بالبُعدِ عن الكلمات الوحشيّة الغريبة إلى ما هو مأنوس .

ومنه ثالثاً غزليّاتُه وخمريّاتُه . وصفَ فيها جمالَ المرأة ، ومجالسَ اللّهو والشّراب .

كل هذا مع تجنُّبٍ للهجاء ، بحيث أنّه لم يصِلْ إلينا منه إلا قصائدُ ثلاث في هجاء ابن الرومي والبحتُري وداود بن علي الإصفهاني . وقد أشرنا فيما فات إلى قصيدته في هجاء الفقيه التميمي بمصر .

وسنُوردُ في الفصل التالي نماذجَ من كلٍّ من تلك الأنماط الثلاثة .

ـ مُنتَخَباتٌ من شِـعرِهِ

سألتُ المنجمَ عن رحلةٍ أُؤمّلُ براً عليها وبحرا
فقال المُنجّمُ لـي لا تَسِـرْ ! فإنّـك إن سِـرتَ لا قيتَ شرّا
فــإن كـان يعلـمُ أنّــي أسـير فقد جــاء بالنهــي لَغْــواً وهَجْـــرا
وإن كـان يجهــلُ سَـيري فكـيفَ تـُراني إذا سِرتُ لاقيتُ ضرّا (1)

ونحنُ أُناسٌ يعرف الناسُ فضلَنا بألسُننا زِينت صُدورُ المحافلِ
تُنيرُ وُجوه الحق عند جوابِنا إذا أظلمت يوماً وُجوهُ المسائلِ
صمتنا فلم نَتْرُك مقالاً لصامتٍ وقُلنا فلم نتْرُك مقالاً لقائلِ (2)

لم تُبْنَ في الدنيا سماءُ مكارمٍ إلا ونحن بدورُها ونُجومُها
وإذا سَمَت يوماً للمسِ أديمِها يوماً أبالسُها فنحنُ رجومُها
وإذا سمعتَ بنعمةٍ محرومةٍ من كلِّ حادثةٍ فنحن حريمُها
وإذا أُليحتْ للأنام بوراقٌ بنـدىً فمنّا تُستهلُّ غيومُها (3)

لو كان لله شبهٌ من خليقتِهِ كانت دلائلُه من خَلقه فيهِ
قد كان مُقتضياً من نَشو صانعه ما يقتضي النّشوُ من آثار ناشيهِ
لكنّه جُلّ عن أوهام واصفِهِ فالحِسُّ يُعدمُـهُ والعقلُ يُبديهِ (4)

في وصْف عُنّاق الأرض الذّكر .

مَن كان بالصّيدِ كسّاباً فقانِصُهُ ذو مِرّةٍ في سباعِ البيدِ مَعدودُ
لكنّه كفتاةِ الحيِّ بارزةً من خِدرِها مالئٌ للعين مَودُودُ
حلْوُ الشّمائل في أجفانه وطَفٌ صافي الأديم هضيم الكَشْحِ مَمْسودُ
فيه من البدر أشباهٌ مُوافِقَةٌ منها له سُفَعٌ في وجهه سُودُ
كوجهِ ذا وجهُ هذا في تدوُّرِه كأنّه منه في الأشكال مَقدودُ
له من الليثِ ناباه ومِخلبُهُ ومن غريرِ الظباءِ النّحرُ والجيدُ
فوصفهُ ببديعِ الحسْنِ مُشتهرٌ ونعتهُ بشديدِ البأس موجودُ
يُصغي بأُذنين يُبدي وَشْكُ سمعهما له الذي غيّبتْ في غولِها البيدُ
كآستيَن على غُصنٍ تعطّفتا من جانبيه وفي الرأسين تحديدُ
أغَرُّ يُصبيكَ أو يُلهيكَ من دَعَجٍ في مُقلتيه على الخدّين تخديدُ
كعنبرٍ عوّجَتْهُ في سوالفِها من بعدِما قوّمتهُ الغادةُ الرُّودُ
كأنّهُ لابِسٌ في جلدِهِ فَنَكاً في لينهِ لِبَنانِ الكفِّ تمهيدُ
مُلَمّعٌ أخصَفُ العينيَن مُنتدِبٌ كأنّه ببديع الشكل مَقصودُ
يحكيه في أربه زَمْرُ الغَطاطِ وفي لُطفِ المكائدِ منه السّبعُ والسّيدُ
إذا رأى الصّيدَ أخفى شخصَهُ أرَباً وقلبُه باقتناصِ الصّيدِ معمودُ
يكادُ من سَدكهِ بالأرضِ يخرُقُها كأنّه بحثيثِ الذُّعرِ مَزدودُ
ينسابُ كالأيم هبّالاً لبُغيته حتى إذا أمكنتهُ وهو مَكدودُ
سطَتْ عليه بها كفُّ المنونِ فما تبغي نجاءً وورِدُ الحِين مورودُ (5)

في وصْفِ طائرِ الصُّرَد وصيْده

لاشـيء أحسنُ ياقنّاص من صُرَدٍ تُلهيكَ في طَرَدٍ منها عن الطَّرَدِ
مثل السُّماني إذا ما ظَلّ صائِدُها لقتله طاوياً منه على ضَمَدِ
ذي مِنسَرٍ كنواة القَسبِ مُنعوجٍ عن مثلِ سُمّ المعا للطُعم مُزدَرِدِ
وهامةٍ فخمةٍ سَكّا مُدَبّجَةٍ تبدو كطخيانةٍ أوفَت على جـددِ
وأظفُرٍ كسُـلاةٍ مُعطّفَةٍ أشدُّ من لذع حَرّ النار في الجسدِ
عليه من بُردِهِ وَشـيٌ لـه كَفَفٌ مثل [.....] (6) التي شُدّتْ من الزَّرَدِ
مثل [......] (6) من ترجيع واشِمهِ أو كالسُّهادِ ثوى في جَفن ذي سهدِ
أو كالكتابِ الذي أنضاه كاتبُهُ وناطَ منعرجاً منه بمُطّردِ
إذا تقنّصَ عصفوراً فأوردهُ حوضَ المنيّةِ عن أيْدٍ وعن جَلَدِ
رايتَ مِثلين ذا بالقهر يغلبُ ذا مُحَكّماً فيح حُكمَ الليث في النّقَدِ
فيستدلُ بما أبداه من عَجَبٍ على مقادير صُنع الواحدِ الأحدِ (7)

وقال يصِفُ بازياً :

تجلّى ببازيٍّ عيونُ ذوي النُّهى إليه لأبصار المحاسنِ صُورُ
مكانَ سوادِ العينِ منه عقيقةٌ وتِبْرُ على خَطِّ السّوادِ يدورُ
تَمُورُ إذا ما رنّقَتْ في مآقِها كما مارَ من ماءِ الزُّجاجةِ نُورُ
فإنْ جحظتْ عنهُ استوى في مَدارِهِ وإنّ مالَ عن لَحْظٍ ففيه شُطورُ
لـه قرطَقٌ ضافي البنائقِ أنمَرٍ مُفَوّفُ ضاحي الشّقتيَن طريرُ
ومن تحته دِرْعٌ كأنّ رُقُومَـهُ تعاريجُ وشيٍ أرضُهُنّ حريرُ
كانَ اندماجَ الرّيش منه حبائك بعقب سحاباتٍ لهُنَ نشورُ

لـه هامَـة ملسـاءَ ، امّـا قدالـها فمُـوفٍ ، وامّا جيدها فقصيـرُ

مُلمْلمَـة فرعـاءَ لولا شكيرها لقلتَ مَداكٍ ضَمّنته صخورُ

مُعَصّبَـة بالقِد ذات نواشِـرٍ لها من خطاطيف الحديد ظفورُ

لـه مِنسَـرٌ يحكي من الظبي رَوْقـهَ إذا تـمّ للتجبير منه سَطورُ

لـه فرَق فوق القدال كانـها ولم يعْرُهَ وَخط القتير قتيـرُ

تخيّرهَ القناص من بين عَصبةٍ لهم عند فخـر القانصين فخـورُ

وهذبَهَ حتـى كانَ ضميرَه له دونَ ما تهوى النفوسَ ضميرُ

اتانا به من راسِ خلقاءَ حَزنـةٍ لها فوق اراد الشِعافِ ذرورُ

مؤللـةٍ جَلسٍ إذا الطرّف رامها اعادت إليه الجفنَ وهو حسيرُ

كادٍ تحاماها الانوق فما لها باحضانِها دون الرؤوس وُكورُ

سـباهَ صغيرا فاستمرّ بحزمـهٍ ورد إليه العزمَ وهو كبيرُ

يَقطـع اسحارَ البَغاثِ كانمـا له في نَحورِ البائسات تؤورُ

يُبوّأُ أيدي مالكيه كـأنّـهُ على آمريه في الجلال أميرُ (8)

وقال في زُرّق وهو ضرْبٌ من البازي:

ياقانصُ اغدُ علينــا بِزُرّقٍ مخبورِ

مُناهِضُ للبوازي مُغالِبِ للصقور

له جناحٌ وثيرٌ مُضاعَفُ التّنمير

مُظاهَرٌ ببُرودٍ مُبطّنٌ بحريرِ

وكفُّ سَبعٍ هَصورٍ مُحَجّن الأظفورِ

تقولُ فيه الخطا طيفُ لزرتَ من صُقورِ

ومِنسَرٍ ذو انعطافٍ كقرْنِ ظبيٍ غريرِ
في هامةٍ كَنَفَتهُ كالجندلِ المُستديرِ
وصدرِ بازٍ طريرٍ مُفوّفِ التّحبيرِ
كأنّهُ ثوبُ وشيٍ مُعرّجِ التّسييرِ
له ظنابيبُ هِقْلٍ وعينُ صقرٍ ذَعورِ
تخالُها حين يعتا لُ جذوةً من سعيرِ
له بديهةُ صوتٍ كنُبذةٍ من زَميرِ
إذا استمرّت لسَمع الـ ـغادي لشُربِ الخُمور
ألهتهُ عن كلِّ نايٍ يحكي لبَمٍ وزيرِ (9)

وقال في وصف الفخّ

رُبّ عاري الظّهر مُنعفرٍ لاحِقِ الجنبيَن من ضُمَرِه
كان في الأصلابِ مُنحنياً قبلَ مَدِّ الدهر من عُمُره
ثُمّ قد زادَ الحُنُوّ لهُ شدَّ حُقويه إلى قُتُرِه
أُحكمتْ منه مَرائِرُهُ حين كفّ الرّبطُ من مَدَرِه
كامنٍ في التُّربِ مُندَفِنٍ وضئيل الجسمِ مُحتَقَرِه
وأكُفُّ الحين مُشرَعَةٌ لمُلاقيهِ فمُختبِرِه
فيه أقواتٌ مُطمِّعَةٌ نفسَ رائيه ومُعتبِرِه
فإذا المَغرورُ حاوَلها نَبَذّتْ للحَيْنِ في ذكرِه
كيف تُنجيهِ مَعاصِمُهُ ويدُ الأقدارِ في أثره (10)

وقال يصِفُ صيدَ ابنِ عرس للثعلب :

لو انّ حيّاً واثِقاً من لعُمرِهِ   بمِقصَلٍ يحصُنُهُ من غدرِهِ
أو عائِذاً من نكباتِ دهرِهِ   أفلتَ من خَتْلِ الرّدى وخَتْرِهِ
أبو الحُصين كامِناً في جُحرِهِ   أعجب بهِ مُقتَحَماً في وِكرِه
مُقدّراً في ظنّهِ وفكرِهِ   وخيطُهُ مُعلّقٌ في نحرِهِ
أنّ الوِجارَ ضامنٌ لنَصرِهِ   حتى إذا أمرتُهم بجَرّهِ
وحفْظهِ من قانصٍ وسَتْرِهِ   جرّوه فاستخرجه من قعرِهِ
عن حيلةٍ يُعملُها بفكرِهِ   لله ما أعظمَه بهَصْرِهِ
إذا غدا بكلبهِ وصقرِهِ   وقَدِّهِ أو قطِّهِ من خصرِهِ
وليس يجري في بناتِ صدرِهِ   وذبْحهِ بنابِهِ وظفرِهِ
أنّ ابن عرسٍ قاصِمٌ لظهرِهِ   لكنّهُ بعَصْرِهِ وقَسْرِهِ
وهاجِمٌ عليه في مَقَرّهِ   أحسنَ في استحيائهِ وأسرِهِ   (11)

وقال يصِفُ سبُعاً :

آثارُ تحمي البِقاع وزأرُهُ   قبل اللقاء يُقطّعُ الأنفاسا
يُومي إلى البطلِ الكَميِّ بلحظه   فيحولُ خاطرُ فكره وسواسا
ترتاعُ أبصارُ الورى من خوفهِ   فترى نواظرَها الضُحى أغلاسا
تُخشى بوادرُ بأسِه حتى يُرى   بالخوفِ منه كلَّ شيءٍ باسا   (12)

من قصيدةٍ له يصِفُ فهدةً :

وضئيلةٍ تختالُ في حركاتِها   عندَ الطّرادِ وتنطوي كالمُختفي

وتجُسُّ بالرّفقِ التُرابَ إذا مشَتْ جَسَّ الطبيبِ يدَ العليلِ المُدنَفِ (13)

وقال في وصف الخيل :

أحوى عليه مَسائحٌ من لِيطَةٍ شُهْبٍ تسيلُ على نواشِرِ ساقِهِ

فكأنّه مُتلفّعٌ قُبطيّةً أثناؤها مَشدودةٌ بنطاقهِ

فسوادُهُ كالليلِ في إظلامِهِ وبياضُهُ كالصُبحِ في إشراقِهِ

صافي الأديم كريمةٌ أحسابُهُ أخلاقُهُ عَيْنٌ على أعراقِهِ (14)

عن محمد بن خلف بن المرزبان ، قال : اجتمع عندي أحمدُ بن أبي طاهر والناشئ ومحمد بن عروس . فدعوتُ لهم مُغنّيةً فجاءت ومعها رقيبةٌ لم يرَ الناسُ أحسنَ منها قطُّ . فلمّا شربوا أخذ الناشي رُقعةً فكتب فيها :

فديتُكِ لو أنّهم أنصفوا لردّوا النّواظِرَ عن ناظرَيكِ

ترُدّينَ أعيُننا عن سواكِ وهل نظَرُ العينِ إلا إليكِ

ألَمْ يقرأوا ، ويحهُم ، ما يرو نَ من وحي حُسنِكِ في وجنتيكِ

وقد جعلوكِ رقيباً علينا فمَن ذا يكونُ رقيباً عليكِ (15)

وقال الناشئ المُتكلّم :

مُتعاشقان مُكاتمان هواهما قد نام بينهما العِتابُ فطابا

يتناقلان اللّحظَ من جفنيهما فكانّما يتدارسان كتابا

وإذا هَدَتْ عينُ الرّقيبِ تخالستْ كفّاهُما خُلَسَ السّلامِ سِلابا

بأناملٍ منه يلوحُ مدادُها وأناملٍ منها كُسينَ خِضابا

فكأنَما يجني لها من كفّهِ عنباً وتجنيهِ له عِنّابا (16)

لها جِيدُ ظبى واهتزازُ يراعة وعينا مَهاةٍ واعتدالُ قضيبِ
ولفظةُ منّاعٍ ولحظةُ باذلٍ وعَتْبُ بريءٍ واغتيابُ مُريبِ
وإيماضُ ذي جِدٍّ وإعراضُ هازلٍ وسَورةُ ذي طيشٍ وعطفُ لبيبِ (17)

ولمّا رأينَ البينَ زُمّتْ ركابُهُ وأيقنَّ منّا بانقطاعِ المطالبِ
طلبنَ على الرّكْبِ المُجدّينَ عِلّـةً فعُجنَ علينا من صُدورِ الرّكائبِ
فلمّا تلاقينا كتبنَ بأعيُنٍ لنا كُتُباً أعجمنها بالحواجبِ
فلما قرأناهُنّ سِـرّاً طوينها حِذارَ الأعادي بازورارِ المناكب (18)

وقال الناشـئ :

عيناكِ شاهدتان أنّكِ من حَرِّ الهوى تجِدينَ ما أجِـدُ
بكِ ما بِنـا لكنْ على مَضضٍ تتجلّدين وما بِنـا جَلَدُ (19)

وقال الناشـئ الأكبر :

بكت للفراقِ وقد راعني بكاءُ الحبيبِ لبُعدِ الديار
كـأنّ الدموع على خدِّها بقيّةُ طَلٍّ على جُلّنار (20)

وقال أبو العباس عبد الله بن محمد الناشئ :

ولمّا توافقنـا غَداةَ وداعِنا أشرنْ إلينا بالعيون الفواتر
ولا شـئَ أقوى شاهداً عند ذي هوىً من اللّحْظِ يأتيه بما في الضمائرِ
كأنّ دموعاً قصّرَتْ عن مسيلِها حذارَ الأعادي من عيون الجآذرِ
بقايا رَشاشٍ فوق روضٍ مُنوّرٍ تحمّله عن صائباتِ البواكرِ
إذا غُفلوا رقرقنها في جفونِها وإن رُقبوا غيّضنها في المحاجرِ (21)

قال سُليمان بن أحمد الطّبراني : أنشدني الناشئ لنفسه في مصر سنة ثمانين [ومائتين] :

ليس شـئٌ أحَرُّ فى مُهجةِ العا شق من هذه العيون المِراض

والخُدودُ المُضرّجاتُ اللّواتي شِيبَ جريالُها بحُسنِ البياضِ
ورُنُـوّ الجفون والغمز بالحـا جبِ عند الصُّدودِ والإعراضِ
وطُروقُ الحبيب والليلُ داجٍ حين همّ السُّمّارُ بالإغماضِ (22)

وقال الناشئُ الأكبر :

هوايَ وعقلى فيك ضـدّان لـم يَـزَلْ عليك طوالَ الدهر بينهما خُلْفُ
إذا ما نهاني العقلُ فيك أعادني إليك هوىً تغفو العيونُ ولا يغفو
كأنّكَ منّي قوسُ رامٍ مُصمّمٍ تُقرّبُهُ كفٌّ وتُبعِدُهُ كفُّ (23)

إنّى ليهجُرُنى الصديقُ تجنُّباً فأُريـهِ أنّ لهجره أسبابا
وأخافُ إن عاتبتُهُ أغريتُهُ فأرى لـه تركَ العتاب جوابا
وإذا دُهيتُ بجاهلٍ مُتجاهِلٍ يدَعُ الأُمورَ من المحالِ صوابا
أوليتُهُ منّي السكوتَ وربّما كان السكوتُ على الجوابِ جوابا (24)

قال الحكيم : "حفظُ السّرّ تناسيه" . فأخذه أبو العباس عبد الله بن محمد الناشئ فقال :

وانّى لأنسى السِّرَّ كى لا أُذيعهُ فيامَن رأى شيئاً يُصانُ بأنْ يُنسى
مخافةَ أن يجري ببالىَ ذكْرُهُ فينبـذُهُ قلبي إلى مِقولي خلسا
فيوشَكُ مَنْ لم ينسَ سرّاً وجال في خوطره أنْ لا يُطيقَ له حبْسا (25)

وقال :

ولسـتُ مُعاتِباً خِـلاًّ لأنّـى رأيتُ العَتْبَ يُغري بالعُقوق
ولـو أنّـي أُوقِّفُ لـي صديقاً على ذنـبٍ بقيتُ بِلا صديقِ (26)

وقال :

إذا المرءُ أحمى نفسَـهُ كلَّ شـهوةٍ لِصِحّـةِ أيّـامٍ تبيدُ وتنفُدُ
فما بالُـهُ لا يحتمـي عن حرامِها لصِحّـةِ ما يبقى له ويُخلّدُ (27)

وقال :

إنّمـا الشعرُ ما تحصّلَ من قبـــــــــ لِ ظُهور الأقوالِ فى الأذكار
فـأتى لفظُـهُ يُقابِلُ معــــــ نـاهُ بحُسْنِ الإيراد والإصدارِ
وبطبعٍ مؤيّسٍ قريبٍ إلى الفهـــــــ مِ بعيدِ الأغوار ضاحي القَرار (28)

وقال أبو العباس الناشئ يصِفُ شعره :

يتحيّرُ الشعراءُ إن سمعوا بـهِ في حُسْنِ صنعته وفي تأليفهِ
فكأنّهُ في قُربِهِ من فهمهم ونُكولِهم في العَجزِ عن ترصيفهِ
شجرٌ بـدا للعين حُسْنُ نباتِهِ ونأى عن الأيدي جنى مقطوفِهِ
فإذا قرنتَ ابيَّـهُ بمُطيعِهِ وقرنته بغريبه وطريفهِ
ألفيتَ معناهُ يُطابقُ لفظَهُ والنّظمُ منهُ جليُّهُ بلطيفه
فأتاه مُتّسِقاً على إحسانِهِ قد نيطَ منه رزينُهُ بخفيفهِ
هذّبتُهُ فجعلتُهُ لك باقياً ومنعتُ صرفَ الدهر عن تصريفِهِ (29)

تكلّمَ قومٌ في الشّعر عند أبي الصّقر إسـماعيل بن بُلبُل [وزيرُ المعتمد العباسي] من حيثُ لا يعلمون . فكتبَ إليه أبو العباس الناشئ :

لعن الله صنعةَ الشّعر ماذا من صنوف الجُهّال فيها لقينا
يُؤثرون الغريبَ منه على ما كان سهْلاً للسامعين مُبينا
ويَرونَ المحالَ شيئاً صحيحاً وخسيسَ المقال شيئاً ثمينا
يجهلون الصوابَ منه ولا يـد رون للجهل أنّهم يجهلونا
فهمُ عندَ مَن سوانا يُـلامو نَ ، وفي الحقِّ عندنا يُعذَرونا

إنّمـا الشِّعر ما تناسبَ في النّظـ ... ـمِ ، وإن كان في الصفات فنونا
فأتى بعضُهُ يُشاكلُ بعضاً ... قد أقامَتْ لـهُ الصُدورُ المُتونـا
كلُّ معنىً أتاكَ منهُ على ما ... تتمنّى لو لم يكُنْ أنْ يكونا
فتناهى عن البيان إلى أن ... كاد حُسناً يَبِينُ للناظرينا
فكأنّ الألفاظَ فيه وُجُوهٌ ... والمعاني رُكّبنَ فيه عيونا
فائتاً في المرام حَسْبَ الأماني ... فيُجلّي بحُسنه المُنشدينا
فإذا ما مدحتَ بالشِّعرِ حُـرّاً ... رُمـتَ فيه مذاهبَ المُسهبينا
فجعلتَ النسيبَ سهلاً قريباً ... وجعلتَ المديحَ صِدقاً مُبينا
وتنكّبتَ ما تهجّنَ في السـ ... ـمعِ ، وإن كان لفظه موزونا
وإذا ما قرضتَهُ بهجـاءٍ ... عِفْتَ فيه مذاهبَ المُرفثينا
فجعلتَ التصريحَ منه دواءً ... وجعلتَ التعريض داءً دفينا
وإذا ما بكيتَ فيه على الغا ... دينَ يوماً للبينِ والظاعنينا
حُلْتَ دون الأسـى وذلّلتَ ما كا ... نَ من الدمع في العيون مَصونا
ثم إن كُنـتَ عاتِباً شُبتَ في الوعـــ ... ـدِ وعيداً وبالصعوبةِ لِينـا
فتركتَ الذي عتبتَ عليـهِ ... حذِراً آمِنـاً عزيـزاً مَهينـا
وأصحُّ القريض ما فات في النـــ ... ـظمِ ، وإن كان واضحاً مُستبينا
وإذا قيل أطمعَ الناسَ طُرّاً ... وإذا ريمَ أعجزَ المُعجزينا (30)

وقال في الشِّـعر :

الشِّـعرُ ما قوّمتَ زَيْـغَ صُدورهِ ... وشـددتَ بالتهذيب أسْرَ مُتونـهِ
ورأبتَ بالإطنابِ شَعْبَ صُدوعه ... وفتحتَ بالإيجازِ عُورَ عيونهِ
وجمعتَ بين قريبه وبعيده ... ووصلتَ بين مَجمّهِ ومَعينهِ
وعقدتَ منه لكلّ أمرٍ يقتضي ... شبهاً به فقرنتَهُ بقرينِهِ

فإذا بكيتَ بـه الديارَ وأهلَها	أجريتَ للمحزون ماءَ شُؤونهِ
ووكلتَه بهُمومِهِ وغُمُومِهِ	دهراً فلم يسْرِ الكرى بجفونِهِ
وإذا مدحتَ بهِ جواداً ماجِداً	وقضيتَه بالشكر حقَّ ديونـهِ
أصفيتَه بنفيسه ورصينه	ومنحتَه بخطيره وثمينهِ
فيكونُ جَزْلاً في اتفاقِ صنوفهِ	ويكون سـهلاً في اتساق فنونـهِ
فإذا أردتَ كنايةً عن ريبةٍ	باينتَ بين ظُهوره وبطونهِ
فجعلتَ سامعَهُ يشـوبُ شكوكَهُ	ببيانـهِ وظُنونـه بيقينـهِ
وإذا عتبتَ على أخٍ في زلّـةٍ	أدمجتَ شِدّتَهُ له في لينـهِ
فتركتَهُ مستأنسـاً لدماثَةٍ	مُستيئسـاً لوعوثـهِ وحزونـهِ
وإذا نبـذتَ إلـى التـي عُلّقتَها	إن صارمتكَ بفاتنات شُؤونهِ
تيّمتَهـا بلطيفـةٍ ورقيقـةٍ	وشـغفتَها بخفيّـهِ وكمينــهِ
وإذا اعتـذرتَ إلى أخٍ من زلّــةٍ	واشكتَ بين مُحيلِهِ ومُبينِهِ
فيحورُ ذنبُك عند مَن يعتـدُّهُ	عتبــاً عليكَ مُطالباً بيمينِهِ
والقولُ يحسنُ منه في منثورِهِ	ما ليس يحسُنُ منه في موزونِهِ (31)

" . . . . **فممّا جوّد [الناشئ] فيه قوله حين سار من العراق إلى مصر**"

ياديـارَ الأحباب هل من مُجيبِ	عنكِ يشـفى غليلَ نائى المَزار
ما أجابَتْ ولكن الصّمتَ منها	فيه للسّائلين طولُ اعتبــارِ
إنْ تكُنْ أوحشَـتْ فبعدَ أنيسٍ	أو خَلَتْ منهمُ فبعد قـرارِ
قـد لهـونـا بها زماناً وحيناً	ووصلنا الأسـمارَ بالأسمارِ
واغتبقنا علـى صَبـوح ولهـو	وحنين النايات والأوتـار
بين وردٍ ونرجُـسٍ وخُـزامـى	وبَنَفْــسٍ وسوسنٍ وبهـارِ
وأقاحٍ وكل صنفٍ من النَّوْ	رِ الشـهيّ الجنيّ والجُلّنـارِ
فرمتنــا الأيامُ احسنَ مـا كُنّـ	ــا على حينِ غفلةٍ واغترارِ
فافترقنــا من بعدِ طُولِ اجتمــاعٍ	ونـأينـا بعد اقترابِ المَزارِ (32)

.

هوامـشُ الفصـل

1 ــ يوسف بن عبد الله القرطبي : بهجة المجالس ، ط. مصر ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، لات. : 2 / 116 .

2 ـ إبراهيم القيرواني : زهر الآداب وثمرُ الألباب ، ط. القاهرة 1372هـ/1952م :853 .

3 ـ البصائر والذّخائر : 2 / 671 .

4 ـ ابن طاهر المقدسي : البَدْء والتاريخ ، مُصوّرة عن نشرة كليمان هوار باريس 1899: 94/1.

5 ـ محمود بن الحسن (كشاجم) : المصايد والمطارد، ط. بغداد 225/1954 ـ 26 .

6 ـ الكلمة غير مقروؤة في المصدر التالي .

7 ـ المورد ، العددالثالث من المجلد11 / 57 .

8 ـ المصايد والمطارد / 68 ـ 69 .

9 ـ نفسه / 74 ـ 75 .

10 ـ المورد العدد الثالث من المجلد 11 / 65 .

11 ــ د. عبد الرحمان رأفت : شِعرُ الطّرد حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، ط. بيروت 1394هـ/1974م / 297 ـ 98 .

12 ـ المُختار من شعر بشّار. وهو اختيارُ الشاعرَين الخالديّيَن ، ط. القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، لات. / 10 .

13 ــ محمد بن أحمد العميدي : الإبانة عن سرقات المُتنبّي ، ط. مصر 1970 / 125 .

14 ـ زهر الآداب : 1 / 312 .

15 ـ ديوان المعاني : 2 / 228 ـ 29 .

16 ـ نفسه : 1 / 254ـ 55.

17 ـ البصائر والذخائر : 2 / 118 .

18 ـ زهر الآداب : 1 / 595 .

19 ـ المختار من شعر بشار / 243 .

20 ـ زهر الآداب : 1 / 530 .

21 ـ المختار من شعر بشار / 245 .

22 ـ تاريخ بغداد : 10 / 93 .

23 ـ عُبيد الله بن الكافي العُبيدي : شرحُ المضنون به على غير أهله ، طبعةٌ بالأُوفست مجهولة الأصل / 457 .

24 ـ زهر الآداب : 1 / 43 .

25 ـ المختار من شعر بشار / 155 .

26 ـ بهجةُ المجالس : 1 / 729 .

27ـ بهجة المجالس : 1 / 144 .

28 ـ محاضرات الأُدباء : 1 / 83 .

29 ـ زهر الآداب / 630 ـ31 .

30 ـ الحسن بن رشيق القيرواني : العُمْدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ط. القاهرة 1318 : 112/2 ـ 14 .

31 ـ زهر الآداب / 632 ـ 33 .

32 ـ مروج الذهب ، الفقرة 2774 .

عامر بن واثِلَة الكِنـانـي

(ت : 110 هـ / 728 م)

الشّـاعر

1 ـ الاسـمُ وإشكاليّـاتُه

ليس في اسم الشاعر ما لـه خُصوصيّةٌ نستنطِقُها عمّا قد يُضيءُ بعضَ جوانب سـيرتِه ، مثلما وجدنــا في أسـماء غيـره ممّن ترجمنا لهـم فيما فـات . ونسبته " الكِناني " في العنوان نسبةً إلى (كِنانة) القبيلة ، وهو اسمٌ لغير قبيلة ، قد يُضافُ إليها في بعض المصادر [1] إضافةً مُوضحة هي "القَرَشي" . إذن فهو من (كِنانة بن خزيمة) التي من بُطون (قُريش) . كما قد يُقال أو يُضافُ : " الليثي " [2] ، وهو نسبةً إلى " ليث بن بكـر بن عـبد مَناة بن كِنانــة بن خزيمة " . وأيضاً " النّجـدي " ، و " المكّي " ، وقد يُفهمُ من النسبة الأُولى أنّه وُلِدَ في نَجد . أمّا " المكي " فهي ناشئةٌ ممّا نعرفُه أنّه عاش سنوات عُمره الأخيرة ومات في مكّة .

هكذا نكونُ قد خرجنا من هذا المُركّب المُعقّد من النِّسَب ، الذي كان سِـمَةَ القرنيَن الإسلاميِيَن الأوّلَين ، بفائدةٍ واحدةٍ هي أنّ شـاعـرَنا قـد وُلِد ، وربما عاش بضع سنواتٍ من أوائلِ عُمُره ، في نجد . قبل أن يتحوّلَ ، أو بالأحرى تتحوّل بـه أُسرتُهُ إلى مكةَ ، حيث قضى سنوات الفُتوّة والشباب كما سنعرف .

---

2 ــ عصرُه

عاش أبو الطُّفيل في الفترةِ الانقلابيّة التي شهدت ظُهورَ الإسلام ، ولكنه بسبب صِغَرِ سِنّه لم يضرب فيه بسهم . وهو أيضاً للسبب نفسِه لم يروِ عن النبي إلا القليل . كما أنّه ، وللسبب نفسِه أيضاً ، لم يخُضْ فيما خاض فيه الصّحابة بعدَه من نِزاعٍ محمومٍ على السُّلطة .

والحقيقةُ أنّ شخصيّةَ أبي الطُّفيل فارساً وشاعراً ، كما نقرأُها في مُختلف المصادر ، هي ثمرةُ اتصالِهِ بالإمام علي (ع) . ذلك الاتصال الذي حصل في الكوفة ، بعد أن تحوّل إليها فيمَن تحوّلَ من أهل الحجاز وغيره من الصّحابة والتابعين ومَن سواهم . إذن ، فهو في هذا مثل الكثيرين من أصحاب الإمام ، الذين بَرُزوا بكفاءاتِهم في المُعتَرك الصّعب الذي خاضَه معهم ، في وجه كلِّ الذين عملوا على إعادة الأُمور إلى الوراء ، والتنازُل عن المكاسِب والخطوات التّقدُّميّة التي حقّقها الإسلام . وفي هذا اكتسب صفتَه سيّدُ كِنانةً وشاعرُها ، بعد أن لم يكُن من قبلُ شيئاً مذكورا . ممّا يُذكّرُنا برفيق دربِه مالك الأشتر رضوان الله عليه. وليس مثل هذا الظّرف النضاليّ الانقلابيّ محكّاً لمعادن الرجال ، يسقطُ فيه مَن يسقط ، ويعلو شأنُ مَن يعلو . ودائماً كانت الفتراتُ الانقلابيّة مناسبةً لتغيير أقدار الرجال ومقاديرهم .

تتصلُ تفصيلاتُ سيرة أبي الطُفيل وشعره اتصالاً ما بالمُضطَّرَبات التي خاضها المجتمع الإسلاميّ من بعد : يوم كربلا ، ثورة التوّابين ، حركة المُختار، أعمال محمد بن الحنفيّة المُضطربة سلوكاً وفكراً ، الثورة العراقيّة الشاملة على الحجّاج . وكان له من كلّ ذلك موقف عكسه في شعره أو في غياب شعره ، ممّا سنقفُ عليه في الفقرة المُخصّصة لما سننتخبه منه .

---

3 ـ سيرتُـه

(1)

وُلِد أبو الطُفيل عامَ أُحُد ، أي في السنة الثانية للهجرة . وعلى ذلك إجماعُ المصادر كافّة ، استناداً إلى قوله هو [3] . وما من ذكرٍ لمكان مولده ، ولكننا رجّحنا فيما فات أنّه وُلِد في نجد ، وذلك بالنظر إلى نسبته " النّجدي " ، لأننا لانجِدُ لها تفسيراً إلا في ذلك . وكان من قوله : " **رأيتُ رسولَ الله يومَ فتح مكّة** " [4] . ويُفهمُ من ذلك أنّ أُسرته كانت في مكّة قبل الفتح ودُخول الناس في دين الله أفواجا ، وقبل ما ترتّب على ذلك من حركةٍ سُكّانيّةٍ عارمة اتجهت صوبَ حاضرتَي الحجاز مكةَ والمدينة . وعنه أيضاً أنّه رأى النبيَّ صلوات الله عليه وآله في حِجّة الوداع يطوفُ بالبيت الحرام على ناقته ويستلمُ الرُّكنَ بمِحجَنَتِه [5] . وعلى هذا وذاك بنى مَن يصفونَهُ بـ (الصّحابي) .

من هنا ، أعني من صِغَر سنّه ، فإنّنا لا نشهدُ لأبي الطُفيل أيّ حضورٍ ، لا مُحدّثاً عن رسول الله صلوات الله عليه وآله ، ولا خائضاً فيما خاض فيه الناسُ من صراعٍ عنيفٍ على السُلطة بعد وفاة نبيّهم . بل إنّنا لا نجِدُ له ذكراً في ذلك الحَدَث الباهر الذي فرزَ الناس فرزاً يكاد يكون عامّاً ، أعني الثورةَ على عثمان . مع أنّه كان آنذاك في شَرْخ الشباب ، وفي الحجاز. ومع أنّ رأيَه في عثمان لم يكُن مُختلفاً عن رأي الثائرين عليه [6] .

(2)

والظاهرُ أن ابا الطُفيل كان من القلّة الحجازية القليلة التي خرجت مع الإمام علي عليه السلام عام 36 للهجرة / 656 للميلاد في أثر طلحةَ والزبير، وقاتلَ معه يومَ الجمل ، ثم يومَ صفين ، وبعده يوم النهروان .

في يوم صفيّن برُزَ أبو الطُفيل بوصفه " **سيّدَ كنانة وشاعرَها** " . فكان أثناءَ المعارك قائدَ قومه والمُخاطبَ للإمام بلسانِهم [7]. وفيه وفي أحداثِه نظمَ أوّلَ ما وصلنا من شعره [8].

(3)

لكنّنا رأيناه يغيبُ بسيفه وبشعره يوم كربلا . فلا نجِدُ له ذكراً بين المئات الذين كاتبوا الحسين عليه السلام يستدعونَه للقُدوم إلى الكوفة ، مع أنّه كان آنذاك من رؤساء الكوفة وممّن يُسمّون أشرافها . ثم لا نجِدُ له ذكراً في أحداث يوم كربلا وما يتصلُ بها ، بل إنّه لم يأتِ على ذكر شيءٍ من ذلك في شعره . مع أنّ الحَدَثَ الرهيب هزّ المشاعرَ وحرّك قرائح الشعراء بمئات القصائد كما لم يُسبَق . فكأنّه لم يكُن هناك .

ثم أنّنا لم نسمع له حِسّاً أثناءَ السنوات الأربع أو الخمس التي كانت فيها الكوفةُ تتحرّك تحت وطأة النّدم على ما فرّطت في حق سيّد الشهداء عليه السلام ، حيث دعتهُ ليقودَ حِراكَها السياسي ثم خذلتهُ . كان العملُ أثناءَ تلك السنوات يجري على قدمٍ وساق ، في اتجاه الانتقام من قاتليه ، وكان قادتُها ومادّتُها مَن يُعرفون باسم التوّابين . ولكنّها انتهت في بادية الشام ، في معركةٍ محسومةٍ سلفاً مع الجيش الأُموي القادم من دمشق ، فيها من الفروسيّة والاستماتة أكثر ممّا فيها من التخطيط القتالي الرّامي إلى النّصر على العدو.

(4)

الإشكاليّةُ الأُولى ، أعني غيابَه بسيفه وشعره يوم كربلا وما يتصلُ به ، هي أكبرُ بكثير من سيرة أبي الطُفيل . ذلك أنّنا رأينا عامّةَ كبار أصحاب علي عليه السلام يختفون منذ وُصول مبعوث الإمام الحسين مُسلمَ بن عقيل إلى الكوفة ، وفيهم مَن كان من قبلُ يُلحُّ على الإمام بالخروج ، وكان الإمامُ يُصبّرهم بانتظار الوقت

المُناسب . ولم يبدأوا بالظهور إلا بعد كربلا . أُولئك هم مادةُ حركة التوّابين ، ثم كان بعضهم من بعدُ مادة حركة المختار الثقفي. ولذلك، أي لأنها أكبرُ ممّا نُعالجه الآن ، فإنّنا لن نخوضَ الآن في هذه الإشكاليّة . ولكن فلنلاحظ أن أبا الطُفيل هو الوحيد من كبار أصحاب أمير المؤمنين ومن رؤساء الكوفة الذي غاب عن يوم كربلا وعن حركة التوّابين كلاهما . وربما كان في الفقرة التالية ما قد يُلقي بعض الضوء على علّة هذا الغياب المُزدوج .

ممّا لا ريب فيه أنّ أبا الطُفيل سار مع حركة المُختار في وجهيها : في مرجعيّتِها السياسيّة بشخص محمد بن الحنفيّة ، بوصفه " **مَهديّاً** " [9] ، ومع برنامجه السياسي المتلخّص بالثأر من قاتلي الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته [10] . ومع ذلك فإنّنا لا نجِدُ له كبيرَ ذكرٍ في الأحداث ذات الخطر التي ضجّ بها العراق في تلك السنوات . ولكن شعره صريحٌ بما لا لَبسَ ، صريحٌ بأنّه كان مع المُختار حتى اللحظات الأخيرة في قصر الإمارة بالكوفة قبل مقتله [11] . وصريحٌ بأنّه تقبّلَ مهدويّةَ ابنَ الحنفيّة المَزعومَة . ومن هذا الأخير قوله :

إخوانَنا شيعتَنا لا تعتدوا　　إنّي زعيمٌ لكمُ أن ترشدوا
وأن تنالوا شرفاً وتسعدوا　　ووازروا المَهديَّ كيما تهتدوا
محمدَ الخيرات يامحمدُ　　أنت الإمامُ السيّدُ المُسوّدُ [12]

وسيأتي في فصل " مُنتخبات من شعره " قصّة خروج جيش من الكوفة عليهم أبو الطُفيل حتى أتى سجن عارم في الحجاز ، حيث حبس ابنُ الزُبير ابنَ الحنفيّة ، فكسروا السجنَ وأخرجوه .

(5)

بعد ذلك تغيبُ أخبارُ أبي الطُفيل طوالَ ما بقي من الفترة الزُبيريّة ، ممّا يدُلُّ على أنّه استكان للدّعَة ، ليظهرَ ومعه ابنه طُفيل ضمن الحملة التي أعدّها الحجّاج

لغزو سجستان (في أفغانستان اليوم) . حيث ساهم في إطلاق الشّرارة الأولى لثورة العراق الكبرى على الحجّاج [13]، فجعلت من عسكر الغزو عسكرَ ثورةٍ عنيدةٍ ، أشعلت العراق كلّه مدة ثلاث سنوات . وفيها فقد أبو الطفيل ابنَه طُفيل . وقد سجّل حزنَه المُقيم عليه في قصيدةٍ بُكائيّةٍ رائعة ، يجِدُها القارئُ في ما انتخبناه من شعره أدناه . أثناء تلك السنوات خاض الثائرون سلسلةً من المعارك ، كان آخرُها معركةَ دير الجماجم سنة 83 هـ / 707م حيثُ هُزِمَت الثورة هزيمةً نهائيّة . بدأ بعدها الحجّاجُ أعماله الانتقاميّة التي نالت كلَّ مَن كان له سهمٌ في الثورة المؤودة . كان من أثرها أن أدخلت الحجّاج في التاريخ بوصفه الطاغيةَ الذي أغـرق العراق بالدماء . ولكن كان من أثرِها الإجتماعي الإيجابي ، غير المقصود طبعاً ، أن نشرت أشعريي الكوفة في اتجاهين : غرباً باتجاه الشام ، حيث نزلوا مدينة طبريّة في وادي الأُردنّ ، وبذلك تأسّس عاملٌ سُكّاني سـنراه بعد قرون في جبل عامل [13] . وشـرقاً باتجاه غرب وسط إيران ، حيث نزلوا أرضاً غير مسكونةٍ لوخامتها فمصّروها ، لتُصبح غير بعيد قُـمّ مدينة العلم ، ممّا لا تزال بركتُه وخيره حتى اليوم .

(6)

ومع ذلك ، مع دوره المفصليّ في إطلاق الثورة التي شغلت الحُكم الأُموي بضع سنين ، فإنّه نجا من العقوبة التي نزلت بمَن سواه . وما ذاك إلا بفضل ما كان له من صلةٍ ومَوَدَّة مع عبد الملك بن مروان . ممّا يدلُّ على أنّه لم يكن يهدر وقتَهُ في غير النافع طوال تلك المُدّة التي خفيَت علينا فيها أخبارُه منذ مقتل صاحبه المختار سنة 67 هـ / 687م . بل إنّه كان يبني لنفسه شبكة علاقات جديدة مع سيّد الفترة .

والحقيقةُ التي يكتشفُها القارئُ في سيرة أبي الطُفيل دون صعوبةٍ أنّه كان ذا شخصيّةٍ انبساطيّة قويّة . له رأيه فيما يختلف فيه الناس ، ويُدافع عنه بشجاعة ودون مُواربَة ، نعم ، ولكنّه لم يكُن يسمحُ لرأيـه بأن يكـون حاجـزاً بينه وبين مَن يختلـــف

معهم . فقد كان دائماً من أصحاب وأنصار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، ولكن لم يُسَجَّل عنه أنّه نالَ من أحدٍ من مُخالفيه من الصحابة [14] . كما كان على علاقةٍ طيّبةٍ بالجميع . ومن ذلك أنّه لبّى دعوةَ معاوية بعد أن استتبّ له الأمرُ للوُفود عليه ، حيث صارحهُ بأنّه مُقيمٌ على حبّه وتقديمه لإمامِه . وردّ ردّاً عاقلاً وقويّاً على الكلام الفاحش الذي نالهُ به بعضُ جلسائِه [15] . كما أنّه أجاب على لوم معاوية إياه بعدم نصره لعثمان يومَ الدار بجوابٍ قويّ ، لم يملك معاويةُ بعدَهُ إلا السكوت [16] . وقد أشـرنا قبل قليل إلى علاقتِه الطّيّبة بعبد الملك بن مـروان . ومع أنّ ابن قُتيبة ينبُـزُه بأنّه من الغُـلاة [17] ، فإنّ ابن العماد الحنبلي ، المعروف بتشَـدُّدِه ، دافع عنه بأنّه كان يُفضّل علياً دون أن يُكفِّرَ غيرَه من الخلفاء[18] .

ونختم هذه الفقرة بإيراد روايةٍ غريبة ينفردُ بروايتها ، بحسب ما رأينا ، اليعقوبي المؤرخ ، تقول أنّ أبا الطُفيل أتى عُمَرَ بن الخطّاب ، فقال له : " يا أمير المؤمنين ، لِـمَ منعتني عطائـي " ؟! . فقـال له : " بلغني أنك صقلتَ سيفك ، وشحذتَ سنانك ، ونصّلتَ سهامك ، وغلّفتَ قوسك تنتظرُ الإمامَ القائم حتى يخرج . فإذا خرج وفاك حقّك " . فقال له أبو الطُفيل : " إنّ الله سائلُك عن هذا " . فاستحيا عُمَر وأعطاه [20] . وهي روايةٌ غنيّةٌ بالمغازي لمَن يبحثُ عن التيارات الخفيّة التي كانت تعملُ تحت السطح في المجتمع الإسلامي في ذلك الأوان .

(7)

في نهاية المَطاف ، وبعد تلك الحياة الحافلة ، آبَ أبو الطُفيل إلى وطنِه الأوّل . حيث استقرّ به النّوى في مِلكٍ له في شعب ابن عامر [19] . إلى أن توفي عن سنٍّ عالية سنة 100 ، أو 107 أو 110 هـ / 718 أو 725 أو 728 م ، على اختلاف الروايات ، التي لانجِدُ مُرجّحاً بينها . ولكنّ المصادر تُجمعُ على أنّه كان آخرَ مَن رأى النبيَّ صلوات الله عليه وآله موتاً .

هكذا نخلُصُ من هذا السّرد على سيرة الشاعر إلى أنّه حجازيّ المولد ، حجازيّ المَدفَن، ولكن سيرتَه الحافلة كلَّها، أو على الأقلّ ما ذكره الذّاكرون منها، عراقيّة . وسنرى بعد قليل أنّ شعره كذلك .

---

4 ــ شـعرُه

رأينا فيما فات أنّ أوّلَ ما وصلنا من شعر أبي الطُفيل هو ذلك الذي قاله في مُعتَرَك صفين .

فهل كان ذلك الشعر أوّلَ شعره ؟

يعسُرُ الجواب لأنّنا لا نملُكُ تسجيلاً وافياً بكلِّ مانظم . وكلُّ ما وصلنا منه إنّما سُجِّل ليس بوصفه شعراً وفي سبيل الشعر ، وإنّما بوصفه خبراً من الأخبار ، يتصلُ بسيرة أبي الطُفيل بسببٍ أو بغيرِه . وذكرُ ما ذُكِرَ من شعره إنما أتى جزءاً من الخبر وفي سياقِه . على أنّ من العسير علينا أيضاً أن نتصوّرَ أنّه ، وهو الذي كان يومَ صفين في الخامسة والثلاثين من العُمُر ، قد تفجّرت شاعريّتَه فجأةً في الأجواء المُضطرمة للمعركة الدّامية . وعلى أنّنا ينبغي لنا أن نُلاحظَ أيضاً ، أنّه في كلِّ ما وصلنا من شعرِه لم نرَهُ ينظمُ الشعرَ للشعر، وإنّما لأنّ التعبيرَ الذي اقتضته المُناسبَة موضوعَ القصيدة قد دعتهُ لذلك . ليس هذا فقط ، بل إنّنا نُلاحظُ أنّه ما أن ترك العراق إلى وطنه الأوّل حتى جفّ عنده مَعينُ الشعر . فكأنّه كان مَرهوناً لا فكاك له عمّا اضطرب فيه هناك .

هكذا نصِلُ إلى حقيقةٍ كبيرةٍ في عملنا النّقدي على شعرِ الشاعر ، هي أنّه كان شاعرَ قضيّة . فلمّا سكنتْ بالنسبة إليه ، بخروجِه النفسي ، ربما لعلّة الكِبَر ، والمكاني ، بسبب خروجه من الكوفة ، سكت عن قول الشعر.

وهكذا ، وبما أنّ شعرَ أبي الطُفيل خادمٌ لوجهةِ نظره فيما اضطرب فيه من موقفٍ وعمل ، إذن فهو شعرٌ وظيفي ، أو فلنقُل شعرٌ له وظيفة . لسانٌ عملُهُ ووظيفتُهُ محصوران في التعبير عمّا في الجِنان . ومن المعلوم أنّ هذا النمط أصدقُ بما لا يُقاس من الشعر الاحترافي ، على الرُغم ممّا طوْع يدِ هذا من تراثٍ

وثروةٍ من المعاني التي عمل عليها كبار الشعراء من قبل لـه أن يختار منها ما يشاء .

لذلك فإنّنا في الفصل التالي ، حيث سنوردُ مُنتخباتٍ من شعره ، سنشفعُ كلَّ مقطوعةٍ أو قصيدةٍ بما يُبيّنُ مُناسبَتَها ، نقتبسه غالباً ممّا قالته المصادرُ على الموضوع نفسه . ممّا يدلُّ على أنّنا لسنا أوّلَ مَن اكتشف ضرورةَ ذلك . والحقيقةُ أنّه ليس من السّهل فهمَ مقاصده الشعريّة دون هذا البيان .

نقولُ أخيراً أنّنا ليس أول مَن اهتمّ بشعر أبي الطُفيل ، بل سبقنا إليه التونسي الطَيّب العشاش ، الذي جمع ما وصلت يداه إليه من شعره ، ونشره في (حوليّات الجامعة التونسيّة) العدد العاشر سنة 1973 م . استدرك عليه العراقي ضياء الدين الحيدري في مجلّة (البلاغ) البغداديّة العدد السابع من السنة الخامسة سنة 1395 هـ / 1975 م . وكلتاهما محدودة الانتشار محصورةٌ في موطنها . الأمر الذي سوّغ لنا ضمّه إلى عملنا هذا ، وِفقَ المنهج الذي بيّنّاه في المُقدمة .

هوامشُ الفصل

1 ــ مثلاً : الأغاني ، ط . بيروت 1958 : 15 / 114 .
2 ــ الذهبي : العِبَر ، ط . الكويت 1960 : 1 / 118 ، والبخاري : التاريخ الكبير : 6 / 446 ، والمزّي : تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، ط . بيروت 1413 هـ / 1992م : 14 / 79 .
3 ـ مثلاً : سير أعلام النبلاء : 4 / 467 ، طبقات ابن سعد : 6 / 64 ، تاريخ بغداد للخطيب : 1 / 212 .
4 ــ الواقدي : المغازي : 2 / 780 .
5 ــ الأغاني : 15 / 114 .
6 ــ يقول أبو العباس الأعمى ، وكان من شُعراء بني أُميّة المعدودين وصديقاً لأبي الطُفيل :

لعمـــرك إنّني وأبو طُفيلٍ   لمُختلفـــان والله الشـــهيـــدُ
أرى عثمان مُهتدياً ويأبى   مُتابعتي وآبى ما يُريدُ

(الأغاني : 228/16) في أخبار أبي العباس الأعمى

7 ــ ابن مزاحم المنقري : وقعة صفين ، ط . قم 1382هـ / 310 .

8 ــ نفســه ، و مناقب آل أبي طالب : 3 / 17 .

9 ـ بهذا اللقب كان ابنُ الحنفيّة يُعنونُ رسائله للمختار : " **من المهدي بن علي** " . وخاطب الوفدُ المُكلّفُ من المختار بإقناع إبراهيم بن الأشتر بالتعاون معهم بقوله : " **هذا المُختار قد جاءنا من قِبَل المهدي** " (الطبري : 16 / 14 و 16) . وخاطب المُختارُ ابنَ الأشتر بقوله : " **هذا كتابٌ إليك من المهدي بن أمير المؤمنين الوصي** " (نفسه : 6 / 16) . وقد لاحظ ابنُ الأشتر لمُخاطبيه أنّ ابنَ الحنفيّة كان يُخاطبه في رسائله من قبل بـ " **محمد بن علي** " ممّا يُشير إلى تاريخ بدء استعماله هذا اللقب (نفسه : 16 / 17) وقد نادى المُختـار في أهل الكوفة ، بعد أن وصله كتابٌ من ابن الحنفيّة ، بقولـه : " **هـذا كتـابُ مهديّكُـم** " (أيضاً : **6 / 76**) .

10 ــ انظر : الطبري : 6 / 71 حيث يقول : " **إنّ المُختار حين ظهر بالكوفة واستجمع لـه الأمر وهو عند الشيعة إنما يدعو إلى ابن الحنفيّة والطلب بدماء أهل البيت** " .

11 ــ إقرأ فيما يأتي من شعره بيتاً قاله يصِفُ فيه نجاتَه بنفسه من قصر الإمارة بالكوفة من عسكر

مصعب بن الزُبير .

12 ــ الفرق بين الفِرَق / 53 .

13 ـ الطبري : 6 / 335 ــ 36 .

13 ـ لمن يرغب في تفصيل هذا الإجمال كتابنا : التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسورية ، ط. بيروت 1413هـ/1992م / 168 وما بعدها .

14 ـ ابن حجر : الإصابة في تمييز الصحابة ، ط. بيروت دار الكُتُب العلميّة لات . وهي مُصوّرة عن طبعة كلكتّا سنة 1853 م : 7 / 110 . قال : " **كان** [أبو الطُفيل] **يعترف بفضل أبي بكرٍ وعُمر لكنّه يُقدّم عليّاً** " .

15 ـ الأغاني : 15 / 115 ـ 16 .

16 ـ المسعودي : مروج الذهب ، نشرة بلّلا ، الفقرة 1798 .

17 ــ المعارف / 341 ـ 42 .

18 ـ شذرات الذهب : 1 / 118 .

19 ــ الخطيب : تاريخ بغداد : 1 / 212 .

20 ــ تاريخ اليعقوبي ، ط. بيروت ، دار صادر لات : 2 / 307 .

مُنتخباتٌ من شعره

لمّا رجع محمد بن الحنفيّة من الشام حبسه ابنُ الزُبير في سجن عارم . فخرج إليه جيشٌ من الكوفة عليهم أبو الطفيل عامر بن وائلة حتى أتوا سجن عارم فكسروه وأخرجوه . فكتب ابنُ الزُبير إلى أخيه مصعب أن يُسيِّر نساءَ كل مَن خرج لذلك ، فأخرج مصعب نساءَهم ، وأخرج فيهنّ أُمُّ الطُفيل امرأةُ أبي الطُفيل ، وابناً له صغيراً يُقالُ له يحيى . فقال أبو الطُفيل في ذلك :

إن يكُ سيّرها مصعبٌ فإنّي إلى مصعبٍ مُذنبُ
أقودُ الكتيبةَ مُستلئماً كانّي أخو عُرّةٍ أجربُ
عليَّ دلاصٌ تخيّرتُها وفي الكفِّ ذو رونقٍ مِقْضَبُ
فلو أنّ يحيى به قوّةٌ فغزو مع القوم أو يركبُ
ولكنّ يحيى كفَرخ العُقا
بِ في الوكر مُستضعَفٌ أزغبُ[1]

دخل ابنُ صفوان على عبد الله ابن الزُبير وهو يومئذٍ بمكة ، فقال : " أصبحتَ كما قال الشاعر:

فإنْ تُصبكَ من الأيّام جائحةٌ لا أبكِ منك على دنيا ولا دين "

قال :" وما ذاك ياأعرج ؟ قال : " هذا عبد الله ابن عبّاس يفقّهُ الناس ، وعُبيدُ الله أخوه يُطعمُ الناس ، فما بَقّيا لك ؟ فأحفظهُ ذلك . فأرسل صاحبَ شُرطته عبد الله بن مُطيع فقال له :" انطلق إلى ابنَي عباس فقُل لهما ، أعمدتُما إلى رايةٍ ترابيّةٍ [نسبةً إلى كنية الإمام أمير المؤمنين : أبو تُراب] قد وضعها الله فنصبتُماها ؟! بدّدا عنّي جمعكُما ومَن ضوى إليكما من ضُلاّل أهل العراق وإلا فعلتُ وفعلت . فقال ابنُ عباس :" قُل لابن الزبير ، يقولُ لك ابنُ عباس ، ثكلتكَ أُمُّك ، والله ما يأتينا من الناس غير رجلين ، طالبٌ فقهٍ أو طالبُ فضل ، فايَّ هذين نمنع ؟! فأنشأ أبو الطفيل عامر بن وائلة يقول :

لا درّ درُّ الليالي كيف تُضحكنا منها خطوبٌ أعاجيبٌ وتُبكينا

ومثل ما تُحدِثُ الأيامُ من غِيَـرٍ   يا ابنَ الزُبير عن الدنيا تسـلّينا
كنّـا نجئُ ابـنَ عباسٍ فيقبســنا   علماً ويُكسـبنا أجراً ويهــدينـا
ولا يـزالُ عُبيـدُ الله مُتــــرعـةً   أجفْانُـهُ مُطعمـاً ضيفاً ومسكينا
فالبِـــرُ والـدينُ والدُنيـا بدارهمـا ننالُ منــه الذي نبغـي إذا شـينا
إنّ النبيَّ هو النُورُ الذي كُشِفت   بـه عِمايـاتُ باقينـا وماضينـــا
ورهطُـهُ عصمـةٌ في ديننـا ولهم   فضلٌ علينــا وحقٌ واجبٌ فينـا
ولسـتَ فاعلمـهُ أولى منهمُ رحماً   يا ابـنَ الزُبير ولا أولى به دينــا
ففيمَ تمنعـهُـمُ منّا وتمنعُنــــا   منهم وتُؤذيهـــمُ فينا وتُؤذينـــا
لن يُــؤتيَ اللهُ مَن أجــرى ببُغضـهـمُ
في الـدين عِـزّاً ولا فــي الأرض تمكينـا[2]

قال لـه مُعاوية :" أجِــزْ ! " :

إلى رجب السبعين يُعرفُ موقفـي   مع السيف في خيلٍ سيُحمى عديدُها

فقـــال :

زَحـوفٌ كـرُكـن الطّـود كل كتبةٍ إذا استمكنت فيهـا يقِـلُّ شـــديدُها
كأنّ شُـعاعَ الشمـس تحت لوائِها مقارمُها حُمــرُ النّعام وسُــــودُهـا
شـعارهـــمُ سـيما النبي ورايـــةٌ بهــا ينصـرُ الرحمـنُ ممّن يكيــدُها
لهـا سـرَعانٌ مـن رجـالٍ كأنّهـم دواهـــي السّباع نُمـرُها وأُســـودُهـا
يمُورون مَورَ الموج ثــمّ ادعاؤهم إلـى ذات أنــــدادٍ كثيرٍ عديدُهـــا
إذا نـهضـت مدّت جناحين منهــمُ على الخيل فرســانٌ قليلٌ صـُـدودُها
كهولٌ وشُـبّانٌ يــــون دمـاءَكم طَـهوراً وثـاراتٍ لهـا تسـتقيـدُهـــا
كـأنّــي أراكم حيـن تختلفُ القنـا وزالـــت باكفال الرجــــال لُبُـودُهـا
ونــحـنُ نكــرُّ الخيـل كَرّاً عليكمُ كخطْفِ عِتـاق الطيـر طيراً تصيدُها
إذا نُعيت موتـى عليكم كثيــــرةٌ وعيّت أُمــورٌ غـــاب عنكم رشيدُها

هنالك إمّــــا النفس تابعة الهُدى ونــــارٌ إذا ولّــتْ وأزّ شــــــديـدُها
فلا تجـزعوا إن أعقبَ الدهرُ دولةً وأصبح منّاكُــم قريبــــاً بعيــــدُها
فـإنّ لأهـل الحـق لا بُـــدّ دولة على الناس يُـرجى وعدُها ووعيدُها 3

دُعي أبو الطفيل إلى مأدبة فغنّتْ قينة عندهم قولَه يرثي ابنَه :
خلّى طُفيلٌ عليّ الهــمّ وانشعبا وهـدّ ذلك رُكنـــي هَــــدّةً عجبــا
وابنَي سُميّة لا أنســـاهما أبــداً فيمَن نسيتُ وكُلٌّ كـان لـي وصبـــا
فبكى حتى كاد يموت .
حدّثنا حمّاد بخبر أبي الطفيل هذا فذكر مثلَ ما مضى وزاد في الأبيات :
وأخطأتني المنـايـا لا تُطالعُنـــي حتـى كبُـرتُ ولم يتــركن لي نشَبا
وكنتُ بعد طُفيلٍ كالذي نضبت عنـه الميـاه وفاض الماءُ فانقبضا
فلا بعيـرٌ لـه في الأرض يركبـــهُ وإن سعى إثرَ مَن قد فاتـــه لغبـــا
وســار من أرض خاقانَ الذي غلبــت
أبـنـــاءَ فـارسَ فــــي أرجائِهـــا غلـبـــــا
فإذ سلكتَ سبيلاً كنتَ سالكهــا ولا مُحالــةَ أن ياتـــي الـــذي كُتبـــا
فمـا لفظتُك مــــن رِيٍّ ولا شِبَعٍ ولا ظللتُ بمــــا في العيـش مُرتغِبا
حتى وردتَ حياضَ الموت فانكشفـت
عنـك الكتـــائبُ لا تُخفي لهـا عقِبــــــا
ومن سجستان أســــبابٌ تُزيّنُهـا لك المنيّةُ حَيْنـاً كان مُجتَنَبـــــا
وغادروك صريعـاً رَهـنَ معركـــةٍ ترى النسورَ على القتلى به عُصبا
تعاهدوا ثم لم يوفـوا بما عهـــدوا وأســـلموا للعدوِّ السّبيَ والسّلَبـــا
ياسوأةَ القوم أن تُسبى نســـاؤهمُ وهم كثيرٌ يرون الجَـزي والحَرَبـــا
فاملِك عزاءكَ إن رُزءٌ أُصبتَ به فلــن يــــرُدَّ بكاءُ المـرءِ ما ذهبــا
وليس يشـفي حزينـاً مــن تذَكُّره إلا البكـــــاء إذا ما ناح وانتحبـــا 4

طلب أبو الطُفيل من علي (ع) أن يُخصّصَ له ولقومه في أيام صفين يوماً يُقاتلون فيه فخصّهم بيوم الأربعاء . فتقدّم أبو الطُفيل في قومه من كنانة ، وهم جماعةٌ عظيمة ، وحمل مُرتجزاً :

قد صابرتْ في حربِها كنانة والله يجزيها غداً جِنانَه
مَن أفرغَ الصّبرَ عليها زانَه أو غلب الجُبنُ عليها شانَه
أو كفر اللهَ فقد أهانَه غداً يعضُّ مَن عصى بنانَه [5]

أيدعُونني شيخاً وقد عشتُ حقبةً وهُنّ عن الأزواج نحوي نَوازِعُ
وما شاب رأسي من سنينٍ تتابعت عليّ ولكنْ شيّبتني الوقائِعُ [6]

كان أبو الطفيل مع المُختار [الثقفي] في القصر ، فرمى بنفسه قبل أن يُؤخَذَ وقال :

ولمّا رأيتُ البابَ قد حِيل دونَهُ تكسّرتُ باسم الله فيمن تكسّرا [7]

. . . . وفخرَت المُضريّة [في صفين] بما كان منهم على الرّبَعيّة ، وقال عامر بن واثلة :

حامت كِنانَةُ في حربِها وحامت تميمٌ وحامت أسد
وحامت هوازن يومَ اللِّقا فما حامَ منّا ومنهم أحد
لقينا قبائلَ أنسابُهم إلى حضرموت وأهل الجَنَد
لقينا الفوارسَ يوم الخميس والعيد والسبت ثم الأحد
وأمدادهم خلفَ آذانِهم وليس لنا من سوانا مدَد
فلمّا تنادوا بآبائهم دعونا مَعَدّاً ونعمَ مَعَدّ
فظلنا نُفلّقُ هاماتِهم ولم نكُ فيها ببَيض البلد
ونعم الفوارس يوم اللقاء فقُلْ في عديدٍ وقُلْ في عدد

وقَــلْ فـي طِعــانٍ كفُــرغ الدّلاء
وضــــربٍ عــظيــمٍ كنــارِ الوَقَـــد
ولكن عصفنا بهم عصفــــــةً
وفـــــــي الحـرب يُمـنٌ وفيها نكـــد
طحنّا الفوارسَ وسط العجاج وسُقنـا الزعـانف سوقَ النّقَد
وقُلنــا علـــــيٌ لنــا والـــدٌ ونحـن لـه طاعــةً كالولـــد [8]

وبلغ أبا الطُفيل أنّ مروان وعمرو بن العاص يشتمون أبا الطُفيل ، فقال أبو الطُفيل الكِناني :

أيشـتمني عمروٌ ومـروان ضَلَةً بحُكم ابنَ هنـدٍ والشقي سـعيدُ
وحول ابـنَ هنـدٍ شائعون كأنّهم إذامااستقاموا في الحديث قُرودُ
يعضّون من غيظٍ عليّ أكفَّهم وذلك غـــمٌّ لا أجَــبُّ شـديـــدُ
وما سبّني إلا ابـــنُ هندٍ وإنني لتلك التي يشـجى بها لرَصودُ
كما بلغـتْ أيّامَ صفيـن نفسَـهُ تراقيَــهُ والشّــامتون شُـــــهودُ
فلم يمنعوهُ والرمـــحُ تَنُـوشُـــهُ يخِبُّ بهـا رَحْـبُ الذراع عَنودُ
وطارت لعمروٍ في الفِجاج شـــظيّةٌ
ومـــــــروان من وَقْـع الرمـــــــاح يحيدُ
ومـا لسعيـدٍ همّـةٌ غير نفسِـــهِ لعلّ التي يخشـونهـا سـتعودُ [9]

وفي قتْل هاشــم بن عُتْبَـة يقولُ أبو الطُفيل عامر بن واثلة :
يا هاشمَ الخير جُزيتَ الجنّة قاتلتَ في الله عـدوَّ السُّـنّة
والتّاركي الحقَّ وأهلَ الظنّــة أعظِم بما فُزتَ به من مِنّة
صيّرني الدهـرُ كـأنّي شَنّــة ياليتَ أهلي قد علوني رَنّـة
من حَوبَـةٍ وعَمّةٍ وكِنّــة [10]

أشـــهـدُ بالله وآلائِـــــــــــهِ وآلِ يــاســين وآلِ الـزُّمَـــر

أنّ علـــيَّ بن أبـي طالـــبٍ بعــد رسول الله خير البشر

لـو يســمعوا قولَ نبيّ الهُدى مَن حادَ عن حب عليٍّ كفر 11

قيل أنّ الشاعر [أبا الطُفيل] لمّا خرج محمد بن الحنفيّة في وجه ابن الزُبير خرج معه وأنشد هذه الأبيات :

إخوانَـنـا شيعتَنا لا تعتـــــدوا إنّـي زعيـمٌ لكمُ أن ترشــــدوا

وأن تنـالـوا شـرفاً وتســـعـدوا ووازروا المَـهديَّ كيما تهتدوا

محمـدَ الخيــرات يامحمــــدُ أنـت الإمــامُ السيّـدُ المُسـوّدُ

لا ابنَ الزُبيـر السّـــامريّ المُلحـــدُ

لا والــــــــذي نحـن إليـه نعمَـــدُ 12

هوامش الفصل

1 ــ الأغانـي: 15 / 117. وفي الكامل لابن الأثير : 4/ 249 رواية مختلفة لملابسات الأبيات .

2 ـ نفســه : 15 / 118 .

3ـ المرزباني : أخبار شعراء الشيعة / 25 ـ 26 وابن مزاحم المنقري : وقعة صفين ، ط . قم 1382هـ / 554 ـ 55 .

4 ـ الأغاني : 15 / 119 .

5 ـ وقعة صفين / 310 .

6 ـ مناقب آل أبي طالب : 2 / 300 و 354 . والمعارف لابن قُتيبة / 341 .

7 ـ علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري : الحماسة البصْريّة ، ط . بيروت عالَم الكُتُب : 1 / 32 .

8 ـ وقعة صفين / 312 ــ 13 .

9 ـ نفســه / 313 .

10 ــ أيضاً / 359 .

11 ـ مناقب آل أبي طالب : 3 / 17 .

12 ــالفرق بين الفِرق / 53 .

علي بن محمد العلوي

(صاحبُ الزُّنـج)

(ق : 270 هـ / 883 م)

الشاعر

1 ـــ الإسمُ وإشكاليّاتُه

هو عليّ بن محمد . هذا هو المُجمَعُ عليه من اسمِه . ولكنّه يشتهـ رُ أكثر باللّقب الذي نجِدُهُ له في كُتُب التاريخ والسّيَر : " **صاحب الزُّنج** " . لأنّه هو الذي افتتحَ وقـادَ ثورةَ الأرقّاء السُّود العاملين في الإقطاعات الزّراعيّة في العراق ، ضدّ مُلاك الإقطاعات ، في القرن الثالث للهجرة . وعلينا أن نُلاحظَ منذ الآن أنّ وضْعَ علاقته بأُولئك المساكين تحت عنوان الصُّحبة ، بما تعنيه من رِفقةٍ ومُلازَمةٍ طيّبة ، لاختيارٌ بديعٌ . بمُناسبة أنّ ثورتَهم العاصفة انطلقتْ بمُبادرتِه هو ، وما كان لها أن تحصل بدونِها أو بمثلِها . لأنّ أمثالَهم من الناس يفقدون لطُولِ الهَوان القُدرةَ على أن يكونوا أصحابَ قرار . فكيف بقرارٍ بحجم ثورةٍ على دولةٍ جبّارةٍ كالدولة العبّاسيّة . ثم أنّ ثورتهم عاشت بقيادتِه عُمراً طويلاً بالقياس إلى أعمار مثيلِها من الثورات ، زُهاءَ أربع عشرة سنة (255 ـ 270 هـ / 869 ـ 883 م) ، ولم تمُتْ إلا بموتِه . فكان من أدنى حقوقه على أُولئك الزنج أن يُوصَفَ بأنّه " **صاحب** " ــهم .

ثم أنّه نُسب في بعض المصادر هكذا : "الوَرْزَنيني" . وهي نسبةً إلى قريـةٍ من قُرى إيران اسمُها "ورزنين" ، قيلَ أنّه وُلِد ونشأ فيها [1] . وهذه كانت بجوار "الرّيّ" ، التي هي اليومَ ضاحيةٌ من ضواحي "طهران" . وصفها (أي ورزنين) ياقوتُ بأنها " **من أعيان قُرى الرّيّ كالمدينة** " [2] . لكنّ الذي يبعثُ على الرّيب ، أو يستدعي التفسيرَ على الأقلّ ، أنّنا لا نجِدُ في كتاب (الأنساب) للسُّمعاني ذكراً للقرية وبالتالي لأحدٍ من المنسوبين إليها . مع أنّها كانت كبيـرةً " **كالمدينة** " على حدِّ وصف ياقوت لها ، فضلاً عن أنّها تقعُ في دائـرةِ مدينة "الـرّيّ" العريقة ، التي كانت في ذلك الأوان مركزاً علميّاً هامّاً جِدّاً . فكان من

حقّها بحسب طبيعة الأُمور أن يخرجَ منها مَن يحملُ اسمَها. وعلى كلِّ حال ، فإنّنا بعد التّحَرّي لم نجِدْ اليومَ بلداً بهذا الاسم في المنطقة . إلا أن تكونَ مدينة " طهران " قد ابتلعتها في توسُّعها العُمرانيّ الهائِل .

والذي يُقال على لسانه على سبيل جعْلِ فكرةِ ولادته في " ورزنين " سائغةً للسامع ، أنّه كان يقول :

" **جَدّي محمد بن حكيم** [وهو جدّهُ لأُمّه حسب سياق النصّ] **من أهل الكوفة ، أحدُ الخارجين على هشام بن عبد الملك مع زيد بن عليّ بن الحسين . فلمّا قُتل زيد هرب فلحقَ بالرّيّ ، فلجأ إلى ورزنين فأقام بها . وأنّ أبا أبيه عبد الرّحيم ، رجلٌ من عبد القيس ، كان مولدُهُ بالطّالقان . وأنّه قدِمَ العراق فأقام بها ، واشترى جاريةً سِنديّة ، فأولدها محمداً أباه** " [3] .

ونحن نُثبتُ هذا النصّ الآن على عِلاّته ، على أن نعودَ إليه في موضعه المُناسِب من البحث .

ثم أنّه يُنسَبُ في بعض المصادر إلى البُرقُع " **البُرقُعي** " [4] . ولم نجِدْ فيما بين يدينا من مصادر كثيرة مَن اعتنى ببيان سبب ومنشأ هذه النسبة . والظاهر أنّها من جُملة وسائل وأدوات التشنيع والتّهوين التي لجأتْ إليها السُلطةُ في حربِها المعنويّة التي شنّتها عليه.

هذا وقد ارتفع هو بنسبه إلى الإمام عليّ (عليه السلام) ، ممّا يستدعي حتماً أن يكون قد تسمّى بالعلويّ أو بالهاشمي ، مثلاً . ولكنّنا طبعاً لن نجِدَ هذه النسبة لدى مَن ذكره أو عالجَ أخباره من أهل التاريخ والسّيَر لأسبابٍ غير خفيّة . لذلك فإنّنا لن نقِفَ هذه الإشكاليّة تحت عنوان " **الاسم وإشكاليّاتُه** " ، وسنتركها لموضعِها من سيرتِه . ونحن قد أضفنا من عندنا لقبَ " **العلويّ** " إلى ما هو ثابتٌ من اسمِه ، لاقتناعِنا بصحّة نسبه إلى الإمام ، ولأنّنا رأينا في هذه الإضافة إنصافاً لشخصٍ ظلمه التاريخ .

2 ـــ عصرُه

كان " العراقُ " ، حيث عاش صاحبُ الزّنج منذ الفتُوّة على الأرجح إلى أن قُتِل ، مركزاً لدولةٍ مُترامية الأطراف ، إليه تجبى خيراتُها تحت مُختلف العناوين ، من خَراجٍ وجِزْيةٍ وغنائم حرب وسبي . وكان البشرُ المُسترقُّوْن من مداخيلِها الرئيسة ، إمّا كسبايا وإمّا كضرائب عينيّة وإمّا بالشّراء ، بل وحتى باصطيادهم عنوةً أحياناً من مواطنهم . بحيث يُمكنُ القولُ أن البشرَ ذُكوراً وإناثاً كانوا مادّةَ تجارةٍ عالميّةٍ : (النّخاسَة) ، لم توفّر وسيلةً للحصول على أكبر عددٍ ممكنٍ منهم . وكان القسم الأكبر من هؤلاء ينصبُّ على العراق ، حيثُ يُصرفُ الذُّكور إلى العمل أو العسكر ، والإناثُ إلى الاستمتاع بهنّ أو الخدمة في المنازل .

ومع تراكُم هذا العامل السُكّاني المُتدفِّق نشأ في هذا القطر مجتمعٌ مَشطورٌ عموديّاً ، عِمادُهُ الأحرارُ مبدئيّاً . أمّا مَن دخلوه بوصفهم أرقّاء ، فقد كان وضعُهُم مُتفاوتاً تفاوُتاً كبيراً . العسكرُ المملوكُ أساساً استولى عمليّاً على السُلطة ، بعد أن استكان الناسُ إلى الدّعَة والرّفاه ، ونبذوا كلَّ ما يُعكُّر صفْوَهما . فأوكلوا شؤون الدفاع إلى عسكرٍ مُحترفٍ اشتُري ودُرّب خِصّيصاً لهذا الغرض . سُرعان ماستغلّ أُمراؤهُ فائضَ القوّةِ التي تحت أيديهم في القبض على مفاصِل السُلطة . أمّا غيرهم من صنوف الأرقّاء ، فقد كان قسمٌ منهم في بيوت الأُسرات الميسورة والمُتوسّطة الحال (الخصيان والجواري) . هؤلاء كانوا إجمالاً يُشاركون أسيادَهم نمطَ عيشهم حسب مُستواه . لكن كان إلى جانب هؤلاء المحظوظين نسبيّاً أعدادٌ كبيرةٌ جدّاً عانت حياةً في الغاية من الشّظف والشّقاء والتّعاسَة . أولئك هم الذي يعملون في الإقطاعات الزّراعيّة في "العراق" الأدنى التي كانت تحت أيدي الأثرياء والنافذين .

ومَن يعرفُ التاريخَ الجيولوجيَّ لأرض "الع راق" الأدنى يعرفُ أنّ قسماً كبيراً من سطحها كما هو اليوم ، خصوصاً من الوسط باتجاه الجنوب ، قد تكوّن أثناءَ العُصور المُتطاولة بتراكُم الطمي الذي تحملهُ مياهُ الرّافدَين المُتدفّقَة في موسم الفيضان . هوذا ما منحَ أرضَه الخُصوبَة . ولكنّ هذا الطمي حمل معه أيضاً نسبةً عاليةً جداً من المُلُوحة ، بحيثُ جعلتْ الأرضين غير قابلةٍ للزراعة . فكان المُزارعون ، وما يزالون ، يلجأون إلى إغراق الأرض بطبقةٍ من الماء لإذابة ما فيها من ملح ، ثم يكسحونَ الملحَ عن السّطح بعد جفافِه . وهذه عمليّةٌ شاقّةٌ ينبغي أن تتكرّرَ سنويّاً . كانت تُوكَلُ إلى جيشٍ هائلٍ من العبيد الزنوج ، الذين يعملون في أسوأ الظروف ، تحت الرّقابة الصّارمة لوُكلاء المالكين القُساة ، محرومين من كل الحقوق : لا بيوتَ لهم ، ولا حياةَ أُسريّة ، وبصفتهم عبيداً مملوكين لمالكِ الأرضِ فقد كانوا لا يتقاضون أيّ أُجر . امّا غذاؤهم فقد كان يقتصرُ على القليل الذي يُوزّعُ عليهم من الدّقيقِ والتمرِ والسّويق .

هذا الوضعُ حملَ حالةً اجتماعيّةً قابلةً للانفجار . فكانت أُولى ثورات الزُنج في أيّام مصعب بن الزُبير ، ثم في أيّام الحجّاج [5] . وكانت الدولةُ من جانبِها تُنظّم المذابح المَهولة للقضاء على عديدهم بين الفينة والأُخرى [6] ، استباقاً لما قد ينشأُ من تكاثرهم من مشاكل . ومع ذلك فإنّ أعدادهم ظلّت تتزايد ، لتلبية حاجة أصحاب الإقطاعات الزّراعيّة إلى عملِهم . وكانت أعنفُ ثوراتهم هذه التي قادها علي بن محمد مَن عُرف بـ (صاحبُ الزّنج) .

---

3 ـ سِـــيرتِــه

(1)

وقفنا فيما فات على الرّواية التي تتكرّرُ في المصادر، أنّه وُلد ونشأ في "ورزنين" ، حيثُ وعدنا بالعَودِ إليها في المكان المُناسب . وهذا هو .

والمُتمعِّنُ في عناصر الرّواية ، وقد اقتبسنا نصَّها هناك ، سيكتشفُ بسهولةٍ أنّها مُضطربةٌ إن لم نقُل أنّها مُتهافتة ، بالنسبة لمَن رمى منها إلى الإيحاء بأنّه " **كان ورزنينيّاً** "[7] . فهي تقول على لسانه أنّ جَدَّهُ لأُمّه ، المُسَمّى محمد بن حكيم ، هو الذي سكن "ورزنين" . ثم تُتابع الق ولَ ، على لسان مُخبرٍ هذه المرة ، أنّ جَدَّهُ لأبيه ، المُسَمّى عبد الرحيم ، كان من أهل "الطّالقان" ، وأنّه قَدِم "العراق" فأقام بها ، واشترى جاريةً سِنديّة فأولدها محمداً والد عليّ (صاحبُ الزّنج) . الأمر الجامعُ في الرّواية ، الذي يبدو أنّهُ غرضُ واضِعِها ومُلفّقِها في النّهاية ، هو أنّ الرجلَ فارسيّ الجَدّين : جَدُّه لأُمّه فارسيّ المسكن ، وجَدُّه لأبيه فارسيّ المولد . هذا المَقصدُ نجِدُهُ بنحوٍ أكثرَ صراحةً في القول أنّه هو نفسُه فارسيٌّ ، وأنّ اسمَه الحقيقي هو(بهبوذ) [8]. أي أنّه ليس فقط لم يكُنْ علويَّ النّسَب كما ادّعى ، بل لم يكُن عربيّاً من رأس . من المُؤكَّد أنّ هذا المُركّب لم يأتِ عفواً ، وإنّما من ضمن الحرب المعنويّة التي نظّمتها السُلطةُ وألسنتُها عليه ، بمُوازاة الحرب المادّيّة التي شنّتها عليه . وليكُنْ هذا مَدخلُنا لقول ما أدّى إليه البحُثُ على نسبِه .

(2)

ولقد أشرنا في ختام القسم الأوّل من هذا الفصل إلى أنّه ارتفع بنسبه إلى الإمام عليّ (عليه السلام) . ونُفصّلُ ما أجملناه هناك بالاقتباس عن الطبري أنّه "**زعمَ أنّه علي بن محمد بن أحمد بن علي بن عيسى بن زيد بن عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب**"[9].

ولقد ذهب المُؤرّخون والنّسّابة كلَّ مذهبٍ في التعليق على الدّعوى . وما من كبيرِ فائدةٍ في تَرديدِ أقوالِهم بأكثرِ من القول ، أنّ هذا الضّجيج ليس إلا صَدىً لِما وصفناهُ قبل قليل بالحرب المعنويّة عليه . ذلك أنّه من المُؤكّد أنّه لولا دورَه في قيادة ثورةِ الزنج ، لَما لقِيَتْ قضيّةُ نسبه ، أيّاً كان ، هذه الدّرجة من العناية،التي تَؤدّي غالباً إلى المَزيد من الإرباك وغَمّ الحقيقة .

من الواضح أنّ قَصْدَهُ هو من إشهار نسبه العلويّ ، سواءٌ كان صادقاً فيه أم كاذباً ، هو اكتسابُ الأهليّةِ عند الناس لثورةٍ ولقيادتِها . مهما يكُنْ مُحرِّكُها وقضيّتُها مُحِقّيَن ، فهي في النهاية ثورةٌ في وجه الخلافة الهاشميّة ، فينبغي أن تكونَ أُطروحتُها من الثّقل نفسه . ومن المعلوم أنّ الثوراتِ العلويّة المُتوالية كانت في ذلك الأوان شُغلَ الدولة الشّاغِل . فلتَكُنْ هذه واحدةً منها . وبدون ذلك فإنّ الناسَ لن ينظروا إليها إلا بوصفها عصياناً لعبيدٍ أرقّاء ليس لهم ولا عليهم إلاّ الامتثال لأمر سادتهم .

في غُمار ذلك الذي سمّيناه ضجيجاً ، تبرزُ مُلاحظةٌ هامّةٌ جدّاً ، لم تُعْطَ حقَّها من العناية ممّن أدلَوا بدلوهم في هذا النّطاق ، وما أكثرُهُم ، هي أنّنا لم نسمع استنكاراً جِدّيّاً من العلويين لادّعاء الرجل بأنّه منهم . مع أنّهم كانوا في زمانه جماعةً كبيرةً نشيطة واسعةَ الانتشار. كما كانت تُراقِبُ تركيبتَها النّسَبيّة بكامل اليقظة ، ومن موقع التّمكُّن من اكتشافِ أيِّ دخيل بواسطة الكثيرين منها من المُختصّين بالأنساب وضبْطِها . فكان ينبغي أن لا تسكُتَ على هذا الذي زجّ اسمَها في ثورةٍ طالتْ أربعَ عشرة سنة ، وارتُكِب فيها ما ارتُكِبَ من صنوف الفظائع ، لو انّه كان عندها دَعيّاً . بل إنّ النسّابة ابن عِنَبَة ، وهو العارفُ الخبيرُ بأنساب الطّالبيين ، ينقلُ عن أحمد بن مسكويه (320 ـ 421 هـ / 932 ـ 1030م) في كتابه (تجارب الأُمَم) ، قولَه :

" **سمعتُ جماعةً من آل أبي طالب يذكرون أنّه [** يعني صاحبَ الزّنج **] علويٌّ صحيحُ النّسَب في آل أبي طالب** " . إن مغزى هذا النصّ ليس في منطوقِهِ فقط ، ولكن أيضاً في أنّ ابن مسكويه المؤرّخ المُعاصر ، وابن عِنبة النسّابة الخبير في أنساب الطالبيين ، كلاهما أثبته إثباتَ مَن لايعترضُ على مضمونِه على الأقلّ . ولعلّ ابن عنبة أراد من وراء إيــرادِهِ بتلك الصّيغة دون غيرها ، مع أنّه هـو الخبيـر الـذي يُؤخَذُ عنه فيمـا يتعلّق بأنساب الطالبيين ، أن يقولَ رأيَهُ هو ، دون أن يتحمّلَ مسؤوليّةً مُباشرةً عمّا يقولُه . كما أنّه يقول " **وزعم قومٌ آخَرون منهم إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن سُليمان الهاشمي النسّابَة وأبو الحسن زيد بن كتيلة الحسيني النسّابَة أنّ علي بن محمد صاحب الزّنج صحيح النسب في آل أبي طالب** " [10] . فمن هذا كلّه : من سُكوت العلويين ، ومن شهاداتِ جماعةٍ من النسّابة ، اكتفى ابن عِنَبَه بذكر اسمَي اثنين منهم ، فضلاً عن تلك الجماعة التي يبدو أنّها لم تكُن قليلةَ العدد ، أشارَ إليها ابنُ مسكويه بقوله " **جماعة من آل أبي طالب** " ، ـــ كلُّ ذلك يدلُّ بما لا يقبلُ الخِلاف على أنّ الاعتراف العامّ بصحّة نسب (صاحب الزنج) كان فاشياً في أوساط الطالبيين . وهم أحقُّ الناس وأقدرُهم على نفيه عنهم لو انّه كان دعِيّاً كاذبـا .

كلُّ ذلك ، فضلاً عن شهادتَه لنفسِهِ في شِعرِهِ . وهي أعلى درجات الشّهادة حين يتوفّرُ لها عنصرُ الصّدق (وهذا في الشعر خصوصاً مسألةٌ نقديّة) .

إنّ قراءَةً نقديةً مُتأنّيةً لشِعره تكشفُ عن مُحرّكاته وحوافزه للثورة ، ومنها ما يُمليهِ عليه نسبُه النبيل . ولكنّنا لن نلِجَ إليه الآن من هذا الباب ، لأنّنا نراهُ أليقَ بالقسم التالي ، تحت عنوان " شِعرُه " . ومع ذلك فإنّنا سنُسارعُ إلى القول ، أنّ هاهنا من الأدلّة ما يكفي على أنّ دعواه النسبَ العلوي كانت

جِدّيّة ، ولم تكُن مُجرّد دعاوة . كي لا نقطعُ بأنّها ثابتة ، لأنّ ذلك يقتضي أدواتِ بحثٍ مختلفة .

(3)

مهما يكُنْ فإنّ القسمَ المكشوفَ من سيرته يبدأُ في " سامرّا " ، التي كانت في زمانه عاصمةً للدولة . ويبدو أنّه قطنها زمناً ، يعملُ أو يُديرُ كُتّاباً لتعليم الصبيان ، حيث كان يُلقّنهم التلاوةَ والخطَّ والحسابَ وما إلى ذلك من المبادي . بل قيل أنّه كان يُعلّمهم أيضاً النجومَ والسّحر والاسطرلاب [11]. وذلك أمرٌ ليس من السّهل التّسليمُ به لاعتباراتٍ غير خفيّة (مَن ذا الذي يُودعُ أبناءَه كُتّاباً يُعلّمهم السّحر والنجوم ، ثم متى كان للصغارِ القابليّةَ على تعلُّمها !) . ومع ذلك فإنّ زَجَّ هذا العنصر في سيرتِه المُبكّرة يدُلُّ على أنّ كلّ ما يتعلّقُ به كان موضعَ عملٍ ترذيليٍّ يرمي إلى تشويهِ صُورته لدى الناس . ومن الغنيّ عن البيان أنّ الجهةَ الوحيدة التي يُمكنُ أن تكونَ وراءَ هذه الخِطّة هي السُلطة ، بما تحت يدِها وطَوعَ أمرها من مُختلَف الألسِنَة .

في "سامرّا " أيضاً قيل أنّه اتصلَ ببعض مَن حول الخليفة المُنتصِر بالله (247 ـ 48 هـ / 861 ـ 62 م) "**منهم غانم الشطرنجي ، وسعيد الصغير، ويُسْر الخادم . وكان منهم مَعاشُه ، ومن قومٍ من أصحاب السُلطان وكُتّابِه يمدحُهُم ويستميحُهُم بشِعرِه** " [12] . ولكنّنا لا نجِدُ في كلِّ ما وصلنا من شِعره بيتاً واحداً في مديح هؤلاء وأمثالِهِم . نعم ، نحن نعرفُ جيّداً أنّ القسمَ الأوفرَ من شِعره قد ضاع . ومع ذلك فإنّنا نستبعِدُ جدّاً أن يكون كلُّ شعره المَزعوم من هذا القبيل وحدَه في القسم الضّائع ، وكأنّما هناك مَن تتبّعهُ عامِداً تضييعاً ، مع أنّه الأكثر مُناسَبةً لعقليّة السُلطة . وسنعرفُ من القسم التالي أنّ شِعرَه الباقي مُتنوّع المقاصِد ، بحيثُ يُمكنُ أن نبني منه صورةً على حَدٍّ جيّدٍ

من الوفاءِ والصّدقِ لشخصيّةِ صاحبِه ومقاصده كما سنرى . فلماذا ، لماذا لا نفتقِدُ في كلّ شِعره إلا هذا النّمَط ؟ ! (أي المديح) . لذلك نُرجّحُ بقوّة أنّ هذا المَلمَحَ من صورتِهِ في المصادر ، بما فيه الإشارة إلى شِعره المزعوم في مديح بعض أتباعِ رجال السُلطة ، هو أيضاً ممّا زُجَّ في سيرته زَجّاً ، ابتغاءَ إظهارِهِ مُتكَسِّباً بكلّ ما ملكتْ يداه ، ممّا سينعكِسُ بدون أدنى صعوبة على صورتِهِ ثائِراً . ومن المُفيد هنا أن يجمعَ القارئُ في ذهنه العناصرَ التي تذكرُها المصادرُ من سيرتِه ، لكي يتصوّرَ حجمَ العمل التّرذيلي / التهوينيّ الذي أُخضعتْ له . فهو مُعلّماً يُلقِّنُ الصغارَ صنوفَ الحيل السّحريّة ، ويُودعُ في أذهانهم الطّريّة الخُرافات والأباطيل . وهو شاعراً لا يربأُ عن أن يُسخّرَ شِعرَه لمديح رجالٍ من الدّرجة الثانية أو الثالثة . فلماذا يكون ثائراً أفضل ، بعد أن أعيتهُ السُّبُل في كلِّ ما سلك !

(4)

مهما يكُن ، فإنّهُ في السنة 249 هـ / 960 م ، حسبَ الطبري ، خرج من "سامرّا " ، التي يبدو أنّه لم يرَها بعد ذلك أبدا ، واتّجهَ إلى شرق شبه الجزيرة ، وبالتحديد إلى " هَجَر" ، التي يُسمّيها الطبري " البحرين " . هذه الحركة هي المُنعطَفُ الفاصلُ في حياته . هاهو قد تحوّلَ إلى رجل ثورةٍ ، يبحثُ عن فُرصته في منطقةٍ بعيدةٍ عن يدِ السُلطة الثقيلة ، على أن تكونَ مُهيّأةً اجتماعيّاً / مَطلبيّاً للسّير معه في هذا الاتجاه المحفوف بالمَخاطر . وفيها ادّعى ، أيضاً حسب الطبري ، أنّه علي بن محمد بن الفضل بن حسن بن عُبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) . وأثناء السنوات السّتّ أو السّبع التالية استقرّ به المقام في غير منطقةٍ من المناطق المُجاورة : في " هَجَر" ثم "الأحساء" ثم البادية ثم " البصرة " . وكان حيثما

حلّ يُثيرُ من حولِه عاصفةً يقتتلُ فيها الناس ، دون أن يُسجّلَ هو نجاحاً يُذكَر . ولكنّ الغريبَ أنّنا ، في كلّ تلك السنوات وما جرى فيها من أحداثٍ خطيرةٍ ، لا نجِدُ أدنى ذكرٍ للدولةِ وعسكرِها وعملِه ، فكأنّ الأمرَ لا يعنيها من قريبٍ ولا بعيد . على الرُّغم من أنّه ، دائماً حسب الطبري ، نجح في "الأحساء" في إنشاءِ سُلطةٍ محلّيّةٍ " **حتى جُبي له الخراج ونَفَذَ حكمُهُ بينهم** " [13] ، أي أنّه أنشأ سُلطةً مُوازيةً لسُلطة الدولة ، وهذا في معنى الخروجِ عليها .

بعد أن فشلتْ كلُّ مساعيه في مختلف الميادين رأيناه يستقرُّ في " بغداد " مدّةَ سنةٍ كاملة ، كان أثناءَها يعملُ جاهِداً لخُطوته التالية . ونحن نفهمُ من ذلك أنّه كان ما يزالُ مُصمّماً على مُتابعة خطّته ومقصدِه . ولعلّه استوعبَ أخطاءَه في السنوات الماضية ، وربما اكتشف قاعدةً من قواعدِ التّحريضِ الجَماعي المُنظّم ، هي أنّه بحاجةٍ إلى مُعاونين مُخلصين أحسنَ تدريبَهم وإعدادَهم . والأكثر أهميّةً أنّه من العبثِ العملُ على قاعدةٍ بشريّةٍ لا قضيّةَ اجتماعيّةً لها ، تكونُ بمثابة المُحرّك الكامن ، الذي يحتاجُ إعمالُهُ إلى باديءٍ يُحوّلُ ما هو بالقوّة إلى ما بالفعل . الأمرُ الذي كان مفقوداً في مُغامراتِه السّابقة وأدّى بالضروة إلى فشلِها . بيدَ أنّنا نُلاحظُ هنا أيضاً أنّ السُّلطةَ لم تُحرّك ساكناً في وجهه ، مع أنّه يعملُ الآن في أحضانِها ، وأن لا بُدّ أنّ أخبارَ أعمالَه السابقة قد وصلت إلى مسامعِها . فضلاً عن أنّ نشاطَه في " بغداد " كان شبه علنيّ ، وإلا كيف سجّلهُ المُؤرّخون. هنا ، بالإضافة إلى سُكوتها عنه سابقاً ، لا نجِدُ تفسيراً لبلادة حسّ السُلطة إلا إجمالاً في الحالةِ التي كانت عليها الدولةُ في ذلك الأوان من ترهُّلٍ ، بسبب الحالة الفصاميّة بين عسكرٍ غريبٍ يحتكرُ السُلطةَ الفعليّة ولكنّهُ يفتقرُ إلى المصداقيّة ، وحالةٍ سياسيّة يُفترَضُ أنّها تملكُ المصداقيّة ولكنّها تفتقرُ إلى القوّة .

لذلك رأيناه يستميلُ عدداً من الرجال ، تذكرهم بعضُ المصادر بأسمائهم . منهم مَن رافقهُ وغدا من قادةِ أصحابِه . ثم كمنَ حتى حانت له الفرصة باختلال الأمن في "البصرة" بين فئتين كبيرتين من التُرك ، أدّت إلى طرْدِ الوالي وفتحِ السجونِ ونهْبِ بيتِ المال ودُورِ الأغنياء ، بحيث غدت المدينةُ في حالٍ من الفوضى . فخرج من "بغداد" بمَن معه في شهر رمضان سنة 255 هـ / 15 أيلول868 م مُتجهاً إلى المدينة المُضطربة . وهناك شرعَ يأخذُ كلَّ مَن طالته يدُهُ من العبيد العاملين في كسْح السّباخ أو بيعِها، حتى اجتمعت لديه منهم جماعةٌ كبيرةٌ تُعدُّ بعشرات الأُلوف . وقف فيهم خطيباً فبيّن ظلامتهم ووعدهم بأن يقودَهم ، ويُحرّرَهم من الوضع المُزري الذين هم فيه ، وعاهدهم على أن لايخونَ قضيّتهم .

(5)

هكذا افتتح عليُّ بن محمد ثورتَه الكبرى ، التي طالت من بعد مدة أربع عشرة سنة أو تزيدُ قليلاً ، واقتضتْ جُهوداً جبّارة للقضاء عليها . وكان من آثارها أن دُمّرت مناطقُ واسعة من "العراق" الأدنى ، فضلاً عن سقوط أعدادٍ هائلة من الضحايا من غير المُقاتلين .

عامّةُ المصادر تُمثّلُ عليّاً شخصاً انتهازيّاً مُحتالاً مُتقلّباً بطّاشاً ، لا يتورّعُ عن ارتكاب أعنف ألوان القسوة في سبيل أطماعه . وذلك أمرٌ مُتوقّعٌ منها نحو رجلٍ اخترق أكثرَ من حُرْم . اخترقَ حُرْم السُلطةِ والطبقةِ المُلتحقةِ والمُنتفعةِ بها . واخترق حُرْم المجتمع ، الذي ينظر إلى العبد المملوك بوصفهِ مخلوقاً ناقصَ الإنسانيّة ، محروماً من كافة الحقوق ، يُصرّفُهُ مالكُهُ كيف يشاء ، دون أن يكونَ له أدنى حقّ في الاعتراض أو الشكوى . ومن المعلوم أنّ أربابَ تلك المصادر ، خصوصاً المُؤرخون الرّسميّون ، هم إجمالاً مُلتحقون

بالإثنين . مُلتحقون بالسُلطة بل لسانُها النّاطق الذي يُبرّرُ لها ويلمّعُ صورتَها ويُرذّلُ خصومَها . ومُلتحقون بالمُجتمع ومنظومته الفكريّة والأخلاقيّة ، بل هم منه في الصميم .

(6)

في مُقابل هذه الصورة التي تقولُها المصادرُ ، فإنّ استنطاقَ سيرتِه ، كما نقرأُها في أعمالِه وشِعرِه ، يُودِعُ في أذهاننِا صورةً مختلفةً له . فهو علويُّ النّسَب حقّاً كما رجّحنا قبل قليل، ولم يكُن دعيّاً كما قيل . كما أنّه كان يتحلّى بثقافةٍ ممتازة وتمكُّنٍ من اللغة ، بحسب ما وصلنا من شِعرِه . بالإضافةِ إلى أنّه كان خطيباً مُؤثّراً . ولطالما كان لمقدرتِهِ الخطابيّة أثرها في ضبْطِ وتوجيه سُلوك أولئك العبيد المساكين الذين حملَ على كاهله عِبءَ قضيتهم العادلة . وهم المُعبّأون بغضبٍ مُزمن نتيجةَ الظلم البالغ الشّناعة الذي خضعوا له طويلا ، ممّا يجعلُ ضبطَهم وتوجيهَهم أمراً في غاية الصعوبة ، يقتضي مقدرةً قياديّةً وحكمةً وبُعدَ نظر . كما أنّه كان يُفكّر بهدوءٍ ورويّة في المُلمّات ، ويُحسِنُ حسابَ وتوقيتَ حركاتِه ، ويضعُ الأُمورَ في مواضِعِها . ولولا ذلك لَما نجح في مُقاومة قُوّة الدولة تلك المُدّة الطويلة . وسواءٌ نظرنا إليه باعتباره ثائراً وجدَ قضيّة ، أم قضيّةً حظيت بثائرٍ يتولّى قِيادَها ، فإنّ الثابت موضوعيّاً أنّه تعاطف مع ما يُمثّله أُولئك الأقنان من قضيّةٍ عادلة ، أو ـ على الأقلّ ـ أدرك القوّةَ الكامنةَ في قضيّتهم فحملها وسار بها حتى النهاية . وعلى كل حال فإنّه نجح في أن يجعل منها حركةَ احتجاجٍ عنيفةً ، بل أعنف الثورات التي ناصبت الدولةَ العبّاسيّة .

والحقيقةُ المَسكوتُ عنها لدى أشباه المُؤرخين ، أنّ الحركةَ التي أثارها

علي بن محمد كانت أولَ ثورةٍ قامت على قاعدة الوضع السياسي الاجتماعي المعاشي البائس الذي وسم الخلافةَ العبّاسيّة في زمانِه . حقاً أنّها هُزمت في النهاية وقُتل بطلُها ، ولكنّها كانت بمثابة البادئ والفاتحة لسلسلةٍ من الثورات المُشابهة التي نهضت في القرنين الثالث والرابع ، مثل حركة القرامطة في جنوب "العراق" ، التي حملت قضيّةَ الفلاحين البؤساء ، الذين كانوا خاضعين لظلمٍ اجتماعيٍّ قاسٍ لايقلُّ سوءً بكثير عن قضيّةِ الزُّنج . وثورة الصّفّارين ، أتباع يعقوب بن ليث الصّفّار (ت : 265 هـ / 879 م) ، التي بدأت في بلاد فارس : "نيسابور" و "سجستان" و "هراة" ، "طبرستان" ، إلى أن بلغت "**جُدران بغداد**" [14]. ولكنّها انتهتْ صُلحاً في "العراق" ، لتتفرّغَ الدولةُ من بعدُ لحرب ثورة الزنج .

(7)

نختمُ هذا التقييم لشخصيّةِ وثورةِ عليّ بالقول أنّه كان إلى جانب كلِّ ماقُلناه رجلَ دولةٍ من طرازٍ رفيع . فهو على الرُغم من أنّه عملَ وسطَ حالةِ حربٍ شبهِ دائمة ، فإنّه بنى مدينتين هما "المُختارة"، التي جعلها بمثابة عاصمةٍ له ، و"المُوفقيّة" . ازدهرتا بفضل المزارع الواسعة التي كانت تُحيطُ بهما وبأيدي السُكان من الزنج ، وبالمبادلات التجاريّة بالبضائع والمؤن التي تحملُها قوافلُ البدو والتجّار بالسُّفُن . وكان في "المُختارة" ثلاثة أسواقٍ كُبرى : "المُباركَة" و "الميمونة" و "سُوق الغنم" . وفي سبيل تنظيم هذه الحركة السياسيّة والإنتاجيّة دوّنَ الدواوين ، وفرضَ الضرائب ، وأنشأ بيتاً للمال ، وضربَ نقدَهُ الخاص . ومامن شكٍّ في أنّ الزنجَ قد خبروا في هاتين المدينتيَن لأوّل مرّةٍ حياةً مهما تكُن قصيرة ، ولكنّها كانت مُختلفةً كثيراً عن الوضع الزّريّ الذي كانوا فيه .

في نهاية المطاف وصل عليّ بن محمد وثورتُهُ الهائلة إلى النهاية التي كان لا بُدّ أن يصِلا إليها . فقُتِل وهو يُدافعُ عن عاصمته "المُختارة" بتاريخ 3 صفر 270 هـ / 11 آب ، أُغسطس 883 ، بعد أن صمدتْ وصمدَ هو فيها ثلاث سنوات .

---

4 ــ شِعرُه

لسنا نقعُ في كلِّ ما وصلنا من أخبار(صاحب الزّنج) على أنّ شِعرَهُ قد جُمعَ في ديوان ، شأنَ غيرِهِ من الشُّعراء المُجيدين . مع أنّ القيرواني يقول أنّ لعليّ بن محمد شِعراً كثيراً ناقضه البغداديّون [15]، ممّا يدلُّ على أنّ شِعرَه كان مُنتشراً ذائعاً بينهم .

والسَببُ في ذلك في غير حاجةٍ إلى كبير تأمُّلٍ وإعمالِ نظرٍ ممّن قرأ سيرة حياتِه . فصاحبُهُ عند الدولة ورجالِها والمُنتفعين بنعمتِها هو الذي أفقدها هناءَةَ الحُكم المُستَتَبّ وما يمنحُهُ من عِيشَةٍ راضية . فكان منها أن حاربتهُ حرباً لاهوادةَ فيها. ثم كان من الطبيعيّ أن تُكملَ حربَها عليه بأن تُعفّي على أثره وتقتلَهُ معنويّاً ، بعدَ أن قتلتهُ عمليّاً ، ليكون في الحالتيَن عبرةً لمَن بعتبر. ومن ذلك أن تعملَ بأيدي أعوانِها وألسنتِها كلَّ ما بوسعِها ليُنسى شِعرُهُ ، الذي أودعهُ فكرَهُ وحوافزَهُ ومقاصدَه . وأمّا عامّةُ الناس فما منهم إلا خاسِرٌ بالثورةِ التي قادها : مالكوا الأراضي ، بما عليها من عبيد ، خسروا مصدرَ ربحهم الوفير الذي كان مبنيّاً على تسخير أعدادٍ تفوقُ الحصْر من العبيد في إستصلاح الأرضين وزراعتِها ، في مُقابل الغذاء التّافه الذي كانوا يُعطونَهم إيّاه . وساكنوا المُدُن والقُرى التي اصطلتْ بنار الحرب سقطتْ منهم أعدادٌ لا تُحصى بين قتيلٍ وجريحٍ وأسير . وحتى التي نجتْ من ويلات الحربِ المُباشِرةِ عانتْ من نقص الأقوات والسّلع بسبب شلل الزراعة والتجارة . وكلُّ ذلك حُمّلَ وِزرَه الثائرون قادةً وزُنجاً ، وسجّله الشُعراءُ فيما نظموه من قصائدَ في هجاءِ قائد الثورة ، ووصْفِ ما أنزلِه بهم ، وفرحهِم بمقتلِه إلى ما هنالك [16] . وما رأيتُ أحداً منهم أتى على ذكرِ سُوءَ الحالةِ الاجتماعيّة وما كان أولئك العبيد يُقاسونه ، ممّا كان سببَ ثورتهم .

لا نستثني من هذا التجاهُل لسيرة الرجل ولشعره إلا ، فيما يخصُّ سيرته ، ما يُذكَرُ في الترجمة لأحمد بن إبراهيم العمّي (ت : 350 هـ / 961م) أنّه صنّف كتاباً سمّاه (أخبار صاحب الزنج بالبصرة) [17]. وفيما يخصُّ شعره ما يُوردهُ منه ابن كثير عماد الدين إسماعيل في كتابِهِ (ذيلُ زُهْر الآداب أو جمْع الجواهر في المِلَحِ والنوادر) [18]، وهو مصدرُنا الأوّلُ لشعره. وابنَ أبي الحديد المُعتزلي في شرحه على نهج البلاغة ، الذي أشارَ إشارةً سريعة إلى شِعره ، وصفه فيه بأنّه " **كان حسنَ الشِعر ، مطبوعاً عليه ، فصيح اللهجة** " . ثم أوردَ له بضعَ أبيات [19]. والصفدي الذي أورد له بضع مقطوعات في الترجمة التي علّقها له في الجزء العشرين من كتابِه (الوافي بالوفيات) . بالإضافة إلى البيت والبيتيَن اللذين قد يعثرُ عليهما الباحث هنا وهناك . ممّا لا يُتّكَلُ عليه .

بيدَ أنّ ما وصلنا من شعره ، وإن يكُن قليلاً بالنسبةِ إلى ما نتصوّرُهُ من مُجمَلـه ، استناداً إلى نصّ القيرواني الذي اقتبسناه قبل قليل ، لشهادةٌ لا تُردُّ ولا تُدحَضُ على أنّه كان شاعراً فحلاً . يُحسِنُ التعبيرَ عن دخيلة نفسِه بصدقٍ وقُوّة ، وإنْ يكُنْ يبدو قصيرَ الباع في الوصف . ومن هنا فإنّنا نرى في شِعره مرآةً لنفسِه ، بحيث أنّنا نقرأُهُ هو من خِلاله قراءةً وافيةً ، ونطّلعُ على هواجسِه ومُحرّكاتِهِ وتطلُّعاتِه ومراميهِ استناداً إلى ما نعرفُهُ من شعرِه . وهذا أمرٌ جيّدٌ جدّاً لإنسانٍ كانت سيرتُهُ موضعَ عملٍ حثيثٍ ، سعى بكلّ وسيلةٍ إلى تشويه صُورتِهِ . فيأتي شعرُهُ ليُقدّمَ لنا صورةً أقرب إلى الحقيقة .

والحديثُ عن شاعريّتِهِ يطرحُ سؤالاً على مصادر ثقافتِهِ الشعريّةِ . ذلك أنّنا في زمانه ، نكونُ قد خلّفنا وراءنا الوقتَ الذي كان فيه الشاعرُ يستقي ثقافتَه الشعريّة دون جُهدٍ من المُحيط . يومَ كانت لغةُ الناس ولُغةُ الشعر واحدةً

قبل أن تفقدَ اللغةُ براءتَها ونقاءَها بالاختلاط بالأعاجم . بحيثُ أصبح الشع رُ ولغتُهُ بُنيةً فوقيّةً تُكتسَبُ اكتساباً بالتعلُّم . نقولُ هذا على سبيلِ تسويغِ السؤال عن مصدرِ أو مصادر ثقافته .

والحقيقةُ أنّنا لا نجِدُ في كلِّ ما بيدِنا من مصادر أدنى ذكرٍ لأنّه قد تلقّى تعليماً مُنظّماً أو شبه مُنظّم ، أو أنّه أخذ عن أحدٍ من أهل الأدب والرواية ومَن إليهم . ولكنّنا عرفنا فيما علّقناه على سيرتِه ، أنّه قد تعاطى التعليمَ مهنةً في مُقتبَل حياتِــه . ممّا يسمحُ لنا ، أو بالأحرى يُلزمنا، بالافتراض أنّه قد تلقّى تعليماً أو تعلُّماً ما من قبل . كما أنّنا عرفنا هناك أنّه كان خطيباً مُؤثّراً ، بالإضافةِ إلى أنّنا نجِدُ في شعره ما يدلُّ على أنّهُ كان على معرفةٍ جيّدةٍ بالمذاهبِ والفِرَقِ الدينيّةِ وأقوالِها . فهذا كلُّهُ يدلُّ على أنّهُ كان ذا مُستوىً ثقافيٍّ جيّدٍ . دون أن يعني ذلك بالضرورة أنّه قد تلقّى تعليماً مُنظّماً على أساتذةٍ ومُعلّمين . بل إنّهُ يتركُ البابَ مفتوحاً لاحتمال أن يكون الرجلُ عصاميّاً ، بمعنى أنّه بنى نفسَه بنفسِه . وإنّ رجلاً من معدِنِهِ ، تصميماً وقوّةَ نفسٍ وتطلُّعــاً إلى معالي الأُمور ، لا يُستبعَدُ عليه ذلك .

مهما يكُنْ فإنّ عليّاً طوّعَ شِعرَهُ لذاتِه وأفكاره ومشروعه : عبّرَ فيه عن اعتزازه بنفسِه ونسبِه شخصاً ، وعن عقيدتِهِ الدينيّة ، وعن اتجاهِه السياسي غضباً لِما يجري في قصور الأكابر في "بغداد" من صنوف الفسق والفجور، فضلاً عن خِوَرِ الدولة وعجزِها وبلادتِها أزاء تسلُّط العسكريين التُّرك على مُقدّرات السُلطة ، وبالتالي عن ثورته . التي وإن اتخذ لها عنواناً الظلم الاجتماعي الشّنيع والمُزمن اللاحق بالزنج ، فإنّما لأنّه الأُنموذجُ الأكثر وحشيّةً ، وإلا فإنّها (أي ثورتُهُ) ترمي إلى ماهو أبعدُ من ذلك بكثير ممّا أشرنا إليه .

استناداً إلى ما بين أيدينا من شِعره ، فإنّ من المُمكن قسمةُ الموضوعات التي نظم فيها تحت أربعة عناوين رئيسة :

ــ الأوّل : ما صوّرَ فيه رؤيتَه لنفسِه ، وكأنّه يُجيبُ على تساؤلٍ يطرحهُ هو : مَن أنا ، ومَن أكون ؟

فلنسمعهُ يُنشد :

ينثني الصّارمُ المُهنّدُ والـرُّمــ حُ الــرُّديـنـيُّ والشُّـجاعُ الجَريُّ
حيـــثُ لا أنـثَـنـــي ولا يتَثَنّـــى بيـــدي صـــــارمٌ ولا ســمْهَـريُّ
مَـــن رآنـي فقـد رأى مَشْــرفيّـاً ماضيــــاً فـي يمينِــهِ مَشْــرفِــيُّ
شـأنيَ الفـارسَ المُدجّجَ في النّقــ ـعِ إذا نــازلَ الكَمـــيَّ الكَمـــيُّ [20]

ما تُغطّي عســاكرُ الليلِ منّي ما تُجَلّـي مضاحِكُ الصُّبحِ عنّـــي
جسم سيفٍ فـي جوفِ غمد ثيابٍ
صـدرُ إنـــسٍ مــن تحـتِــهِ قـلـبُ جِـنّـــي
ميّتُ حِـسٍّ وحــيُّ نفسٍ كمـــا الشــــــمس يُرى مشْيُها بعيـن التّظَنّـــي

كيف لا تزهـــــقُ النّفوسُ لشخصـــي
حـيـنَ أغشــى الـوغــى وجَـــدّي علـيُّ
ذو التُّقــى والنّبيلُ وذو العلم والحلـــــمِ ومـن خيـــر طينـةٍ والــوصــيُّ
والـذي قـالَ إنّـهُ اليـومَ منّـــــي مثل هارون مـن أخيـهِ النّبــيُّ

ــ الثاني : حوافزُه للثورة (وهو هنا يُخاطبُ العبّاسيين) :

بني عمّنـا لا تُوقِـدوا نـارَ فِتنـةٍ بطـيءٌ علـى مَـرِّ الزمانِ خُمُودُها

بني عمّنـا إنّـا وأنــتم أنــامِـلٌ تضمّنَهـا مـن راحتيهـا عُقُــودُهـا
بني عمّنـا وَلّيـتُمُ التُّـركَ أمـرَنا ونـحـنُ قديمـاً أصلُهـا وعمودُهـا
فمـا بالُ عُجْـم التُّـرْكِ تقسـمُ فيئنـــا
ونحـنُ لـديها فـي البلاد شُـهودُها

متـى أرى الـدنيـا بِـــلا مُجْبِر ولا حَــــروريٍّ ولا نـــاصِـــبِ
مـتـى أرى السّيفَ دليـلاً علــى حُـبِّ علـي بـن أبـي طالــــبِ

لهـفَ نفسي على قصـورٍ ببغـدا دَ ومـا قـد حوتْـهُ من كلّ عاصي
وخُمُـورٍ هنــاك تُشـربُ جهْـراً ورجـــالٍ علـى المعاصي حِـ ـــراصِ
لستُ بـابن الفواطِـمِ الغُر إن لم أُجِلْ الخيـــلَ عنـدَ تلك العـــرِاصِ
ــ الثالث : مقاصِدُهُ ومَراميه :
سأبغي العُلى بالبِيضِ والسُّمْرِ جاهِداً فعَجْزُ الفتى عن مَطْلَبِ الرزق قاطعُه
إذا المَرءُ لم يحفَظ من الذُّلِّ عِرْضَهُ فلا الســيفُ مُغنيـهِ ولا الرُّمحُ نـافعُـه
وهل يتّقي اللّيثُ الهَصورُ إذا ونـــى عـــن الصّيْدِ والجُوعِ المُعَفَـر جانبُـه

رأيتُ المَقامَ علـــــى الإقتصــاد قُنوعاً بـهِ ذِلّـــــةً للعِبـــاد
وفي الإضطرابِ وفي الاغتراب مَنــالَ المُنـى وبُلـوغَ المُراد
إذا النّــارُ ضـاقَ بهــا زِنــدُها ففسـحتُهـا في فِـراق الزّناد

ــ الرابع : العُنفُ الثّوري :
أما والـــذي أسـرى إلى رُكن بيته حراجـيجَ بالـرُّكبانِ مقـورةً حُدبــــا

لأدّرِعَنّ الحربَ حتى يُقالَ لـــي قضيتَ ذمامَ الحربِ فاهتجر الحربــا

قلبي نظيرُ الجبلِ الصّعبِ وهمّتي أكبرُ مـن قلبـــي
فاســتخِرِ اللهَ وخُــذْ مُرهَفاً وافتِكْ بأهلِ الشّرقِ والغربِ
ولا تَمُتْ إنْ حضرَتْ ميتَةٌ حتى تُميتَ السيفَ بالضّرْب

أحلِفُ بالقَتلِ وبالــذّبـــحِ مُجــانِباً للعفـــوِ والصّفـحِ
لاعــاينَتْ عينيَ أحـلامَكُم إلاّ أميـــراً أو علــى رُمـــحِ

هوامش الفصل

١ . ابن الأثير : الكامل : 7 / 139 والطبري : تاريخ ، ط. دار المعارف بمصر ، لات. : 9 / 410 .

2 . معجم البلدان : 5 / 371 .

3 . الطبري : تاريخ : 9 / 410 .

4 . البيروني : الآثار الباقية من القرون الخالية ، ط. لايبزك 1878 / 232 وابن حوقل : صورة الأرض ، ط. ليدن 1938 : 1 / 227 .

5 . فيصل السامر : ثورة الزُنج ، ط. بيروت 1971 / 24 .

6 . ابن الأثير : 4 / 188 و 5 / 167 .

7 . عُمدة الطالِب / 355 .

8 . ابن الجوزي : المُنتظم في أخبار الأُمَم ، ط. حيدر آباد الدّكَن 1357هـ : 5 / 69 و ابن تغري بردي : النجوم الزّاهرة في مُلوك مصر والقاهرة ، ط. القاهرة 1930 ـ 1940 :3 / 48 .

9 . الطبري : 9 / 410 .

10 . عُمدة الطالب / 355 . وغريبٌ حقّاً أن لا أحدَ ممّن اعتنى بسيرةِ الرجل قد وقف على هذه النصوص الهامة أو أتى على ذكرها .

11 . ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة : 8 / 311 .

12 . الطبري : 9 / 410 .

13 . نفسه .

14 . ابن الأثير : 7 / 115 .

15 . زهر الآداب : 1 / 288 .

16 . انظر ـ مثلاً ـ ديوان ابن الرومي ففيه غير قصيدةٍ في وصف "انتهاك محارم الإسلام" وما رمى الناسَ "عبيدُهُم باصطلام" .... الخ. وغيره ممّن عبّروا عن فرحهم بانتصار الخلافة ، ومدْحِ اخي الخليفة المُوفّق على نصْره الدين وردّه إلى الخلافة كرامتها . وهو كثيرٌ في شِعر ذلك الأوان . (ثورة الزنج / 178 و 180 و 186) .

17 . انظر الترجمة له في كتابنا (أعلام الشيعة) .

18. انظر الفصل التالي : مُنتخبات من شِعره .

19 . شرح نهج البلاغة : 8 / 311 .

20 . انظر سندَ هذه الأبيات وكلَّ ما سنتمثل به من شعره حتى نهاية الفصل في الفصل التالي .

مُنتخباتٌ من شعرِه

سأغسِلُ عنّي العارَ بالسيف جالباً   عليّ قضـاءَ الله ما كـان جالِبـا
وأذهَلُ عن داري وأجعلُ نـهبَهـا   لعِرضـيَ من باقـي المَذَلّة حالبـا
فإنْ تهدِموا بالغـدرِ داري فإنّهـا   تـراثٌ كريمٌ لا يُـبالي العواقِبـا
إذا هَمَ ألقـى بين عينيه عزْمَـهُ   ونكّبَ عن ذِكرِ العـواقب جانِبـا
ولم يستشِـرْ في رأيـهِ غـيرَ نفسِـهِ   ولم يرضَ إلا قائِمَ السيفِ صاحبا [1]

أسمِعاني الصّيـاحَ بالإمليـسِ   وصيـاحَ العيـرانـةِ العيطمـوسِ
واترُكاني من قَـرْعِ مَزْهَـرِ ريّـا   واختلافِ الكُؤوس بالخندريـسِ
ليس تُبنى العُـلى بذاك وهـذا   لكنِ الضّرب عندَ أزمِ الضُّروسِ
عيّفـتْ تلكـمُ اللُّباناتِ نفسـي   وسَمَتْ نحوَ غيرِ ذاك حُدُوسي
وخلا من هواجِسِ النّاي قلبـي   كخُلُوّ الطُّلـولِ بعـدَ الأنيـسِ
واسبطـرّتْ حمالِقُ القومِ للمـو   تِ وصارت نفوسُهم في الرؤوس
رُبّ سِيدٍ يحمي الخميسَ بعضْبٍ   ويُجلّـي الظـلامَ ليلَ الخميسِ
عمّمَتْهُ يمْنـى يـديَّ بعضْبٍ   تـركَتْ جنْبَـهُ كجَنْبِ العروسِ
تُخبـرَنكَ الكُمـاةُ عن غـدَواتـي   في غَـداةِ الوغى أبا قابـوسِ
فسلوا عـامِراً وعـارضَ لمّـا   أنْ لقـوا بالفُجـورِ والتّدليـسِ
أتـرونـي أقِـرُّ بالنّـومِ غَمْضاً   ياعبيـدَ الصّليـبِ والنّاقوسِ [2]

وعزيمتي مثلُ الحسـامِ وهمّتي   نفسـي أصولُ بها كنفسِ القِسْوَرِ
وإذا تُنـازعُـني أقولُ لها قِـري   مـوتٌ يُريحُكِ أو صُعودُ المِنبَرِ

ما قد قُضــي ســيكونُ فاصطبري لهُ
ولـكِ الأمـــانُ مـن الـذي لـم يُقدَرِ [3]

سأبغي العُلى بالبِيضِ والسُّمْرِ جاهِداً فعَجْزُ الفتى عن مَطْلَبِ الرزق قاطعُه
إذا المَرءُ لم يحفَظ من الذُّلِّ عِرْضَـهُ فلا الســيفُ مُغنيـهِ ولا الرُّمحُ نـافعُـه
وهل يتّقي اللّيثُ الهَصورُ إذا ونـــى عـن الصّيْدِ والجُوعِ المُعَفَر جانبُه [4]

ينثني الصّارمُ المُهنّدُ والـــرُّمــــــ حُ الـرُّديـنيُّ والشُّجاعُ الجَريُّ
حيـثُ لا أنـثَـنـــي ولا يتَثَنّـــى بيـــدي صـــــارمٌ ولا ســمْهَريُّ
مَن رآنـي فقـد رأى مَشْــرفيّـاً ماضيـــاً فـي يمينِـهِ مَشْــرفِــيُّ
شـأنيَ الفارسَ المُدجّجَ في النّقـ ـعِ إذا نـازلَ الكَمـيَّ الكَمــــيُّ
ورأيــتُ القضاءَ أضيـقَ ما يُسـ ـعى بـه حتـى كـأنّـــهُ مَطْـــويُّ
يـاابنَةَ العَـمِّ أوقدي النارَ في اللّيـــــــلِ فإنّـــي لـكُـــلِّ آتٍ أتِـــــيُّ
أكـرمـي الضيفَ مااسـتطعتِ لأنّـــي
مَطْعَمـــي حاضِـــرٌ وكـــأسـي رَوِيُّ
كيف لا تزهـــقُ النّفوسُ لشخصـي
حيـنَ أغشـى الوغـى وجَـدّي علــيُّ
ذو التُّقـى والنّبيلُ وذو العلم والحلــمِ ومـن خيـر طينـةٍ والــوصـيُّ
والـذي قـالَ إنّـهُ اليـومَ منّـــي مثل هارون مـن أخيـهِ النّبيُّ [5]

قلبي نظيرُ الجبلِ الصّعبِ وهمّتي أكبرُ مـن قلبــي
فاســتخِرِ اللهَ وخُـذْ مُرهَفاً وافتِكْ بـأهلِ الشّرقِ والغربِ

ولا تَمُتْ إنْ حضَرَتْ ميتَةٌ حتى تُميتَ السيفَ بالضّرْبِ (6)

أما والــذي أسـرى إلى رُكن بيته حراجـيجَ بالـرُّكبانِ مقـورةً حُدبـــا
لأدّرِعَنّ الحربَ حتى يُقالَ لـــي قضيتَ ذمامَ الحربِ فاهتجرالحربا (7)

ببِيضِ الصِّفاحِ وسُــمرِ الرّماح طلبتُ العُلى وعلـوتُ ال ـرُّتَــبْ
وإنّـيَ كالشّـمس بـي يُهتَـــدى إذا غطّتْ الشمسَ سُودُ السُّحُبْ (8)

لا تضعُفَنّ إذا طلبــتَ جلالَــةً حتـــى تُجـاوزَ موكبَ الجـوزاءِ
فلئنْ هلكتَ دُعيتَ غيرَ مُقصّرٍ ولئنْ حُييتَ غدوتَ في الشُّجعاءِ (9)

أحلِفُ بالقَتلِ وبالـذّبـــحِ مُجـانِباً للعفـــوِ والصّفـحِ
لا عـاينَتْ عينيَ أحـلامَكُم إلاّ أميـــراً أو على رُمـــحِ (10)

رأيتُ المَقامَ علـــى الإقتصـاد قُنوعاً بـهِ ذِلّـــــةٌ للعِبـاد
وفي الإضطرابِ وفي الاغتراب مَنــالَ المُنى وبُلـوغَ المُراد
إذا النّــارُ ضـاقَ بهـا زِنــدُها ففسـحتُهـا في فِـراق الزّناد
إذا صـارمٌ قَـــــرّ فـــي غِـمْدهِ
حوى غيرُهُ السَّبْقَ يومَ الجِلاد(11)

أورقـتْ في أوانِهـا الأشــــجارُ وتهــــادَتْ في وكرها الأطيارُ
ومقـامُ الفتـــى على النّقصِ لُؤمٌ وأخـــو الـــذُّلّ مُعجِلٌ مِسـيارُ

جـــرّدْ المَشـرفيَّ وارحل كريمـاً فالتّـوانـي مَـذَلّـــــةٌ وصـغـــارُ
لا ينـالُ الضّعـيفُ بالضّعفِ غُنمْـــاً
إنّـمـــا يغنــــــمُ الفتـى السّـيّارُ
هي نفـسٌ إمـّــا تأوبُ بهُـلْـكٍ أو بمُلكٍ وليس في الهُلك عارُ(12)

كـم قـد نماني مـن رئيسٍ قسْورٍ دامـي الأناملِ من خميسٍ مُمطِرِ
خُلقت أناملُــهُ لقــائمِ مُرهَـــفٍ ولـدفْعِ مُعضِلَـةٍ وذروةِ منبــــــرِ
ما أن يُـريدُ إذا الرّمـاح شـجرْنَهُ درعاًسوى سربالِ طِيبِ العنصُرِ
يلقى السّيوفَ بنحْره وبوجهــــهِ ويُقيمُ هامَتَـهُ مقــامَ المغفَــــرِ
ويقـولُ للطّرْفِ اصطبِـرْ لشــبا القنّـا
فعقرتُ طـرفَ المجــدِ إنْ لم تعقـــرِ
وإذا تـأمّلَ شخصَ ضيفٍ مُقبِلٍ مُتسربِلٍ سِـــربالَ ليـلٍ أغبـــرِ
أومى إلـى الكومـاء هـذا طارقٌ نحرتْنِـيَ الأعداءُ إن لم تنحري (13)

الـــموتُ يعلمُ لـــــــو بـــدا لـي خَلقُـــهُ ما هِبْـتُ خَلقَـــــه
والسّــــيفُ يعلـمُ أنّنــــــــي أُعطيـهِ يــــومَ الرَّوْع حـقَّـــــه
وإذا اشــــــتكى ســــغباً إلـيـــــــــــيَ جعلــتُ هـامَ الصِّيـدِ رزقَـه
ومُــــــدَجّــجٍ هــابَ الكمـــــاةُ نــــــــــزالَـــه فضـربــتُ عُـنقَـــه
وقبِلْـــــتُ ما أوصــــى بـــــهِ جَـــــدّي أبـــي وسلكتُ طُرْقَـه
وعلمــــــتُ أنّ المجـــــد ليــــــس يُنـــــالُ إلا بالمشـــقــّة(14)

أيـا طائرَ السُّـمّانِ ما لكَ مُفرَداً تأسّيتَ بـي أم عاقَ إلفَكَ عائـقُ

عُـدمْـتُ عِـتـاقَ الخيلِ إنْ لم أزُرْ بهــا
عليهــا الكُمــاةُ الدّارعـونَ البطـــــارقُ
عـليهــا رجالٌ مـن تميمٍ وقصرها كُليبُ بـن يُربـوعٍ الكرامُ المَصادقُ
وجثوثُهـا سَــعدٌ وفـــي جنباتِها نميرٌ وبيـضٌ من كلابٍ عــواتِقُ
وإنْ لــم أُصبّــح عامـراً ومُحارِباً بخِطّــةِ خَسْـفٍ أو تعُقني العوائقُ
أيحسبُني العُربـانُ أنسـى فوارسي غداةَ نـزال الدّوم والموتُ عالِقُ (15)

هـاجَ التّذكُّـرُ للفؤاد سُـــــقاما ونفـى المَنـامَ فمـا أحـسُّ مناما
منـعَ الرُّقاد جفون عيني عصبةٌ قُتـلوا بمُنعَـرَج الحجون كراما (16)

ما تُغطّي عســاكرُ الليلِ منّي ما تُجَلّـي مضاحِكُ الصُّبحِ عنّـــي
جسم سيفٍ فـي جوفِ غمد ثيابٍ
صـدرُ إنـــسٍ مــن تحتِـهِ قـلـبُ جِـنّـــي
ميّتُ حِـسٍّ وحــيُّ نفسٍ كمــا الشـــــــمس يُرى مشْيُها بعيـن التّظَنّــي
شُـمَّـرِيٌّ إذا اسـتقلّ بعَــــــزمٍ لـم يُعَـرِّج بليتنــــي ولــو انّــــي
مــا ينــالُ الكـرى سُــويداهُ إلا حَســـــوَةَ الطـائرِ الذي لا يُثَنّــي
إنْ رمــــاهُ خطـبٌ قرَى الخطبَ رأيٌ
فيــــــه رَوْعُ النّجـــــــا وحُكـــمُ التّأنّي
كــــم ظلامٌ جعلتُـهُ طيلســـــاني صـاحبي همّتي وقلبـي مِـجَـنّــي
كــــم حِبالٌ قطعـتُ في وَصْلِ أخــرى
تــــــارِكـاً ما أخـــافُ مـــن سُوءِ ظنّــي
مُســتَخِـفٌّ بِـذا وذاك وهـــذا لـم أُســـمّـعْ ندامتـــي قرعَ سِنّي

أنــــا روضُ الرّبيع في كلِّ زهرٍ فيلسـوفُ الزمـان في كـل فـــنِّ (17)

*****

أهـلُ النّبيِّ الـذي لولا هدايتُهُ لم يُـهْـدَ خلقٌ إلى فَرضٍ ولا سُنَنِ
مُشتّتين حيـارى لانصيرَ لهــم مُشـرّدين عــن الأهليـن والـوطـنِ
فـي كلّ يـومٍ أرى فــي وسْـط دارهــمُ
بالسِّـــلّةِ البِيضِ والـهـنـديّـــــةِ اللّـدنِ
هذا بـأنّ رســـولَ الله جـدّهــمُ أوصــى بحفظِهِـمُ في السّـــرّ والعلـنِ
جاؤا بقتـــلَ علـــيٍّ وسطَ قِبلتهِ ظُلمــاً وثنّـوا بسُـــمٍّ ابنِـهِ الحســـــنِ
وأشـهروا ـ ويلهم ـ رأس الحسين على
رُمـحٍ يُطـافُ بـه فــي سـائِرِ المُـــدُنِ (18)

متــى أرى الـدنيــا بِـــلا مُجْبِر ولا حَـــــروريٍّ ولا نـــاصِـــبِ
مـتــى أرى السّيفَ دليـلاً علــى حُـبِّ علي بـن أبـي طالـبِ (19)

وفــــــي كـلِّ أرضٍ أو بكـــلِّ محلّةٍ أخــو غُربَــةٍ منّا يُكابِـــدُ مطمَعا
كــأنّـــا خُلقنــــا للنّـــوى وكــأنّمــا حرامٌ علــى الأيّامِ أن نتجمّعا (20)

لقـــــد علِمَـــتْ هاشــمٌ أنّنـــا صِبــاحُ الوُجوهِ غــداةَ الصّيــاح
وأنّــا إذا زعـزعتنـــا الــوغـــى ذيــولُ الرياح ذُبـــولُ الـرّمـــاح
نســوقُ السّيوفَ بدَفْـعِ الحُتوف ونُنكـي الجِــراحَ بـكـفِّ الجِـراح
ونســمو سَــماحاً أكُـفّ السّماح بقسْــمِ رمــــاحٍ وبِيـضٍ صِفــاح
وقَـــرْمٍ صبحنـــــاهُ فـــي دارِهِ بكُـــلِّ أقَـــبٍّ ونهـــدٍ وِقــــــاح

فغُـودِرَ بعـدَ عِـنـاق المِــلاح ضجيعَ النّجيعِ مـراح الجـــراح
كليل الأنيـن مُـــذال الجبيـــن مَهيـن السّلاحِ مَهيضَ الجنـاح
صلــى نُورَ عيني بنَـور الأقاح وراح الأكُـــفّ بمـــــــاءٍ وراح
فمــا طُـولُ عشـقي مِزاحَ المِلاح بمُشـتَغلٍ عن صياحِ الصّباح (21)

بني عمّنـا لا تُوقِـدوا نـارَ فِتنـةٍ بطـئٌ علـى مَـرِّ الزمـانِ خُمُودُها
بني عمّنــا إنّــا وأنــتم أنــامِـلٌ تضمّنَهـا مـن راحتيهـا عُقُـودُهـا
بني عمّنـا وَلّيتُمُ التُّـركَ أمـرَنا ونـحـنُ قديمـاً أصلُهـا وعمودُهـا
فمــا بالُ عُجْـم التُّــرْكِ تقسـمُ فيئنـــا
ونــحــنُ لـديهــــا فـي البــلاد شُــهودُها
فأُقسِــــمُ لا ذُقــتُ القُــراحَ وإنْ أذُ ق
فبُلغَـةُ عيـشٍ أو يُـبَـــادُ عـميـدُهــا (22)

لهـفَ نفسي على قصـورٍ ببغـدا دَ ومــا قـد حوتْـهُ من كلّ عاصي
وخُمُـورٍ هنــاك تُشــربُ جهْـراً ورجــالٍ علـى المعاصي حِراصِ
لسـتُ بـابن الفواطِـمِ الغُر إن لم أُجِلْ الخيلَ عند تلك العِراصِ(23)

******

ولمّــا تبيّنتُ المنــازلَ بالحمـــى ولـم أقضِ منهـا حاجَةَ المُتـزوّدِ
زفـرتُ إليهــا زفـرةً لـو حشوتُــها سـرابيلَ أبــدانِ الحديدِ المُسـرّدِ
لـذابـتْ حواشـيها وظلّتْ بحرِّهـا تليـنُ كما لانتْ لداوودَ باليدِ (24)

ونظـرةِ عيــــنٍ تعلّلتُهـــــا خِلاساً كمــا نظرَ الأحـولُ

تقسّــمتُهـا بين وجـه الحبيب ووجهِ الرّقيب متـى يغفلُ[25]

إنّ الـذي جعلَ النجـومَ زواهـــراً جعل الخلافةَ فـي الإمامِ الظاهرِ
قـادَ العسـاكرَ مـن بلنجرَ مُسْجِراً بـأتَـــمِّ إقبـالٍ وأيمــنِ طـائِـــرِ
حتـــى أنــــاخَ علــــى الأُبُلّـةِ بعـدما
تــرك البُصـيرةَ كالهشــيمِ الـــدّاثرِ [26]

إنّ الخــلافـةَ لـم تــزَلْ محجوبـةً خمسين عـامـاً تبتغــي أربـابَهــا
تـــدعـــو إلينـا كلَّ عامٍ مــرةً حتى إذا بلـغ الكتـابُ أجابَها [27]

هوامـــشُ الفصـل

1 . الوافي بالوفيات : 20 / 172 .

2 . إبراهيم الحصري: جمع الجواهر في المِلح والنوادر، ط. مصر1953 / 191 ـ 92 .

3 . ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ، ط. بيروت 1964: 3 / 16 .

4 . الإبانة عن سرقات المتنبي / 144 .

5 . يوسف النمري : بهجة المجالس ، ط. مصر 1967 / 476 .

6 . ديوان المعاني / 1 / 108 ـ 109 .

7 . الوافي بالوفيات : 20 / 172 .

8 . الإبانة / 161 ـ 62 .

9 . الإبانة / 170 .

10 . الوافي : 20 / 173 .

11 . شرح نهج البلاغة : 3 / 15 .

12 . الوافي بالوفيات : 20 / 171 .

13 . أحمد الحسني ابن عنبة : عُمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب ، ط. قم 1425هـ / 2004 م / 357 .

14 . عُمدة الطالب / 356 .

15 . المسعودي : التنبيه والاشراف ، ط. بيروت 1965/ 393 . قال هذه الأبيات بعد أن انهزم في البحريَن ، وليست هي الجُزُر المعروفة بهذا الاسم اليوم ، بل المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة . أي قبل أن يبدأ بثورة الزُنج .

16 . الأشعري : مقالات الإسلاميين واختلاف المُصلّين ، ط. فيسبادن 1963 / 80 . والبيتان في رثاء قتلى يوم فخّ .

17 . جمع الجواهر / 190 ـ 91 .

18 . مناقب آل أبي طالب : 2 / 55 و 3 / 203 .

19 . الوافي بالوفيات : 20 / 172 .

20 . الوافي بالوفيات : 20 / 173 .

21 . جمع الجواهر / 19 .

22 . زهر الآداب /: 288 . والخطاب بـ "بني عمِّنا" هو لبني العبّاس .

23 . معجم الشعراء / 148 .

24 . معجم الشعراء / 148 .

25 . الصفدي: الغيث المُنسجم في شرح لاميّة العجم ، ط. مصر 1305 هـ :1/ 86 .

26 . الغيث المُنسجم : 1 / 86 .

27 . الوافي بالوفيات : 20 / 172 .

علي بن عيسى الأربِلي

(ت : 692 هـ / 1292 م)

الشـــاعـر

1 ــ الاسم وإشكاليّاته

علي بن عيسى الأربِلي الهَكّاري الشيباني الكاتب ، لقبه بهاء الدين ، وكُنيتهُ أبو الحسن [1] . وتَكَنّي مَن اسمه علي بـ أبي الحسن بين الشيعة من سِماتهم المُميّزة .

" **الأربلي**" نسبةً إلى " أربِل " ، مدينة عريقة في أقصى شمال "العراق " ما تـزال ، وإن تحوّل اسمُها اليومَ قليلاً فغدا " إربيل " . و "أربِل" هو اسمُها الكردي . أصله بالأشـوريّة " أربا نيلو" = أربعةُ آلهة . وهي الآن مركزُ المُحافظة المعروفة باسمها . تبعدُ عن العاصمة " بغداد " شمالاً 260 كلم تقريباً . إذن فصاحبُنا منسوبٌ بـ " الأربِلي" في مختلف المصادر إلى اسم المدينة الكردي .

" **الهكّاري** " نسبةً إلى "الهَكّاريّة " . وهذه ناحيةٌ وقُرى بجوار مدينة "الموصل" ، فيما كان يُعرفُ بـ الجزيرة الفُراتيّة أو "جزيرة ابن عُمَر" . وهو اسمُها الذي ضاع في غُمار التّتريك ، بعد أن غدا أكثرُها اليوم من الجمهوريّة التركيّة . كان سُكّانُها أكراداً يُعرفون هم أيضاً بـ "الهَكّاريّة" [2] . فمن هنا نُخمّنُ أنّ الرجل كرديّ / هكّاريّ النشأة في الأصل ، وإنْ نحن لم نجِدْ نصّاً صريحاً على ذلك . وإنما لأن لهذه النسبة دلالتُها ، التي لا بدّ من أخذها في الاعتبار ونحن نبحث الإشكاليّات الكامنة في اسمه .

" **الشيباني** " هذه النسبة لا يمكنُ أن تكون إلا إلى "شيبان" القبيلة . وأيضاً لانرى في النسبة إليها إلا أن تكونَ على نحو النَّسَب، مهما يكُنْ بعيداً . لأنّ النسبةَ الأُخرى المُتَصَوّرة ، أي على نحو الولاء ، مُستبعَدَةٌ جدّاً في تلك الأماكن القصيّة التي نعرفُ أنّ صاحبنا قد نشأ فيها . حيث أدّى الاختلاط

السُّكاني المُتدفّق من مُختلف النواحي إلى أنحاء "الجزيرة" إلى أن لا يكون فيها بعد الإسلام قبيلةٌ غالبة مثلما كانت قبل الإسلام ، يصِلُ ضعافُ الناسُ أنفسَهم بها بالولاء طلباً للاحتماء بسطوتها . وعلى كل حال فإن قبيلة بني شيبان لم يكُن لها من الوُجود القويّ هناك ما يجعلُ منها مُستعاذاً لضَعَفَة الناس . إذن فالأرجح أن الرجل شيباني صليبة .

ولا يظنّنّ قارئٌ أن النسبتين ، بين(هكّاري) و(شيباني)، مُتنافيتان لا تجتمعان في شخصٍ واحد ، بل هما مُؤتلفتان لاختلاف المورد . ذلك أنّ "الشيباني" هي للأصل والنِّجار ، بينما " الهَكّاري " لبيئة أو مكان النشـأة . وهذا ومثلُهُ غير نادرٍ في أنساب الناس . بل إنّ لمثل هذا التوالي عند كُتّاب السيرة ترتيبٌ مقصود ، بحيث نستفيدُ منه نحن الباحثين ما يتصلُ بتاريخ المُترجَم لهم. وعلى كلِّ حال فإن من الأكراد ، أو فلنقُل من مَن يُحسبُ منهم ، مَن هو هاشميّ النسب . ممّا يدلُّ على أنّ جزءً من التكوين هناك ثقافيّ / ظرفيّ ، وليس كلَّه أقواميّاً / إثنيّاً .

" **الكاتب**" صفةٌ تُشيرُ إلى عمله كاتباً مُنشئاً في الديوان الخاص ببغداد ، وكان من الوظائف المرموقة في الإدارة المغوليّة في العراق . وسنعود إن شاء الله إلى الكلام على هذا الشأن في محلّه من سيرته .

---

2 ــ عصره

عاش ابنُ عيسى في العراق في الوقت الذي كان فيه البلدُ تحت الحُكم المغولي الإيلخاني (656 ـ 736 هـ / 1258 ـ 1335 م) .

ففي السنة 656 هـ / 1258 م ، أي يوم كان شاعرُنا في أواخر سنيّ الشبيبة كما سوف نعرفُ من سيرته ، سقطت بغدادُ بيد العسكر المغولي بقيادة هولاكو . وتتابع سقوطُ مُدُنه وبلدانه واحدةً تلو الأُخرى ، بعد بضع محاولاتٍ يائسةٍ للمقاومة .

إن المغزى التاريخي في هذا الحَدَث المَهول هو أنّ العراق وبغداد بع د أن كان وكانت رمزَ الوحدة الإسلاميّة ، ومركزَ السُّلطة التي ليس فوقها سُلطة ، وإن نظريّاً ، قد غدا مُجرّدَ عاصمةٍ لولايةٍ صغيرةٍ ضئيلة المساحة نسبيّاً في الدولة الإيلخانيّة المُترامية الأطراف . تُجبى عوائدُها الماليّة إلى تبريز حيث اتخذ هولاكو عاصمته الإقليميّة ، بعد أن كانت الأموالُ تُجبى إليه من أربع أقطار الدنيا .

ما أن استتبّت الأُمور لهولاكو حتى أولى اهتمامه لأُسُس إدارة الأملاك الجديدة لدولته . فعيّن على رأس السُلطة الأمنيّة قائداً مغوليّاً بمنصب الشُّحنة ، وهو بمثابة الحاكم العسكري العامّ ، تحت إمرته قوّاتٌ مغوليّة على استعدادٍ دائمٍ للتدخُل عند الاقتضاء [3] . كما أنشأ ديواناً سمّاه ديوان العراق ، على رأسه مَن يحملُ لقب صاحب الديوان ، وهو بمثابة الحاكم المدنيّ الأعلى أو رئيس الوزراء ، له " **أمرُ مُتحصّلات البلاد ، ودخْلُها وخَرْجُها ، وإليه يرجعُ أمرُ كلُّ ذي قلمٍ ومنصبٍ شرعيّ . وله التصرُّفُ المُطلَقُ في الولاية والعزلِ والعطاء والمنع . لا يُشاورُ السلطان إلا في جَلِّ الأُمور** " [4]. تحت إمرته عددٌ من كبار الموظفين ، مثل صدر الأعمال الشّرقيّة ، وحاجب الباب ، وقاضي القُضاة .

وكان هؤلاء جميعاً من أهل العراق والعاملين في إدارته السابقة ، للاستفادة من خبرتهم الإداريّة . أُوكل إليهم أمرَ تنظيم الإدارة الجديدة . فعيّنوا من الموظفين مَن يعملُ تحت إمرتهم . كما قسموا البلاد إلى خمس مناطق إداريّة ، على رأس كلٍّ منها مَن يحملُ لقب صدر . وكان صاحب ديوان بغداد الصاحب الأعظم علاء الدين عطا ملك الخراساني الجُويني (ت : بعد السنة 683 هـ / 1284 م) ، يُعاونه أخوه شمس الدين الجُويني . وكلاهما كان على علاقةٍ وطيدةٍ بالشاعر ، وله فيهما مدائحُ كثيرة ، سنقرأُها أو بعضَها فيما سننتخبه من شعره . وفي الأثناء عرف فخرَ الدولة منوجهر بن أبي الكرم ، الذي كان يشغلُ منصب نائب صاحب الديوان . وله صنّف كتابه (التذكرة الفخريّة) [5]. كما كان أبوه فخر الدين عيسى حاكماً / صدراً على أربل ونواحيها ، التي كانت من النواحي الإداريّة الخمس التي ذكرناها قبل قليل .

من كلِّ هذا نعرفُ أنّ صاحبَنا وإن عاش في بلدٍ مأزومٍ باحتلالٍ أجنبيٍّ قاسٍ لا يرحم ، ولكنّه بشيءٍ من حُسن الحظّ ، المُتَمثّل في أنّ والدَه كان من كبار رجال الإدارة الجديدة في بلده أربل ، الأمرُ الذي يُمكنُ اعتبَارَه تمهيداً لطريقه نحو المناصب التي شغلها في أربل ثم في بغداد ، بالإضافة إلى مواهبه الأدبيّة العالية ، هو ما رسمَ سيرتَه الحافلة في الإدارة وفي التصنيف وفي الشِّعر .

---

3 ـــ سيرتُـه

لسنا نعرف مولدَ ابن عيسى لا في المكان ولا في الزمان . بيدَ أن ذلك لا يُفاجئُنا ، ذلك لأنّه وأمثالَه من الرجال لا يُلفتون إليهم الأنظار ، ويغدون محلَّ اهتمام كُتّاب سِيَر الرجال ، إلا بعد إلا بعد أن يُصبحوا شيئاً مذكورا بمعنىً أو بغيره في مجتمعهم . إذ ذاك تكون معالمُ من سيرتهم الأُولى قد ضاعت وصارت نِسياً مَنسيّا . ولكن بما أنّه وأبوه من قبله لم يُنسبا إلى غير أربل ، فإنّ لنا أن نقول أنّ الإبن على الأقل قد وُلد ونشأ فيها .

فهذا ما نُخمّنهُ تخميناً على مكان مولده ، استناداً إلى بعض مُلابسات سيرته .

أمّا زمانُهُ فنحن نعرفُ أنّه ولي منصبَ رئاسة الكُتّاب في ديوان مُتولّي أربِل تاج الدين أبي المعالي محمد بن الصّلايا العلوي الحسيني ، الذي كان نائبَ الخليفة فيها من قبلُ ، قبلَ السنة 660 هـ / 1261 م بمُدةٍ غير قصيرة . وهي السنة التي تحوّل فيها إلى بغداد لينتظمَ فيها في إدارة الصاحب عطا ملك الجُويني وأخيه [6] . وإنّ امرءً يُختارُ لشَغْلِ مثل هذا المنصب الكبير لا بُدّ أن يكونَ قد تمرّسَ بالعمل الإداريّ مُدةً كافيةً . فمن هنا نُخمّنُ تخميناً أيضاً أنّه يوم تحوّل إلى بغداد كان في حوالى الأربعين من العمر ، وبالتالي أنّ مولدَه كان في السنة 620 هـ / 1223 م أو بُعيدَها بقليل .

وأمّا فيما يخصُّ تنشئتَه وإعدادَه لِما آل إليه أمرُه ، فنحنُ قد عرفنا أنّه قد وُلد ونشأ في بيت علمٍ ورياسة . كان أبوه حاكماً بأربِل ، كما كان من أعيان عصره منصباً وعلماً وحكمةً ، توفي سنة 664 هـ / 1265م . أي أنّ الإبن كان في حوالى الأربعين يوم وفاة والده . فلا بُدّ أنّه أثناء تلك المُدّة الطويلة من الرِّفقة قد حظي برعايته حيث يحتاجُ إلى الرعاية ، وأنّه قد وفّر له من أسباب

التربية والإعداد للمستقبل في كلِّ سنٍ بما يُناسبه .

ولنُضف إلى ذلك أنّه كان هو بنفسه طُلعةً ، يسعى إلى المعارف بأسبابِها . ومن ذلك أنّه قـرأ كتاب (اللُّمع) وقطعةً من كتاب (الإيضاح) ، وكلاهما من كُتُـــب العربيّة ، على علي بن الحسن بن منصور الأربلي الأنصاري . وأجازه بالرواية عنه وعن شيوخه [7] . وهذا توفي سنة 649 هـ / 1250 م . أي يوم كان التلميذُ في أواخر العِقد الثالث من العُمُر . فمن هنا نُرجّحُ أن الأنصاري من أوائل أساتذته . خصوصاً إنْ نحن أخذنا في الاعتبار أيضاً موضوعَ الدّراسة . لعلمنا بأنّ هذا النمط من الموضوعات يكون من أوائل ما يتلقّاه الطالب . كما أنّه قرأ كتابي (كفاية الطالب في مناقب علي بن أبي طالب) و (البيان في أخبار صاحب الزمان) على مُصنّفهما الحافظ أبي عبد الله الكنجي الشافعي (ت : 657 هـ / 1256 م) وذلك بأربِل سنة 648 هـ / 1249 م [8] . فهـذا أيضاً ، اســتناداً إلى تاريخ وفاة الأُســتاذ ، من أوائل أساتذته . وأيضاً قـرأ كتاب (المُستغيثين بالله عند المُهمّات والحاجات) على الشيخ رشيد الدين أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم . قال : " **وكانت قراءتي عليه في شعبان سنة 686 بداري المُطلّة على دجلة ببغداد** " [9] .

فهؤلاء الثلاثة هم مَن وقعنا عليهما من أساتذته . ممّا يدعو إلى الظنّ أنّه لم يقرأ على غيرهم ، لتوفّر دواعي الذّكر لو كان ثمةَ غيرهم . هذا ، كما أنّ قراءَته على الأخير تدلُّ على أنّه لم يتوقّف عن الطّلب في سنّه العالية .

بيدَ أنّنا نجِدُ في تاريخه عدداً من المعارف أجازوه بالرواية ، وهذا نوعٌ من المشيخة أقلُّ من السّماع . ولكنه يدلُّ على شبكة العلاقات الفكريّة التي بناها المُجازُ أثناء سعيه . هؤلاء هم :

1 ــ محيي الدين يوسف بن يوسف الكاتب الهاشمي الموصلي (ق :

660 هـ / 1261 م) . أجازه إجازةً عريضة [10]، ممّا يدلُّ على أنّ كاتبَها كان إمّا مُدّعياً كبيراً وإمّا من أصحاب الشأن . ما يُريبُنا هنا أنّ صاحبَنا لم يسعَ إلى الحصول على إجازته ، وإنما تبرّع بها كاتبُها تبرُّعاً فيما يبدو ، على الرغم من أنه كان من أهل الموصل غير البعيدة عن أربِل ، وأنّه كما يظهر من لقبه " الكاتب " كان من زُملاء المُجاز .

2 ـ رضيّ الدين علي بن موسى بن طاوس (ت : 664 هـ / 1263 م) ، وهو من معارف فقهاء الحلّة في زمانه . ي ـروي عنه كثيراً في كتابه الشهير(كشف الغُمّة) .

3 ـ علي بن أنجب الشّهرباني ابن السّـاعي (ت : 674 هـ / 1275 م) . المُؤرّخ وخازن دار الكُتُب ببغداد . يروي عنه إج ـازةً ذكرها غير مرّة في (كشف الغُمّة) وأيضاً كتاب (معالم العترة النبويّة العليّة) للحافظ عبد العزيز بن الأخضر الجنابذي[11] (ت : 611 هـ / 1209 م) .

4 ـ عبد الحميد بن فخار بن مَعَدّ الموسوي (ح : 682 هـ / 1283 م) ، وهو فقيهٌ ونسّابَةٌ حِلّيٌّ أيضاً . أجاز له سنة 676 هـ / 1275 م [12] .

5 ـ علي بن محمد بن محمد بن وضّاح الحنبلي(ت : 672 هـ / 1273 م). يروي عنه كتاب (الذُّريّة الطاهرة) لمحمد بن أحمد الأنصاري الدُولابي [13] .

6 ـ أحمد بن علي الغزنوي [14] .

فهؤلاء عِدّةُ مَن وقعنا على أسمائهم ، ممّن قرأ عليهم أو روى عنهم ، في مُلابساتٍ مُختلفةٍ غنيّةٍ بالدّلالات . منها ما أشرنا إليه في مَطاوي الكلام ، ومنها ما لم نقِفْ على دلالته . ومن هذا أنّ روايتَه عن فقيهين حِليين تدلُّ على صلته الوثيقة بهذه الحاضرة العلميّة ، التي كانـــت يومذاك في أوج حضورِها ،

بعد أن نجَتْ بنفسِها من العاصفة المغوليّة الكاسحة . ومنه أنّه كان يطلبُ المعرفةَ المقبولة عنده من أينما تأتّت له ، أعني دون أن تحولَ بينه وبينها الحواجزُ المذهبيّة . فقد رأينا أنّه في الوقت الذي وثّق صِلاته مع فقيهيَن حِليّيَن ومع غيرهما من فقهاء الشيعة ، فإنّه قرأ أو روى عن فقهاء من غير الشيعة . على الرُّغم من الجوّ المذهبيّ المُكفهرّ الذي نشأ على قاعدة الاتهام الباطل لبعض رجالات الشيعة باستدعاء المغول لغزو العراق ، ممّا لا يزال صداه يتردّدُ حتى اليوم .

تلك هي مصادرُ ثقافة ابن عيسى التي يُمكن للباحثِ رصْدُها تحت العنوانيَن التقليدييَن : القراءة والرواية . ولكنّ هذا الرّصد لا يُمكن أن يكونَ وافياً بكل المصادر التي كوّنت عالمَهُ الفكري . فهناك أيضاً سعيُه الشّخصي الذي نرصدُ آثارَه فيما ألّفَ وصنّف . هنا نُلاحِظُ أنّه ينقلُ فيها كثيراً عن علماءٍ وأُدباءٍ وشعراءٍ كثيرين . الأمرُ الذي يدلُّ على أنّه كان لا يمِلُّ من الاعتناء بإغناءِ مُصنّفاته بإغناء معارفه . وهو الذي رأيناه قبل قليل لايستنكفُ عن الجلوس مجلسَ تلميذ في داره ببغداد ، على الرُّغم من سنّه ومكانتِه العالييَن .

ممّا لا ريب فيه أنّ ما تحلّى به شاعرُنا من ثقافةٍ عاليةٍ ، وما وهبه باريه من موهبةٍ أدبيّةٍ شعراً ونثراً [15] ، كانا سبيلَهُ إلى العمل مُنشئاً في مؤسّسات الدولة . لِما يقتضيه هذا العمل من تمكُّنٍ من اللغة وآدابِها ، إلى جانب معرفةٍ واسعةٍ بمُختلف العلوم الإسلاميّة ، بالإضافة إلى الإحاطة برسوم الدولة ومراسمِها وبلدانِها وسُكّانِها ، إلى غير ذلك . وقد وضع القلقشندي كتابَه الضخم (صُبح الأعشى في صناعة الإنشا) لغرضٍ واحدٍ ، هو تزويد الكاتب المُنشئ بأساسيّات المعارف التي ينبغي له أن يتوفّرَ عليها كيما يتأهّلَ إلى هذا السِّلك . نقولُ هذا ، ونحن في سبيل الحديث عمّا مهّد له إلى عمله ، دون أن ننسى أو

نتجاهل سابقةَ والدِه في العمل للدولة في أربِل . فالأرجحُ لدينا أن ذلك قد ساهم بدرجةٍ ما في وصولِه إلى ماشغله من مناصب ، لِما نعرفه من تقاليد العمل في تلك المرافق ، حيث كانت توجد بيئاتٌ أُسريّة تُنتج كبار موظفي الدولة . بحيث أنّ المغولَ لم يستغنوا عن خدماتِها وخبراتِ أبنائها بعد أن استولوا على العراق .

مهما يكُن فإنّ ابنَ عيسى انتظم في سلك مُعاوني مُتولّي أربِل تاج الدين محمد بن نصر بن الصّلايا الحسيني . وربما حلّ مكان والده بعد أن انقطع هذا عن العمل ، أو كما نقولُ اليوم : تقاعد ، بسبب السِّنّ . ولكنّه بالتأكيد لم يبلغ في منصبه الجديد مثلَ ماكان لوالده من المكانة والموقع . لأن الأبَ كان له من الوجاهة بنفسه [16] ، وبصرْفِ النّظر عن منصبِه ، ما منح المنصبَ ، ذا الصفة الإجرائيّة البحتة في الأساس ، يومَ كان يشغله أهميّةً خاصّةً . وربما لذلك يُوصَف الأبُ بـ (حاكم) على أربِل ونواحيها ، مع أنّه كان يعملُ بإمرة ابن الصّلايا . وعلى كلِّ حال ، فإنّنا لا نعرفُ منصباً بهذا العنوان في الإدارة المغوليّة في العراق .

لسنا نعرفُ كم مكثَ في عمله هذا . ولكنّنا رأيناه يُغادر مسقط رأسه أربِل ، ويتحوّل إلى سُكنى بغداد ، في شهر رجب سنة 660 هـ / 1261 م ، أي يوم كان والدَه ما يزال على قيد الحياة ، حيث انتظم في إدارة الصاحب عطا ملك الجُوَيني وأخيه [6] بصفة (كاتب مُنشئ) . ولقد ألمحنا قبل قليل إلماحاً إلى أهميّة هذا العمل . ونُضيفُ الآن أنّه بمثابة رئيسٍ للكُتّاب . يوكلُ إليه أمرُ تحرير الرسائل والمراسيم والتوقيعات والأوامر وما إليها . واتخذ له داراً على شاطئ دجلة ، هي التي ذكرها فيما اقتبسناه قبل قليل ، حيث وقفنا على قراءته على شيخه محمد بن أبي القاسم " **بداري المُطلّة على دجلة ببغداد** " [6] . وفيها أمضى ما بقي له من العُمُر حتى وفاته في السنة 692 هـ / 1292 م أو

693 هـ على اختلاف الروايات [17]، ودُفن في إحدى غرُفاتها . وظلّ قبرُهُ معروفاً مَزوراً من عارفي فضله إلى وقتٍ قريب . والبقعةُ غدت إلى ما قبل بضع عُقود فندقاً سمّوه (فندق الوحيد) . لطالما نزلنا فيه عندما كنّا نزور بغداد صيفاً إبان سنيّ الطلب في النجف الأشرف . حيث كانت الأسِرّةُ تُهيّأُ لرقاد زبائن الفندق في الساحة الواسعة المكشوفة . وأتذكّر أنّني كنتُ أرى في زاوية البناء من جهة النهر غرفةً صغيرةً تدلُّ الكتابةُ المرقومة على أسكفة الباب أنها ضريح ، بيدَ أنّني لم أولِ الأمرَ الاهتمام الذي يستحقّه . ولكنّ شيخنا آغا بُزُرك الطهراني زار الضريحَ زيارةَ عارف ووصفه وذكر لمحةً عن تاريخه [18] ، استفدنا منها في بعض ما قلناه على الدار والضريح أعلاه .

وخلافاً لِما انتهينا إليه في خاتمة كلامنا على فترة أربِل من سيرته العملانيّة ، حيث قلنا أنّنا لا نعرفُ كم مكث في خدمة مُتولّيها ابن الصّلايا ، فإنّنا فيما يخصُّ فترة خدمة الأخوين الجُوينيّيَن ببغداد نعرف كم مكث بالضبط . ذلك أنّنا نعرفُ أنّه دخلها في شهر رجب سنة 660 هـ / 1261 م ، كما قلنا قبل قليل . والظاهر أنّه تسلّم عملَه الجديد فيها فوراً ، بل إنّه لم يتحوّل إلى سُكناها إلا لدواعي العمل . ثم أنّه ، استناداً إلى مُصنّف كتاب (الحوادث الجامعة) ، اعتزل عملَه فيها في السنة 687 هـ / 1286 م[19] . أي أنّه مكث فيه ستّاً وعشرين سنةً عدّاً . وهذه مُدّةٌ طويلةٌ بالقياس إلى ما نعرفه من مآل هذا النمط من كبار الموظفين ، الذين يكونون موضعَ مُراقبةٍ حثيثة ، ويُصادَرون بقسوةٍ مُتناهية حين تبدو عليهم آثارُ الثروة . بل إنّ المصدرَ نفسَه ينصُّ على أنّه لم يُعزَل ، بل إنّه هو الذي بادر فعزلَ نفسه ، استنكافاً عن العمل تحت إمرةِ الوزير اليهودي الجديد سعد الدين بن الصّفي ، بعد أن جاء بجماعةٍ من اليهود من أهل مدينة تفليس في أرمينية ، ورتّبهم وُلاةً على تركات المسلمين[19].

وطبعاً تمّ ذلك بعلمٍ ورضىً ، بل ربما بأمرٍ من سُلطة الاحتلال . فترك كتابةَ الإنشاء ، وانزوى في داره مُنصرفاً إلى التصنيف ونظم الشعر إلى أن توفّي . والجدير بالذكر هنا أنّ الكتبي قال في السّياق نفسِه : " **ولم يُنكَبْ إلى أن مات** " [20] . وهذه مُلاحظةٌ تُؤيّدُ أهميّةَ مُلاحظتنا نحن أعلاه على طول مُدّة خدمته وما تحملُهُ من مغزى .

ونقولُ في ختام هذا الباب من سيرة الرجل ، أنّه لا صحّةَ إطلاقاً لِما وصفه به بعضُ مَن خاض في سيرته بـ الوزير . من هؤلاء ـ مثلاً ـ الخوانساري في (روضات الجنّات) والأميني في (الغدير) [21] . هذا إشتباهٌ منشؤه نقصُ التدقيق في النصوص وربما ، بالإضافة إلى ذلك ، الميلُ إلى تعظيم الرجل وتفخيمه . وما من ريبٍ في أنّه يستحقُّ كلَّ تكريمٍ . ولكنّنا نرى في صفاته الحقيقيّة الثابتة ، ومن ذلك طبعاً تصانيفُهُ وشعرُه وأدبُه وبراعتُه واستقامتُه ، ما هو أحرى وأجدى بالتنويه . نعم ، نعتَه الكتبي بـ " **الصاحب بهاء الدين** " [22] وابنُ العماد الحنبلي بـ " **الصدر الكبير** " [23] . ولكنّ هذين النّعتيَن لا يعنيان بالضرورة أنّه كان وزيراً ، بل إنّنا نراهما يُصوّبان إلى ما كان له من مقامٍ عالٍ ومكانةٍ ساميةٍ عند كبار رجال الدولة وعند الناس ، كِفاء مؤهّلاته الأدبيّة والعلميّة والخُلُقيّة .

ترك الأربليُّ أربعة مُصنّفات ، ثلاثةٌ منها أدبيّة ، والرابع في السّيرة ، بالإضافة إلى شعره . وسنُعرّفُ توّاً بمصنّفاته الأربعة . أمّا شعره فسنخصُّهُ بالعنوان التالي ، ثم سنقتبسُ مُنتخباتٍ منه بعدُ .

مُصنّفاتُــه :

1 ـ **التذكِرة الفخريّة** . خدم به فخرَ الدولة منوجهر بن أبي الكَرَم الهمذاني . صنّفه سنة 671 هـ / 1272 م . ومن هنا نعرفُ أنّه صنّفهُ بـــ

بغداد . والظاهرُ أنّه أوّلُ مُصنّفاته .

الكتابُ متوسّطُ الحجم . جمع فيه جملةً من الطّرائف والأشعار، مع نقدِها أدبيّاً. طُبع في بغداد سنة 1404 هـ/1984م باعتناء د. نوري القيسي ود. حاتم الضامن .

2 ــ **جلوةُ العُشّاق وخلوةُ المُشتاق** . ذكره بروكلمان : 1 / 714 . والكتاب ما يزال مخطوطاً ، نسخته الوحيدة فيما يبدو في المكتبة الوطنيّة Librairie National في باريس برقم (3551) . ذكرها أيضاً De Slane في :

Catalogue Des Manuescripts Arabes

الصفحة / 614 ، وأنّها في 122 ورقة . ولم يُتَحْ لنا الاطلاع عليها . والذي يبدو من اسم الكتاب أنّه مجموعٌ أدبيٌّ أيضاً .

3 ــ **طيفُ الانشاء** . وقد يُسمّى **(رسالة الطّيف)** . والظاهر أنّ كلمة " رسالة " صفةٌ مُضافَةٌ ناشئةٌ من حجم الكتاب ، كما هو الشأن كثيراً في أمثالِها ، وليس من اسم الكتاب الأصليّ .

4 ــ **كشْفُ الغُمّة في / عن معرفة الأئمة** . كتابٌ كبير في سِيرة المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام . طُبع غير مرّة ، آخرُها في ثلاثة مجلّدات ، ولكنّ الكتاب بحسب القسمة الأصليّة لمُصنّفه في جزأيَن . فرغ من الجزء الأول في داره ببغداد سنة 678 هـ / 1277م ، ومن الثاني سنة 682 هـ / 1281 م [24] ، أي بفاصل أربع سنوات بين الجزئين . فإذا نحن فرضنا أنّ الأربلي كان مشغولاً بعمله على هذا الجزء من كتابِه طوال تلك السنوات الأربع ، وهو فَرْضٌ وجيهٌ جِدّاً بالنّظر لِما يلمُسُه القارئُ في مادّة الكتاب من إحاطَةٍ ودقّةٍ ، لَدلّ ذلك على الجُهْد الكبير الذي بذلَه مُصنّفُه

في تصنيفِه . وهو أشهر كُتُب مُصنّفه . بل إليه يعود الفضل في شُهرته . والظاهرُ أنّ شُهرةَ الكتاب بدأت في حياة مُصنّفِه . عرفنا ذلك من أنّه كان يعقُدُ الحلقاتِ الحافلة لقراءَة الكتاب عليه . وقد وصلنا منها ذكرُ حلقةٍ عقدَها في داره ببغداد ، انتهتْ بالإجازة لمَن حضرها بتاريخ 24 رمضان 691 هـ / 1290 م . ونصُّ الإجازة على نسخةٍ من الكتاب بخطٍّ أحد المُجازين ، كانت في المكتبة الغرويّة في النجف الأشرف [25] .

5 ـ المقامات الأربع ، البغداديّة والدمشقيّة والحلبيّة والمصريّة . ذكرها الكتبي في (فوات الوفيات : 3 / 57) وابن العِماد الحنبلي في (شذرات الذهب : 5 : 383) ، وتابعهما إسماعيل باشا في (هديّة العارفين : 1 / 714) . ولا تُعرَف لها نسخة . ولم يأتِ هو على ذكرها فيما وصلنا من كُتُبِه ، ولا الحُرّ العاملي في (أمل الآمل) ولا آغا بُزُرك في (الذريعة) .

هذا وقد نسبَ إليه عمر كحّالة في معجم المؤلفين : 7 / 163 كتاباً باسم (نزهة الأخيار في ابتداء الدنيا وقدر القويّ الجبّار) وعباس العَزّاوي آخَرَ باسم (حدائق البيان في شرح التبيان في المعاني والبيان) [26] . ويقول الحُرُّ العاملي أنّ لـه " **عِدّة رسائل** " [27] .

---

4 ــ شـعرُه

يبدو أنّ الأربِليّ كَلِفَ مُبكّراً بالشعر ، فكأنّه بالنسبة إليه فعلَ غرامٍ من جهة ، وفعلَ اق ىتاعٍ وجدوى من أُخرى . فهو في مقدمة كتابه (التذكرة الفخريّة) نراه يُقدّمُ الدليل تلوَ الدليل على أهميّةِ الشعر ، وأنّه أعظمُ آداب العرب . ويوردُ أقاصيصَ طريفةً يُبيّنُ فيها أثرَ الشعر القويّ على عقول الناس وأعمالهم ومُيولهم . فكم من بيتٍ أو بضع أبيات في مديح بعضهم كانت السّببَ في رفعة مكانته وانتشار صيته . وكم من بيتٍ أو أبيات في ذمّ بعضهم الآخَر كانت السّببَ في ترذيله وسُقوطه . فكأنّه في هذا يريدُ أن يقولَ أنّ الشعرَ ليس فنّاً جميلاً حسبُ ، وإنّما هو أيضاً أداةٌ ، مَن ملك قِيادَها امتلك القُدرةَ على التأثير في مَن حولَه ، وتفرضُ احترامَه وأخذَه في الحُسبان في شبكة علاقات الناس ، تماماً كالجاه والثروة والسُلطة . وكأنّه بذلك يبتغي دفعَ القارئ إلى الاهتمام بالشعر وبالشّاعريّة لمَن لديه الموهبة والاستعداد الفطري .

ثم أنّ مَن يقرأُ كُتُبَه ليلاحظ بسهولةٍ ثقافتَه الشّعريّة الواسعة . فهو لا يوفّر فرصةً للاستشهاد به من مخزونه لديه . وكثيراً ما يقِفُ على ما يوردُه وقفةَ الأديب الناقد ، فيُبيّنُ مواطنَ الإجادة أو عكسَها ، والمآخذَ التي سبق لغيره من المُتقدّمين أن تناولها . وهذا يدلُّ على أنّه زاول شعر الشُعراء في الجاهليّة والإسلام ، وسبرَ دواوينَهم ، وعرفَ أقدارَهم ، وعلى خبرتِه التامّة بصنعة الشّعر. ومن الغنيّ عن البيان أنّ ذلك كلّه قد ساهم في صُنع الشاعر كما نعرفُه .

ثم أنّ من المؤكّد أنه تعاطى النّظمَ منذ الصّبا ، فقد رأيناه يُصرّح بذلك مراراً في غير موضعٍ من كُتُبه ، وخصوصاً في (التذكرة الفخريّة) ، بأن يقول في عنوان القصيدة : " **وهي من شعر الصِّبا** " [28]. كما أنّ ما وصلنا من شــعره

يشهدُ بأنّه نظمَ في مُختلف الأغراض الشّعريّة ، مع اهتمام خاصٍ بالغزل وبمديح ورثاء الأئمة من أهل البيت عليهم السلام . وإنّا وإن كُنّا لا نملكُ ديواناً شاملاً لشعره ، ومع ذلك فإنّنا نُرجّحُ أنّ عامّة غزليّاته من شعر الشباب . بينما ما هو في أهل البيت هو من شعر الكهولة وما بعدها . وليس هذا بالأمر البِدع ، بل هو من طبيعة البشر . فالشباب هو عمرُ العواطف المشبوبة ، بينما في الكهولة يبدأُ الإنسان في التفكير بأمر الحياة الباقية في الآخرة . وممّا لا يخلو من مؤشّرٍ إلى ذلك ، أنّنا رأيناهُ حيث ينقلُ في كتابه (كشف الغُمّة) ، وقد قلنا فيما فات أنّه آخر ما صنّف ، مقطوعةً غزليّة يعتذر عنها بأنّها " ممّا اقتضاه الحال " [29] . ولكنه حشا أوّلَ كُتُبه (التذكرة الفخريّة) بصنوف الغزل . هكذا ، فإن مصدرنا الأوّل لشعر أيام الشباب هو هذا الكتاب ، بالإضافة إلى كتابه الآخَر (رسالة الطيف) . بينما قصائده المُطوّلة في أهل البيت عليهم السلام هي في (كشف الغُمّة) .

نقولُ أخيراً أنّ من المؤكّد أنّ شعره قد جُمع إبّان حياته أو بعدها في ديوان ، ذكره آغا بُزُرك [30]، وقبله الكتبي وابن العماد الحنبلي والحر العاملي [30]، بل إنّ آغا بُزُرك يقول أنه ــ أي الأربلي ــ " **فرغ منه في سنة 687** " ، ولكنّه على غير ما عوّدنا لم يُسنِد هذه المعلومة . وعلى كل حال فالذي يبدو أنّه ضاع نهائيّاً . وجرّد البحاثةُ العراقي محمد طاهر السّماوي ما في (كشف الغُمّة) من شعره في أهل البيت ما سمّاه (ديوان الأربلي) ، نسخته الأصليّة في (مكتبة آية الله الحكيم) بالنجف الأشرف ، برقم (612 م) .

هوامش الفصل

1 ـ الصفدي ، خليل بن أيبك : الوافي بالوفيات ، نشرة المعهد الألماني للدراسات الشرقيّة في بيروت في سنواتٍ مُتعدّدة : 3 / 57 .

2 ـ ياقوت بن عبد الله الحموي : معجم البلدان ، ط . بيروت ، دار صادر لات : 1 / 172 .

3 ـ مؤلف مجهول : الحوادث الجامعة ، ط. بغداد 1351هـ / 486 .

4 ـ القلقشندي : صُبحُ الأعشى في صناعة الإنشا ، ط. القاهرة 1922 : 3 / 424 .

5 ـ ابن الفوطي عبد الرزاق بن أحمد الشيباني : تلخيص مجمع الآداب في مُعجم الألقاب ، ط. دمشق باعتناء د. مصطفى جواد 1962م : 3 / 274 . ويقولُ هو في ديباجة كتابه (التّذكرة الفخريّة) : " **عرفتُ في خدمتهما الملك المُعظّم الكبير فخرَ الدولة والدين مفخر الزمان منوجهر بن أبي الكرم** "

(التذكرة الفخريّة) ط. بغداد 1404 هـ / 1984 م باعتناء د. نوري القيسي و د.حاتم الضامن.

6 ـ يقول في (التذكرة الفخريّة) / 47 : " **وحيثُ وصلتُ بغدادَ في شهر الله الأصمّ رجب سنة ستين وستمائة** ".

7 ـ ذكر ذلك في كتابه (التذكرة الفخريّة) / 213 .

8 ـ عبد الله أفندي الإصفهاني الجيراني : رياض العلماء وحياض الفضلاء ، ط . قُم باعتناء أحمد الحسيني ، ط. 1401 هـ : 4 / 166 .

9 ـ الأربلي : كشف الغمّة في معرفة الأئمة ، ط. بيروت 1405 هـ / 1985 م : 2 / 691 .

10 ـ التذكرة الفخريّة / 112 .

11 ــ: كشف الغمّة 1 / 37 .

12 ـ رياض العلماء : 4 / 167 .

13 ـ نفسه : 4 / 167 .

14 ـ محمد باقر الخوانساري : روضات الجنّات في أحوال العلماء والسّادات ، ط . بيروت 1411 هـ / 1991 م : 4 م 328 .

15 ـ وصفه محمد بن شاكر الكتبي (ت : 764 هـ / 1363 م) فقال : " **علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي المُنشئ الكاتب البارع** " فوات الوفيات ، ط. بيروت 1974 باعتناء د. إحسان عباس : 2 / 83 .

16 ـ عرفنا ذلك من الأوصاف العالية التي وُصف بها ، بالإضافة إلى المراثي التي قيلت فيه . ومنها قصيدة محمد بن أحمد الحارثي الهاشمي الكوفي ، منها :

لقد كان فخرُ الدين بحرَ فضائلٍ ولم نــرَ بحــراً قبلَه ضمّهُ القبــرُ
كريمُ السّجايا هذّبَ الجودُ نفسَهُ إلى أن تساوى عندهُ التُربُ والتبرُ

تلخيص مجمع الآداب : 3 / 274 .

17 ـ أبرزُ مَن أثبتَ الروايةَ الأُولى من المؤرّخين الكتبي في الوافي بالوفيات : 2 / 135 . وتابعه بروكلمان : 1 / 794 والزركلي في (الأعلام) وغيرهما . وأبرزُ من أثبت الثانيةَ منهم ابن الفوطي في (تلخيص مجمع الآداب) : 3 / 275 ومُصنف (الحوادث الجامعة) / 416 . وتابعهما كثيرون من المُحدثين . وهي الرواية الرّاجحة لدينا لأسبابٍ واضحة .

18 ـ الطهراني : طبقات أعلام الشيعة (الأنوار السّاطعة) ، ط . قم مؤسّسة إسماعيليان ، لات / 107 وعبد الله الجبوري : مقدمة رسالة الطيف للأربِلي ، ط. بغداد 1388 هـ / 1968 م .

19 ـ الحوادث الجامعة / 454 .

20 ـ فواتُ الوفيات : 2 / 135 .

21 ـ روضات الجنّات ، الطبعة الحجريّة ، لات / 386 ، والغدير ، ط. قم 1416 هـ / 1995 م : 5 / 452 .

22 ـ فوات الوفيات : 2 / 135 .

23 ـ شذرات الذهب في أخبار مَن ذهب ، ط. بيروت ، دار الكُتُب العلمية لات : 5 / 383 .

24 ـ الذريعة : 15 / 195 .

25 ـ نفسه : 1 / 218 ـ 19 و 5 / 106 . وفي الأول من المصدريَن ذكر أحد عشر شخصاً من المُجازين بأسمائهم ، ومنهم عددٌ من المعارف .

26 ـ مجلة المورد العراقيّة ، السنة الثامنة ، العدد / 3 / 141 .

27 ـ أمل الآمل : 2 / 195

28 ـ مثلاً : الصفحات 66 و 271 و 272 .

29 ـ كشف الغُمّة : 1 / 17 ـ 18 .

30 ـ الذريعة : 9 / 67 و 745.

مُنتَخَبَاتٌ من شعره

وعـدتْ بـاسـتراقَــــةٍ للقــاءِ وبـإهـداء زَوْرَةٍ فـي خَفـــــاءِ
وأطـالَـتْ مطْلَ المُحبِّ إلى أن وجـــدتْ خِلسـةً من الأعـداء
ثم غارت من أن يُماشيَها الظّـ ـلُّ فـ ــزرات في ليلةٍ ظلمـاءِ
ثم خافتْ لمّـا رأت أنجُمَ الليـ ـلِ شبيه ــات أعيُنِ الرُّقبـــاءِ
فاسـتنابَت طيفاً يُلِـمُّ ومَـن يملُكُ عيناً تهِــمُّ بـالإغـفـاءِ
هكــذا ليلُهـا إذا نـــوّلتنـــــا وعنـاءٌ تَسَمُّحُ البـخــــــلاءِ
يهدُمُ الانـتهـاءُ باليأس منهـا مـا بنـاهُ الرّجــاءُ بــالابتداءِ
لستُ أنســى يـوم الرّحيل وقد غرّدَ حـادي الرّكاب بالأنضاءِ
وسُـليمى منّـتْ بـردٍّ سلامــي حيـن جــدّ الــوداعُ بالإيمــاءِ
سـفَرَتْ كي تُزوّدَ الصبَّ منها نظـرةً حين آذنَــتْ بــالتنـائي
وأرَتْ أنّها من الوجـــدِ مثلي ولهــا للفــراق مـثــلَ بُكائي [1]

ومُـزنَـــــةٍ صــــــادقــــــة الأنـــــــواءِ
ســـــوداء تــــأتـي باليـــدِ البيضــــــاءِ
تســـــيرُ مـثلَ ســــــيرِ ذي البطحـــــاءِ
تُجري بنــار البــــــرقِ دمـــــعَ المـــاءِ
تُثنــــــي بهـــــا الأرضُ علـــى السّماءِ
بـألسُــنِ الصّفـــــــراء والحمــــــــــراءِ
فـالأرضُ فــي سُـــندســــــــةٍ خضــــراءِ
كــــأنّهــــــا للـــرّيِّ والــــــــــرّواءِ
أُهـــــدي إليـــــها الـوشــــيُ من صنعاءِ [2]

جاد السّحابُ على الثّرى بعوارفٍ أهدتْ إليه الوشيَ من صنعائهِ
وكسا الربيعُ ثرى البسيطة ملبساً   قد حاكه صوبُ الغمام بمائِهِ
فسماؤه للنّاظرين كأرضِهِ   تُبدي النّجومَ وأرضُهُ كسمائِهِ
باح النّسيمُ بسرّه إذ أصبح القدّاح والنّمّامُ من أمنائِهِ
والفصلُ ليلٌ كلُّهُ أوَ ما ترى   زُهرَ النُّجومِ تلوحُ في أرجائِهِ
والطّلُّ ينثُرُ في الرّياض دموعَهُ   والزّهرُ يضحكُ في خلال بكائهِ
وتخالُ أنفاسَ النّسيمِ عليلةً   عجباً وتنفي الصّبّ من بُرَحائِهِ
وكأنّما الأغصانُ فيه منابرٌ   والنّاطقات العُجمُ من خُطبائِهِ
فاشرب على زَهر الرياض مُدامةً
تَثني الحليمَ أخا الحِجا عن رائِهِ
من كفِّ ممشوق القوام مُقرطَقٍ   يُصبي القلوبَ بحُسنه وغِنائهِ[3]

سقى عهدُ الحيا عهدَ التّصابي   وحيّا طِيبَ أيّام الشّبابِ
وروّضَ منزِلاً بالجَزْعِ أقوى   برغميَ من سُليمى والرّبابِ
ومَرّ مُسَلّماً يحدوهُ رعدٌ   على تلك الملاعبِ والقُبابِ
ديارٌ ما أجلْتُ قِداحً لهوي   بها إلا مع الخُودِ الكِعابِ
ولا عاقرتُ فيها الرّاحَ إلا   وقد شُجّتْ بمعسول الرّضابِ
وبي فتّانَةُ الألحاظ تبدو   بُدوَّ الشمس من خَلَلِ السّحاب
تُحاكي البدرَ مُسفرةً وتحكي   هلالَ الأُفقِ من تحت النقابِ
وتبسُمُ عن ثنايا خلتُ فيها   مُداماً وهي فيه كالحُبابِ[4]

أعـاد لباسَ التّصـابـــي قشيبا يعيرُ الغرام ويُصبي القلوبــا
ولاح ومــاس دلالاً فخِـلــتُ هـــلالاً مُنيـراً وغصنـاً رطيبا
دعـا القلــبَ حُبُّــك ياقـاتلي فكـان لــه إذ دعــــاهُ مُجيبـا
أمـولاي رِفقــاً بـــذي لوعــةٍ يبيـتُ مُحِبّاً ويَضحــى كئيبـا [5]

كيف خَـلاصـي من هـوى شـادنٍ حَكّمـهُ الحُسْنُ علـى مُـهجـتـي
بُعــادهُ نـــاري التـي تُتّقـــى وقُـربُــهُ لـو زارنـي جنّتـــي
مـا اتّسـعَت طُـرقُ الهـوى فيه لي إلا وضـاقـت فـي الهـوى حيلتـي
ليت ليالــي وصلِـهِ عُدن لـــي ياحسـرتا أيـن الليالي التـــي [6]

نسيم الصَّبا عـن عَرْفِ هندٍ يُحدّثُ وهاروتُ عن أجفانها ال سحر ينفُثُ
يُذكّرُ إن هـزّتْ من القــدِّ عـاملاً رطيبـاً وإن ماس ـتْ دلالاً يُـؤنّــثُ
بعثـتُ إليهـا محـضَ حُبّي فقابلت عليـهِ فأضحتْ للصَّبابةِ تبع ـثُ
حفظتُ لـها عهداً فأضحـى مُضيّعاً ولا عجبٌ عهدُ المليحــةُ يُنكَ ـثُ
تجلّتْ لنـا كالبـــدر ليلـةَ تـمّــهِ وساقي النّـدامـى للمُ ـدام يُحثــثُ
فـلاح لـعينـي الشمـسُ والبدرُ قارنا هلالاً فقلتُ السّ ـعدُ شكلٌ مُثلّثُ [7]

بـات يجلـو لـيَ من ريقتـه قهـوةً تُعصَـرُ مـن وجنـتـــهِ
رشـأٌ بـابلُ تـروي سحرَهـــا عـن حـديث السّـحر من مُقلتِهِ
ظلّ قلبي في ديـاجـي شعره واهتـدى بـالصُّبح من غُـرّتِــهِ
أسـهرتنـي سِنـةٌ مـن طـرْفِـهِ وحَمَتْ طرْفـيَ فـــي رقـدَتِــهِ

سقمٌ في جَفنِـهِ أعـرفُـهُ تُجتَنـى الأسـقام مـن صِحّتِهِ
رِقّـةٌ فـي خـدِّها يُنكرُها قلبُـها المُسـرفُ فـي قسوتِـهِ
لم أكَدْ أعرفُ ما طعمُ الكرى مُـذ تمـادى فـي مّـدى جفوتِهِ
ربّ حُسْـنٍ مُرسَلٍ من شَعره مُـرسِـلٌ وجـديَ مـن آيتـهِ
حاكـمٌ فـي دولة الحُسْن كما يحكـمُ الصاحـبُ في دولتـهِ [8]

وصَوْبُ سحابٍ غادر الأرضَ لُجّةً فأضحى بها ضبُّ الفلاة مُلجّجا
وأضـرم فيه البرقُ شُـعلةَ نـارهِ على فحمـة الليل البهيم فأجّجـا
وسـيقَتْ بـه كُـومُ السّحائب حُفّلاً وحرّكها حادي الرُّعود فـأزعجـا
وعـاد بـه ضـوءُ النهـار ولُبسهُ ثيابُ حِدادٍ تسْتعارُ من الدُّجى
وألقحـها مَـرُّ النّسيم فـأنـزلـتْ سحاباً غدا للأرض بالنورمنهجا
فـأحدق فيها النرجسُ الغضُّ طَرْفَهُ ولاح بها خدُّ الشّقيق مُضرّجـا
وأبـدتْ لنـا ورداً جنيّاً نبـاتُـهُ وثغرَ أقاحٍ نـاضرٍ وبنفسجا
وصفّقت الأنهـارُ فيهـا ومالت الـغصـونُ وغنّاها الحمامُ فهزّجا [8]

بَـرْدٌ بثغـركَ أم اقـاح والـريـقُ أم كـاسات راح
والشّـعرُ أم ليـلٌ دجـا والـوجـهُ أم نُورُ الصباح
كلَـفي بفتّـان اللّحـاظ مُهفَـفٍ قـلِـقِ الـوشاح
شـاكي السّـلاح بمُهجتي أفديهِ مـن شاكي السلاح
جُمَلُ اشـتياقـي مـن سُقـامِ جُفونِه المَرضى الصّحـاح
يـامَـن يـفـوقُ بقَـدّهِ أنّى انثنى سُـمْرَ الرماح
رِفـقـاً بـذي كـلَـفٍ عقيـدةُ دينـهِ حُـبُّ المِـلاح

صَـــبٌّ أطـــاعَ غرامهُ ف   ي حُبّه وعصى اللّواحي[9]

طـافَ بهـا الليلُ وحَفَّ الجناح بــدرُ الـدُّجـى يحملُ شمسَ الصباح
وفـــــاز بالـــرّاحـــةِ عُشّـاقُهُ لمّــا بـــدا فـي راحِـــهِ كـــاسُ راح
ظبــيٌ مــن الثُــرك لـــه قامــةٌ يُـــزري تَثَنّيهـــا بسُـمْرِ الرّمــاح
عـارضُـــهُ آسٌ وفـــــي خــــدّهِ وردٌ نضيــرٌ والثّنـــــايــا أقـــــاح
أطعتُ فيـــهِ صَبـوتي والهوى طـوعاً وعاصيتُ النُّهى واللّـــــواح
عـاطيتُــهُ صـهباءَ مَشمُولَـةً تحكي سـنا الصُّبحِ إذا الصُّبحُ لاح
فسَـكّنَتْ سَـورتَـهُ وانثنـــــــى وظــلّ طَـوعـي بعد طُولِ الجِماح
فبِـتُّ لا أعـرفُ طِـيبَ الكرى وبــات لا يُنـكِـرُ طِيبَ المــــزاح
فهــل على مَــن بــاتَ صَبّاً به وإن نضــا ثـوبَ وقـــــارٍ جُنــاح [10]

قســماً بليــنِ قـــوامِكَ المُتأوّد إنّـــي خفيتُ مـن الضّنى عن عُوّدي
فـارحم أخــا كَلَفٍ يبيتُ بمُقلـةٍ عَبـرى وقلبٍ من صـدودك مُكمَـــــدِ
واعطِـفْ علـى مَــن ظلّ فيك زمانه
بـانـينِ مـ   ـروبٍ وطَـــــــرْفٍ مُسـهَـدِ
فعـــلامَ يتعـبُ عاذلي وقضى الهوى
أنّـــي أُخـالِـفُ عــاذلي ومُـفـنّـــدي
ياكعبــةَ الحُســن الـــذي لجمالِهِ وجّهتُ وجهـي فهــو غايــةُ مقصَدي
بك أهتدي سُبُلَ الغرام وحقِّ مَن امسيتَ أنــت دليلّــهُ أن يهتــــــدي
يا مُخبري عن طيبِ وقتِ وصاله اطربتَ سَـمعـي بالوصـال فـردّدِ
إيــهِ بحقّــكَ هاتِ عـن كلفي بـه واترُك حديثَ رُبـى العقيق وثهمـدِ [11]

أفـدي حبيبـاً مثـل بـدر الدُّجى من فـوق لَـــدْنِ العقـد ميّــــادِ
صُـــدودُهُ يُذكـي غليلَ الجَوى والوصلُ يــروي غُلّــةَ الصّــادي
رأى جنــونـي وغــرامـي بــهِ فـــزارنـي مـن غيـر ميعــادِ [12]

لـم يكُـن الـــوردُ غـدا قاعِداً واعتقـدوا فـي جهلهِم قـاعِـــدا
لكـن رأى النرجُـسَ لمّــا بـدا فخَـــرّ من هيبتِـهِ سـاجـدا [13]

ماالعيشُ إلا خمسةٌ لا سادسٌ لهمُ وإن قصُرتْ بها الأعمارُ
زمنُ الربيع وشَرْخُ أيام الصِّبا والكاسُ والمَعشوقُ والدينارُ [14]

لأيّــةِ حـالٍ والـوفـــا شِـعــارُهُ بدا لــيَ منـهُ صـــدُّهُ وازوراره
وكيف استحالَت لااستحالت عهودُهُ وأوحشـني مـن بعـدِ أُنسٍ نِفـارُهُ
لأيِّ حـــالٍ والوفــــاءُ دائمـــاً شـــعارُهُ
أمــــرضنـــي هجـرانُـهُ وشـفّـــني ازورارُهُ
وكيـف حــــالَ عهــــدُهُ ودرسـتْ آثـارُهُ
وأوحـــــشَ الصّبَّ الذي آيســـهُ نِفــــارُهُ
وما زلــتُ أرعــى عهـــدَهُ ووداده وتُطربُني في القُرب والبُعد دارُهُ
وما أُضرمَتْ نـارٌ وشـبّ ضِرامُها لعينيّ إلا قُلـتُ هاتيك نـــــارُهُ
رعيـتُ عهـدَهُ فـمـا وفــى بـــه غـــدّارُهُ
وهِـمْـــتُ إذ أطربــنـــي مَلعَبُــــهُ ودارُه
ومــــا بـــــدا لَمْـعٌ فشَــبَ عاليـــاً أُوارُهُ

إلا وقُلـتُ مـن هــوىً هـا قـد تبَــدّتْ نـارُهُ
حيثُ مُنــاي أن يـزورَ خيـالُـــهُ ويقــرُبُ نـاديـه ويدنـــــو مَـــزارُهُ
وأقصى الأماني أن يَرِقّ لعاشقٍ جفا إذ جفـاهُ نومُــــهُ واصطبــارُهُ
شــفـاءُ قلبـــي أن يظــــلَّ دانـيـــاً مَـــــزارُهُ
عســـــاهُ يـــرثـــي لفتىً قد خانــهُ اصطبارُهُ
مُتيّـمٌ أذابَـــهُ فـــي بُعــــده تَـــــذكـارُهُ
وأظـهــرتُ أدمُعُــهُ إذ كُتمــــتْ أســــرارُهُ
سـقى اللهُ أيامـاً تقَضّـت بقُربه إذ الشملُ مجموعٌ وإذ أ نا جارُهُ
ليالي أضللتُ الهُمومَ ولم أدَع وَقاراً ومَن يهوى يضِـلُّ وقارُهُ
سـقى زمــانَ عهــده مـن الحيـــــا مِـــدرارُهُ
وســـلّم اللهُ على العيـــش وأنـــت جــــارُهُ
أيّــــامَ همّـــي نـــــازحٌ عنّـــيَ وادّكـــارُهُ
ولا وقـــــارٌ ، والــذي يهــوى فـمـــا وَقارَه [15]

هــويتُهـا كالبـدرِ في حُسنِها أخطأتُ بـل أبهى من البدرِ
كأنّهـا الشــمــسُ ولكنّهـــا تبـدو على غُصن نقاً خُضر
فاقتْ على كل مِلاحِ الورى وفــاقَ فـي أوصافِها شِعري
في ثغـرِها دُرٌّ وفـي لفظِهــا دُرٌّ وفـــي نظمـي وفـي نثري
وفــــي معانيهـا وما قُلتُـهُ في وصفِها ماشئتَ من سحرِ

في رثاء الخواجه نصير الدين الطوسي والملك عزّ الدين عبد العزيز:

ولمّا قضى عبد العزيز بن جعفرٍ وأردفـ ـــهُ رُزْءُ النصيــر محمــد
جزِعـتُ لفقدان الأخــــلاّء وانبرت شُـوؤني كمُرفضّ الجُمان المُبَــدّد
وجاشَــتْ إلـيَّ النفسُ حـزنـاً ولوعةً فقلتُ تعزَّي واصبـري فكأن قــدِ 17

" **وقُلتُ من أبياتٍ في المخدوم الصاحب شمس الدين [الجُويني] صاحب الديوان [يعني ديوان العراق] أعزّ الله نصرَه** " :

وليلٍ غُــدافـيّ الإهـــاب ارتديتُـهُ وصَحبي نشاوى من نُعاسٍ ومن لَغْبِ
كأنّ السّماء اللازُورديّ مطــرفٌ وأنجُمُهُ فيه دنـــانيـــرُ مــن ذهب
قـــد اطَّردتْ فيـه المَجَـرّةُ جدولاً فـــلاحَ عليها مـن مـن كواكِبِها جَنَب
كـأنّ ســوادَ الليـل زُنـجٌ بـدا لهم من الصُبح تُـركٌ فاستكانوا إلى الهرب
كـأنّ ضياءَ الشمـس وجـهُ محمـدٍ إذا أمّـه الرّاجـــي فأعطاهُ ما طلب 18

" **وقُلتُ من أُخـرى في مدحتِه عزّ نصره** " :

بـــاتَ يجلـو لـــــيَ مـــن ريقتِـــهِ قهـوةً تُعصَــــرُ مـــــن وجنتِـــهِ
رشـأٌ بـــابـل تــروي ســـحـــرهـا عــن حديث السِّحر مــن مُقلتِهِ
ظـلّ قلبـي فــي ديـــــاجي شعره واهـتــدى بالصُّبـحِ مــن غُــرّتِــهِ
أســـــهرتنـي سِـنَـةٌ مــن طـرفِــهِ وحَمَـتْ طـرفيَ فـي رقــــــدتِــهِ
سـقمٌ فــــي جفنـــــهِ أعـرفُــــهُ تُجتَنــى الأســــــقامُ من صحّتِهِ
رِقّــــــةٌ فـي خـــــدِّهـا يُنكرُهــا قلبُــهُ المُســــــرفُ فــي قسوتِــهِ
لـــم أكَــد أعـرفُ ما طعـمُ الكرى مُـــــذ تمادى في مـدى جفـوتِــهِ
رُبَّ حُسْـــنٍ مُرسَــــلٍ من شعـره مُرسِــلُ وجــــــديَ مــن آيتِــهِ

حاكِـــمٌ فــــي دولـة الحُسْـن كما   يحكُـمُ الصـاحـبُ في دولتـهِ [19]

" **ومن غَزَلٍ أُخــرى في المخدوم الصاحب علاء الدين [عطا ملك الجويني] أعـــــــزّ الله أنصارَه** " :

مُحيّاكَ أم بـدرُ ، رُضابُــكَ أم خمرُ   وحُسْنُ تَثَـنٍّ فـي قوامِكَ أم سُـكْرُ
ونـاظِرُكَ التُـركـي أم حَــدُّ صـارمٍ   وهــذا فُتُورٌ في لِحاظِكَ أم سـحرُ
وهـل بَـرَدٌ فـي فِيكَ أم سِمْطُ لـؤلـؤٍ   وهــل عـن ثنـايـا أم أقاحيَ تفتَرُّ
وشـعرُكَ أم ليـلٌ تضِـلُّ بـه الورى   ووجهُك أم صبْحٌ به يهتدي السُّفْرُ
يميناً لقد حيّرتنـي فــي محـاسِـنٍ   مُنِحْـتَ بهـا يعيا بأوصافِهـا الفكرُ
فخـدُّاك وردٌ واللــواحـظُ نـرجِــسٌ   وصدغـاك ريحانٌ وريقتُك الخمرُ [20]

" **ومن شِـعري** " :

إنّ فـي الــــرُّزءِ بالحسين الشّـــهيدِ   لعَنــــــاءٌ يودي بصبـر الجَليــدِ
إن رُزءَ الحســـين أضـــــرم نــــاراً   لا تَنــــي في القـلـوب ذات وقودِ
إنّ رُزءَ الحســـين نجـلَ علــــيٍّ   هـــــدّ رُكنــاً مــاكان بالمَهـدودِ
حــــادثٌ احـــزنَ الــولـــيَ وأضنـا هُ وخَطــبٌ أقَـرَ عيـنَ الحَسـودِ
يـالهـــا نَكبــــةٌ أباحَــت حِمـى الصّ برِ وأجرتْ مَــدامِعـاً فـي خُـدودِ
ومُصـــاباً عـــمّ البــريّـــةَ بالـحُـــز نِ وأغـــرى العُيــونَ بــالتّسـهيدِ
يــــاقتيـلاً ثـــــوى بمَقتَـــله الدّيـ ـنُ وأم سى الإسلامُ واهــي العمـودِ
ووحيـداً فـي مَعشَــرٍ مــن عـــدوٍ لهـفَ نفســي على الفريدِ الوحيدِ
ونـزيفـاً يُسـقى المَنيّــةَ صِـرفــاً   ظامياً يـرتـ ـوي بمـاءِ الوريـــــدِ
وصــريعــاً تبكــــي السّـماءُ عليهِ   فتُـروّي بالدمـع ظــامـي الصّعيدِ

وغــريبــاً بيـن الأعـــادي يعـانــي منهـمُ مـا يُشــيبُ رأسَ الــوليـدِ
قتلـــــوهُ مــعْ علمهـم أنّهُ خيــ ـرُ البرايـا مـن ســ ـــيّدٍ ومَسـودِ
واستباحـوا دمَ النبـيّ رســــــول الله إذ أظهـروا قديـ ـــمَ الحقـودِ
وأضـــاعوا حــقَّ الـرسولِ التزاماً بطليـقٍ ورغبَـــةً فــي طَــريــدِ
وأتـــــوهـا صَمّـاءَ شَـنعاءَ شــوها ءَ أكـانـتْ قـلوبُهـم مـن حــديدِ؟
وجرَوْا في العَماءِ إلى الغاية القُصـ ـوى أمـا كان فيهمُ مــن رشــيدِ؟
أسـخطوا اللهَ فـــي رضى ابنَ زيـادٍ وعَصَـوهُ قضـاءَ حـقِّ يـــ ـــزيدِ
وأرى الحُـــــرَّ كـــــان حُـرّاً ولكنّ ابنَ سَــ ـعْدٍ فيِ الخزي كابنِ سعيدِ[21]

" **قُلــتُ** " :

مَديـحُ علـيّ بــن الحُسـين فريضـةٌ   عَلَــيَّ لأنّـــي مـن أقـــلِّ عبيــدِهِ
إمــامُ هُـــــدىً فـــاقَ البَريّـةَ كُلّها   بــأبنائـهِ خيـرَ الـــورى وجُـدودِهِ
فطــارِفُهُ في فضلـهِ وعـــــلائِــــهِ وسُـــــؤدُدِهِ مـــن مجــــدِهِ كتليــدِهِ
لـــه شـــرفٌ فـوقَ النجـوم محلُّـهُ   اقـــرّ بــــه حتـى لسانُ حسودِهِ
ونُعى يــدٍ لـو قيسَ بالغيث بعضُها   تبيّنتَ نَجلاً فـــي السّحاب وجُودِهِ
وأصلٌ كريــمٌ طـاب فرعـاً فأصبحت   تحارُ العُـقـولُ من نضـارةِ عُودِهِ
ونفسٌ بـــراهـــا اللهُ من نُورِ قُدسِهِ   فـأدركت المكنون قبل وُجــــودِهِ
جـرى فونى عـن جَريهِ كلُّ سـابقٍ   وقصّـرَ عن هادي الفِعال رشيدِهِ
وأحــــرز أشــتاتَ العُلــى بمآثــــرٍ   بدا مجـدُها فـي وعـدهِ ووعيــدِهِ
من القوم لـو جاراهُمُ الغيثُ لانثنى   حسيراً فلم تسمع زئيـرَ رُعُــودِهِ
هـمُ النّفرُ الغُرُّ الكِــرامُ الذي بهم   ورى زنـدُ ديـــنِ الله بعد صُلودِهِ
أقـاموا عمودَ الـدّين فـاتّضحَ الهُدى   ولولاهُمُ أعشــى قيـــامُ عمـــودِهِ

بهم وضُحتْ سُبلُ المعالي فسَل بهم   تجِدْ كلَّ بــانٍ للعلاء مُشــيدِهِ
سمَتْ بهم حالٌ إلى مرتَقى عُلىً   تقاصرتْ الشُّهبُ العُلى لصعودِهِ
بهم تُدفَعُ اللأواءُ عنــد حُلولِهــا   وينهلُّ صَوبُ الغيثِ بعدَ جُمودِهِ
أمولايَ زينَ العابـــدين إصاخَــةٌ   إلــى ذي ولاءٍ أنت بيتُ قصيدِهِ
مُقيمٌ على دينِ الولاء مُحــافظٌ   يُناديكَ مــن نــأيٍ المحلّ بعيدِهِ
يُحبُّك حُبّــاً صادقاً فهو لا يني   إليك مــع الأيّام لافــتَ جيدهِ
يــودُّ بـــأن يسعى إليك مبــادراً   إلى جَوبِ أغوارِ الفلا ونُجُودِهِ
يُقبّلُ إجـــلالاً مكانـــاً حللتَــهُ   ويكحلُ عينه بتُرب صعيــده[22]

" **قُلتُ في مدح الإمام الحسن بن علي عليه السلام مُعتذراً من التقصير** " :

أيا ابنَ الأكرمين أقِـــل عِثــاري   فتقصيري علــى الحالَيــن بــادِ
وكيف أُطيقُ أن أُحصي مــزايــا   خُصصتَ بهــنّ من بينِ العبــادِ
لـــك الشّرفُ الـذي فاقَ البرايـا   وجلّ عُلىً علــى السبع الشِدادِ
سبقتَ إلــى المفاخر والسّجايا الـ ـكريمة والنّدى سَـــبْقَ الجــوادِ
وجُودُ يديكَ يقصُرُ عــن مداه   إذا عُــدَّ النّدى صَوْبَ الغـــوادي
وبيتُــك فــي العُلــى سامٍ رحيبٌ   بعيدُ الذّكرِ مُــرتفعُ العِمــادِ
أبوكَ شـــأى الورى شرفاً ومجداً   فأمسى في العُلى واري الزّنـادِ
وجـــدُّكَ اكـــرمُ الثّقليَن طُـــراً   أقرّ بفضلـهِ حتــى الأعـــادي
إلى الحسنِ ابن فاطمــةٍ أُثيرَت   بحقٍ اينُقُ المِدح الجِيــــادِ
تُؤمُّ أبـــا محمدٍ المُـــرجّــى   حَمَـادِ لها ومَنْ أمّتْ حَمَـــادِ
اقـــرّ الحاســـون لـــه بفضلٍ   عــوارفُـهُ قلائـــدُ في الهوادي
بكم نـــالَ الهدايةَ ذو ضــلالٍ   وأنتم ناهجوا سُـــبْلَ الرّشاد

وأنـتـم عِصمَـــةُ الرّاجـي وغَـوثٌ يفـوقُ الغيــثَ فـي السنة الجمادِ
محضتُكـــمُ المـــودّةَ غيــرَ وانٍ وأرجــو الأجـرَ في صِـدق الوِدادِ
وكـــم عانـدتُ فيكُم مـــن عــدوٍ وفيكـم لا أخــــافُ مــن العِنـادِ
ومَـــنْ يــكُ ذا مُـــرادٍ فـي أمُـورٍ فـإنّ ولاءَكـــم أقصى مُــرادي
أُرجّيكـــم لاخـــــرتي وأبغـــــي بكُم نَيْـلَ المطالب فـي مَعادي
ومـــا قـدّمـــتُ مـن زادٍ ســـــواكم ونِعمَ الزّادِ يومَ البعث زادي [23]

" **في مديح الإمــــام الجواد عليه السلام** " :

حمَـــادِ حَمَـــادِ للمُثنـــي حَمَـــادِ على آلاء مولانــــا الجـــوادِ
إمـــامُ هُـــدىً لــــه شرفٌ ومجـدٌ علا بهما على السبع الشّدادِ
إمــــامُ هــدىً لــه شـرف ومجــدٌ اقـرّ بـهِ المُـــوالي والمُعــادي
تَصـــوبُ يـــداهُ بالجـدوى فتُغنـي عن الأنواءِ في السنة الجَمَــادِ
يُبخّـــلُ جُـــودُ كفيّـهِ إذا مـــــا جرى في الجُودِ مُنهلُّ الغوادي
بنـــى من صالِـحِ الأعمال بيتـاً بعيد الصّيت مُرتفع العِمــادِ
وشــــاد مــن المفـاخـر والمعـالـي بنـاءً لم يُشِدْهُ قـومُ عـــــادِ
فـــواضـلُـهُ وأنـعُـمُـــــهُ غِـــــزارٌ عهُـدنَ أبَـرَّ من سَحِّ العِهــادِ
ويُقــــدِمُ فـي الـوغـــى إقـدامَ لـيـثٍ ويجري في النّدى جَري الجوادِ
فمَـــن يرجـــو اللِّحاق بــــه إذا ما أتى بطـريفِ فخرٍ أو تــلادِ
مـــن القـــوم الذيــــن أقـرّ طوعاً بفضلِهمُ الأصادقُ والأعادي
أيـــــاديهم وفضلُهُـــــمُ جميعـــاً قلائدُ مُحكَمـاتٍ في الهوادي
بهـــــم عــرف الـورى سُبُلَ المعالي وهم دلّوا الأنـامَ على الرّشـادِ

وهـــم أهـــلُ المعـالي والمعانـي وهـم أهـــلُ العطـايا والأيـــادي
سـموا فـي الحِلـمِ قيسا وابنَ قيـسٍ وإن قالـوا فمـا قِـــسُّ الإيـــادي
وهـــذا مذهـبُ الشُّـعراءِ جـــارٍ وأيـــن مـــن الرُبـى خُفْضُ الوهاد
لـهم أيـــدٍ جُبلـــنَ علـــى سماحٍ وأفعـالٍ طُبعن علـــى سَـــدادِ
وهـم مـــن غير مـا شـــكٍ وخُلفٍ إذا أنصفـــتَ ســـاداتُ العبـــادِ
أيــــا مــــولاي دعـــوةَ ذي ولاءٍ إليكـــم ينتمـــي وبكـم يُنـــادي
يُقـــدّمُ حبكـــم ذُخـــراً وكنزاً يعـــودُ إليـه فـي يـــوم التنـادي
جــــرى بمديح مجــــدكمُ لساني فاصبـح ديـدنـي فيكم وعــــادي
ففيكـم رغبتـــي وعلـــى هـواكم مُحافظتـي وحبكـــمُ اعتقــــادي
إذا محضَ الودادَ الناسُ قـــومـــاً محضتكـــمُ وإن سخِطـــوا ودادي
وكيف يجـــورُ عـــن قصدٍ لساني وقلبي رايـــحٌ بهـــواك غــادي
وممّـــا كانـت الحُكمــــاءُ قالـت لســـانُ المــــرءِ مـن خَـدمِ الفؤاد
وقـــــد قــــدّمتُكُـم زاداً لســـيري إلـــى الأُخـــرى وعَمَّ الـزّادُ زادي
فانتـــم عُـــدّتـي إن نـــاب دهري وأنتم إن عَ ـــرى خطبٌ عِتـــادي[24]

" **وقد مدحتُ مولانا أبا الحسن [الهادي] عليه السلام بما أرجو ثوابَه في العاجل والآجِل . وهـــو** " :

يـاأيُّهـذا الرّائــح الغــــادي عَـرّج علـــى سيّدِنـا الهادي
واخلـع إذا شـارفتَ ذاك الثرى فِعْـلَ كليـم الله فـــي الـوادي
وقبّـل الآرضَ وسِـــف تُربـةً فيهـــا العُلـى والشّرف البادي
وقُلْ سلامُ اللهِ وقْـــفٌ علـى مُســتَخرَجٍ من قلب أجـــوادِ
مؤيّـــدِ الأفعـال ذو نائِـلٍ في المَحْلِ يروي غُلّة الصّادي

يفوقُ في المعروف صــوبَ الحَيا
السّــــــاري بـــــإبـــراقٍ وإرعـــادِ
وفـي النــدى يجـري إلـى غايــةٍ بنفس مـولـى العُرف مُعتـادِ
يعفو عن الجاني ويُعطي المُنى فـــي حالتَـي وعـــدٍ وإيعـادِ
كـانّ ما يحـــويــه مــن مالِهِ دراهـــمٌ فـ ـي كـــفِّ نَقّـــادِ
في البـأس يُردي شـأفةَ المُعتدي بصـــــولَـةٍ كـــالأسد العادي
مُبـارَكُ الطّلعـــةِ ميمـــونُهـا ومــــاجدٌ مـن نسْلِ أمجادِ
من معشَرٍ شـادوا بناءَ العُـلى كبيـرهُم والنّاشــئُ الشّـادي
كـأنّمــا جُــــودُهُـمُ واقِـــفٌ لمُبتَغـي الجُـودِ بمـرصـادِ
عمّــتْ عَطـاياهُم وإحسـانُهُم طِــــلاعَ أغـــوارٍ وأنجادِ
فـي السِّـلمِ أقمـارٌ وإن حاربوا كـــانـت لهـم نجدة آسـادِ
ولاؤهُـم مـن خيـرِ ما نِلتُـــهُ وخيـرِ ما قـــدّمتُ من زادِ
إليهـمُ سـعيي وفـــي حبّهِــم ومـــدحِهِم نصّـي وإسنادي
يـا آلَ طـــه أنتمُ عُـــدّتـي ووصفُكُـم بيـن الورى عـادي
وشُــكركُـم دأبـي وذكـري لكم قـلائـدٌ مُحكَمـــةٌ في الهوادي
ويُعجِبُ الشّـيعةَ مـــا قُلتُــهُ فيكُــم ويسـتحلون إيـــرادي
بـــدأتُمُ بـالفضـلِ وارتحتُـــمُ إلـى العُلـى والفضـلُ للبادي
ولــــي أمــانٍ فيكمُ جَمّــةٌ تقضـــي بإقبالـي وإسـعـادي
وواجـبٌ فـي شَـرعِ إحسـانِكُم أنــالنـي الخيـرَ وإمــدادي
لا زال قلبـــــي لكُـمُ مسكنـــاً
فـــــــي حالتَـي قُـربـي وإبعـادي [25]

" وقـد نظمتُ شعراً في مدح الإمام العسكري عليه السلام وهو" :

يـــاراكبـاً يمشـي علــى جَسْـرةٍ قـــد غبّـرَتْ في أوجُـه الضُّمْـرِ
عـــرّج بســــامرّاءَ والثُم ثـــرى أرضِ الإمـــام الحسن العسكري
عـــرّج علــى مَــن جَـدُّهُ صاعدٌ ومجـــدُهُ عـــالٍ علــى المُشـتري
علــى الإمـامِ الطـاهـرِ المُجتبى علـى الكريـم الطّيّـبِ العُنصُــرِ
علـــى ولـــيّ الله فــــي عصره وابـنِ خِيـارِ الله فـــي الأعصُـــرِ
علـى كـريـــــمٍ صَـوبُ معروفِهِ يُربي علـى صَـوبِ الحيا المُمطرِ
علـــى إمــــامٍ عَـــدْلُ أحكامِهِ يُســـلّطُ العُرفَ علـــى المُنكَـــرِ
وبلّغَـــنْ عـــن عبــدِ آلائِـــهِ تحيّــــةً أزكــى مــن العنبــــرِ
وقُـــلْ ســــلامُ الله وَقـــفٌ على ذاك الجنـاب المُمـرعِ الأخضــرِ
دارٌ بحمـــــد الله قـــد أُسَـسَـت علـى التقــى والشّـــرفِ الأظهَرِ
مـــن جنّــةِ الخُلـد ثـرى أرضِها ومــــاؤها من نَهَـــرِ الكـــوثـرِ
حــــلّ بهـا شخصـان من دوحةٍ أغصـــانُهـــا طيّبَــةُ المَكسَـــرِ
العســــكريّـان هُمــا مـا هُمـا فطـــوّل التّقريـظَ أو فاقصُــــرِ
غصنــــا عَـــلاءٍ قمـــرا سُدفَةٍ شمسـا نهــــارٍ فارسا مِنبَــــرِ
مــن معشَــرٍ فاقــوا جميعَ الورى جَـلالَـــــةً نـاهيكَ من مَعشَــرِ
هـمُ الأُلــــى شـــادوا بِنـاءَ العُلى بالأبيـــضِ الباتِـرِ والأســـمرِ
هـــــمُ الأُلـى لولاهـمُ فـي الـورى لـم يُعــــرَف الحـقُّ من المُنكَرِ
هـــــمُ الأُلـى لولاهـــمُ في الورى لــم يؤمـن العبـدُ ولـــم يكفُــرِ
هــمُ الأُلــــى ســـنّوا لنا منهجاً بواضـــــحٍ مـن ســعيِهِم نَيِّــــرِ
هـــمُ الأُلــى دلّـوا علـــى مَذهبٍ مثـل الصّبـاح الواضـحِ المسفِــرِ

فـــــاتّضـحَ الحـــقُّ لـــــوُرّادِهِ ولاحَ قصــــدُ الطالــب المبصــــرِ
أخـــــلاقُهُم أتّـى أتـــى سـائِـلٌ مثلُ الـربيـع اليـانِـعِ المُـزهـرِ
يــــاســــادتي إنّ ولائـــي لكـم من خيــــرِ مـا قــدّمتُ للمَحشَرِ
أرجــو بكـم نيْــل الأمـاني غداً فــي مَبعَثي والأمـنَ في مَقبَــري
فـــأنتـمُ قصــــدي وحبّـــي لكم تجـارتي والربــحُ فـــي مَتجــري
والحـمــــدُ لله علـــى أنّـــــهُ وفّقـنـــي للغــرَضِ الأكبــرِ 26

" **ومـن شـعرٍ قُلتُـهُ فـي أيّـام الحَـداثَـة لــم أذكـر غَـزَلَهـا** " :
وإذا ما الشــبـابُ ولّـــى فمـــا أنـت علـى فِعْــلِ أهلِـه مَعذُورُ
فـاتِّبـاعُ الهوى وقد وخطَ الشيبُ وأودى غُصــنُ التّصابي غُــرورُ
فـالْــهُ عــن حـاجِرٍ وسَلْعٍ ودع وصـلَ الغـواني فوصلُهُنّ قصيرُ
وتعــرّض إلـــى وَلاءِ أُنـــاسٍ حبـلُ معـروفِهِـم قـويٌّ مَــريــرُ
خِيــــرَةُ الله فـــي الأنـامِ ومَن وجـــــهُ مولاهُـمُ بهـيٌّ مُنيـــرُ
أُمَنــــاءُ الله الكِــــرام وأربــابُ المعـــــالي وفضلُهُم مَشـــهورُ
المُفيــدون حيـن يُخفِقُ سَـعيٌ والمُجِيـرون حيـن عَـزّ المُجِيرُ
كَـرُمـوا مَــولِـداً وطـابوا أُصولاً فبُــطـــونٌ زكيّـــةٌ وظُهــــورُ
عِتْـرَةُ المُصطفى وحَسْبُك فخراً أيُّهــــا السّائِلُ البشيرُ النّذيـــرُ
بعلــــيٍّ شـيدَتْ معالِمُ دين اللـــــــه والأرضُ بالأعِنــــادِ تَمُـــورُ
وبــــهِ أيّـــدَ الإلــهُ رسـولَ اللــــــه إذ ليــس للإلـــــه نَصيـرُ الله إذ ليـس في الأنــا
وبـأسـيافِهِ أُقـيمـتْ حُــــدودٌ صعــرت بُرهـةً وخَرّت نُحـــورُ
وبـــأولادِهِ الهُــــداة إلــى الحــــــقِّ أضـــــاءَ المُستَبهِمُ الدّيجــورُ
ســـــلْ حُنَينـاً عنــه وبدراً فما يُخبِرُ عمّا سـ ــألتَ إلا الخبيرُ

إذ جـــــلا هَبْـوةَ الخُطوبِ وللحـــــربِ زِنـــــادٌ يشِـبُّ منها سعيـــرُ
أســــدٌ مـالـهُ إذا استفحلَ الـنـــــــاسُ سـوى رَنّـــــةِ السّلاح زئيـــرُ
ثابِــتُ الجـأش لا يُــروّعـه الخَطْـــــبُ ولا يعتريــهِ فيـــــــهُ فُتُـــــورُ
أعـربَ السيفُ منـــــهُ إذ أعجمَ الــــــرمــحُ لأنّ العِـدى لديهم سُـــطورُ
عَــزَمـــــــاتٌ أمضــــى من القَدَر المَحتـــــوم يجــري بحُكمِـها المَقـدورُ
ومـــــزايـا مَفاخـــرٍ عطّـرَ الأُفـــقَ شـذاها يُخـالُ فيهـــــا عَبيــــرُ
وأحـــادثُ سُـــؤدَدٍ هي في الدُنيـا علـــى رُغــــم حاسـديــهِ تسـيرُ
وتـــــرى المُشـركين يبغـــون رضـــى الله تعـالـــى وأنّـــــهُ مَـوتُـــورُ
حســدوهُ علـــــى مَآثِـرَ شـتّى وكفـاهُمْ حِقـداً عليهِ الغديــــرُ
كتمــوا أدواءَ دَخْلِهِـم وطـــووا كَشــحاً وقالوا صَـرْفُ الليالي يـــدورُ
ورمـــــوا نَجْلـهُ الحسـين بـاحقـــــادٍ تبـــوحُ النّيـران وهـــــي تفـورُ
لـهْفَ نفسي طُولَ الـزمـان وينمو الحُــــزنُ عنـــدي إذا أتـــى عاشُورُ
لـهْفَ نفسي عليهِ لَهْفَ حزينٍ ظلّ صرفُ الـرّدى عليه يجـــــورُ
أســفاً غيـــر بالِـــغِ كُنْـــهَ مـــــا أُخفـي وحُزناً تضيقُ عنهُ الصُّدورُ
يـا لهـــا وَقْعَـة لقـد شـملَ الإســـلامَ منها رُزءٌ جلـيـلٌ خطيــــرُ
ليثُ غـابٍ تعيثُ فيـه كلابٌ وعظيـمٌ ســـطا عليـــه حقيـــرُ
يـــابَنـي أحمـدٍ نـــداءُ ولـــيٍّ مُخلِـــصٍ جَهــرُهُ لكم والضميرُ
لكـــمُ صِـــدقُ ودّهِ وعـلـــــى أعـــــدائِكم سـيفُ نُطقـهِ مشـهـورُ
وهـــواكم طـــوقٌ لـــه وسِوارٌ وعليـه مـــن المَخـاوف سُـورُ
أنـتـمُ غـوثُـــهُ إذا أخفـقَ السّعيُ وأضحـى فـي فعلِـهِ تقصيرُ
أنتـــمُ عَـونُــــهُ إذا دهمتـــــــهُ حـــادثاتٌ وفـــاجأتـهُ أُمــورُ
أنـتـــمُ غـــوثُــهُ وعـروتُهُ الوثــــــــقــى إذا مـــا تضمّنتـهُ القُبـورُ

وإليكـــم يُهدي المـــديحَ اعتقـاداً وبكـم فـي مَعـ   ـــادِهِ يستجيــرُ
بعلــــــيٍّ يـرجـو علـيٌّ أمــانــاً من سـعيرٍ شـرارُها مُستطيرُ [27]

___

هوامـــشُ الفصــل

1 ــ التذكرة الفخريّة / 260 ـ 61 .

2 ـ نفســه / 432 .

3 ــ أيضاً / 421 ــ 22 .

4 ــ أيضاً / 262 ـ 63 .

5 ــ أيضــاً / 270 ـ 71 .

6 ــ أيضاً / 271 ــ 72 .

7 ــ أيضاً / 132 .

8 ـ أيضاً / 431 ـ 32 .

9 ــ أيضــاً / 273 ــ 74 .

10 ــ أيضــاً / 255 ـ 56 .

11 ــ ايضاً / 250 .

12 ــ رسالةُ الطيف / 101 .

13 ــ التذكرة الفخريّة / 387 ــ 88 . عكسَ في هذين البيتين معنىً لأحد الشعراء في تفضيل الورد على النرجس .

14 ــ شذرات الذهب : 5 / 383 .

15 ــ التذكرة الفخرية / 275 ـ 76 .

16 ــ رسالةُ الطيف / 78 .

17 ــ الحوادث الجامعة / 416 .

18 ــ التذكرة الفخريّة / 449 ــ 50 و رسالة الطيف / 135 .

19 ــ التذكرة الفخريّة / 261 ــ 62 .

20 ــ نفســه / 256 .

21 ــ كشـفُ الغُمّـة : 1 / 609 ـ 610 .

22 ــ نفسه : 2 / 656 ـ 57 .

23 ـ أيضاً : 1 / 549 .

24 ـ أيضاً : 2 / 882 ـ 83 .

25 ـ أيضاً : 2 / 908 .

26 ـ أيضاً : 1 / 609 ـ 10 .

27 ـ الغدير : 5 / 688 ـ 89 .

عبّاس بن محمد االقَرَشــي

(مُـدثـــــر)

(1244ـ 1299 هـ / 1828ـ1881 م)

الشاعر

1 ـ الاسمُ وإشكاليّاتُـه

عباس بن محمد القَرَش ـي ، هوذا الاس ـم الذي تذكرهُ له كافةُ المصادر . ويُضيف بعضُها إلى الاسم ذلك اللقب الغريب ، الذي يُمكن قراءتُه على نحو اسـم المفعول أو اسـم الفاعـل : " المُدثَّـر " أو " المُدَّثِّـر". ولـــم نقَعْ عليه مشكولاً أو مُبيّناً بأيّ نحو في أي مصدر من المصادر لنقطعَ في الأمـر . وإن كنّا نرجحُ الثاني لأنّه من لغة القرآن وممّا خوطب به النبي صلوات الله عليه وآله . ممّا يمنحهُ سبباً مقبولاً لاختياره لقباً له .

وعلى كل حال فإن اتخاذ الشعراء الع رب عموماً لقباً كهذا أمرٌ غير مألوف . ولعلّ الشاعر قد اقتبسه من الشعراء الإيرانيين ، الذين درجوا على اتخاذ اسمٍ فنّيٍّ خاصٍّ بكلٍّ منهم ، كثيراً ما يُذيّلون به قصائدَهم ، ومن هنا سُمّي (اسم التخلُّص) ، ليكون بمثابة توقيعٍ للفنّان على عملِه . ونحن نعرفُ أنّه عاش في ذلك البلد مُـدداً مُتفاوتة . وإن يكُن لم نرَهُ قد ذيّل به أيَّ قصيدةٍ من قصائدِه بلقبه لكي نعتبره اسمَ تخلُّص .

و " القَرَشي " نسبةً إلى عشيرةٍ من عشائر جنوب العراق ترجعُ بنسبها إلى ربيعة ، تُعرَف محلّيّاً بـ (القريشات) يلفظونها هناك بما يُشبه الجيم اليمانيّة ، التي تُكتَبُ بالكاف مع خطٍّ مائلٍ فوقها . وأُسرة الشاعر من الأسرات النجفيّة المعروفة ، أنتجت العديد من الأدباء والفقهاء وما تزال ، ممّن يجدُ القارئُ الرّاغبُ ذكرَهم في (معجم رجال الفكر والأدب في ألف عام) للدكتور هادي الأميني[1] . وغنيٌّ عن البيان بعد ما قُلناه أعلاه أنّ أصلَ الأُسرة يرجعُ إلى جنوب العراق ، مثل كثيرٍ من الأُسرات النجفيّة . ودائماً كان الجنوب خزّان النجف في مثل هذا وغيرِه ، بل خـزّان العراق كلّه في الشعر وبعض الفنون .

نقول كلَّ هذا على " القرشي " ، مع علمنا بأنّ الشاعر قد زعم في بعض شعره ، الذي قاله في إحدى أسفارِه ، أنّه ينتسب إلى قُـريش القبيلة الحجازيّة ، قال :

أنا الفتى مـن قُريشٍ طاب محتدُهُ في ذروة المجـد بين العمّ والخالِ [2]

كما ألمحَ إلى شيءٍ من ذلك إلماحاً حيث قال :

أتُنكِـرُ فخـرَ قـريـش البِطـاح جهـلاً إذا فخـرتْ فخـرَها

إذا شـئتَ فاطمـسْ نُجـومَ السّما بكفّـكَ واسـتُرْ بهـا بـدرَهـا [3]

وما من ريبٍ عندنا في أنّ الشاعرَ قد اندفع إلى هذا الزّعم الباطل ربما رغبةً منه في تحسين صورتِهِ أمـامَ مَن عرفهم وعرفوهُ في أسفارِه . خمّنّا ذلك لأنّ النسبةَ إلى قريش لم تكُن ممّا هو موضع فخر في وطنه .

---

2 ــ عصرُه

عاش القرشي في الفترة التي كان فيها كلُّ المشرق العربي تحت الحكم العثماني . والذي لديه أدنى معرفة بتاريخ تلك الفترة يعرفُ كم كانت قاسيةً على الناس . ما مرّ يومٌ على العرب تحت الحكم العثماني ليس فيه حيف . وذلك بسبب السّمات الثقافيّة الفظيعة التي صبغتْ العقل العثماني ، جَرّاءَ ضعف خبرتهم التاريخيّة بفنّ الحكم . كانوا شعوباً تعيش حياةً رعويّةً في سهوب آسية الوسطى الشاسعة المُوحشة ، واكتسبوا وضع إمارة على حُدود الدولة الروميّة البيزنطيّة تحت شعار الجهاد ، ولمّا نجحوا بمعونةٍ من غيرهم في إسقاطِها واحتلال عاصمتِها القسطنطينيّة صاروا أباطرة . ولكنهم ظلّوا في أعماقِهم رُعاة يُربّون الخِراف للاستفادة من ألبانِها وأصوافِها ، ثم لا تكون نهايتُها على أيديهم إلا الذّبح .

من أعجب ما ابتُلي بـه المحكومون للدولة العثمانيّة أنّها جعلتهم من ثلاثة أصناف : أهلُ ملّة هم أتباع المذاهب الأربعة من المسلمين حصراً ، هؤلاء فقط يتمتّعون نظريّاً برعاية الدولة . وأروام هم كل المسيحيين بصرف النظر عن الكنيسة التي يتبعونها أو الموطن الذي يسكنونه ، هؤلاء يُديرون شؤونَهم الخاصة تحت رعاية وبإشراف كهنتهم ورجال كنائسهم . وقسمٌ ثالث هم كل المسلمين من غير أبناء المذاهب الأربعة المعترَف بها . هؤلاء مسلوبو الحقوق ، لا تعتبر الدولة أنّها مسؤولة عنهم بأي نحوٍ ، بل كثيراً ما أعلنت على رؤوس الأشهاد أنّ هؤلاء لاملّة لهم ، حسب مفهومها وتعريفها ، وأن ليس لهم عندها بالتالي إلا تطهير الأرض منهم .

هذه السياسة الخرقاء أدّت إلى وضعٍ مُؤذٍ جداً للحاكم والمحكومين . لا الحاكم ارتاح واستتبّ له الحُكم ، ولا الرعايا تمتعوا بالأمن والأمان . وما من

ريبٍ في أنّها كانت وراءَ الانتفاضات المُتوالية التي عجّلت بانهيار الدولة .

في هذا العالَم المُكفهــرّ عاش القرشي حياتَه العجيبة ذات الوجهين . فهو من جهةٍ نجح في التكيُّف تكيُّفاً مُذهلاً مع المُتغيّرات الجَذريّة فــي مُضطرَباته الأربعة : جبل عامل وإيران واسـتامبول وحلب ، وما من ريبٍ في أنّ الفضلَ في ذلك يرجعُ إلى مواهبه المُتعدّدة ولباقته . ولكنّ نجاحَه هذا كان على حسـاب الحياة الهانئة المُستقرّة التي يعملُ في سـبيلِها كلُّ إنسان . فكانت حياتُهُ اضطراباً مُؤلماً بين الأقطار . ونخالُ أنّه أثناءّها لم يكُن له طوال عُمره بيتٌ دائمٌ يرجعُ إليه في نهاية السعي في مناكِبِها شأنَ بني آدم . ولعلّهُ لم يكُن له من سلوةٍ في هذا القلق الدائم إلا الشعر . إذن فما من عجبٍ في أنّنا سمعناه يقول :

فياليتَ كُتبَ الناس كانت جميعُهــا دواوينَ من غُــرّ القصائد والشعرِ
وكانــت جميعاً لــي وكُنتُ مُوفّــراً بكثــرةِ مالــي والزيـادة في عُمري
فأقضي بها يومــي إلى الليل كلّهِ وأقضي بهـا ليلي إلى مَطلَع الفجرِ
ولســتُ أُبالـي بعـد معرفتـي بهـا إذا حان يـومي أن أُوسّدَ في قبري

---

3 ــ سيرتُـه

(1)

على الرغم من نُدرةِ المعلومات عن القرشي في النجف حيث وُلد ونشأ، ثم حياتِـه البالغة القلق منذ أن خرج من بلده ليُطوّفَ في البلدان والأقطار حتى وفاته ، ــ على الرغم من كلّ ذلك ، فإنّ لدينا من المادّة ما يمنحُنا أن نبني له سيرةً واضحةً بما يكفي . والفضلُ في ذلك يرجعُ إلـى :

ــ محمد حِرْز الدين في كتابه (معارفُ الرجال) . وهو الوحيد من أرباب المصادر الذي عرف القرشيَّ معرفةً مُباشرة ، وسجّل له سيرةً مُختصرة ، ولكنها حافلةٌ بالمعلومات .

ــ الباحثُ القدير آغا بُزُرك الطهراني في كتابيه (طبقات أعلام الشيعة / الكرام البَرَرَة) و(الذريعة)، وفيهما أودع خلاصةَ تنقيبه في الكُتُب والمكتبات بما يخصُّ سيرة الرجل وأعمالِه في الشعر وغيره .

ــ القرشي نفسه الذي ضمّن ديوانه ما يُمكن أن نستنبطَ منه أدقّ التفاصيل عن نفسه : رحلاته ، علاقاته ، هواجسه وأفكاره ، شهواته ومباذله. فجاء شعرُهُ سجلاًّ وافياً بما يَخفى عادةً من سِيَر الرجال . وقد وصلتنا نسخةُ الأصل من ديوانه هذا ، ولدينا صورة ضوئيةٌ له .

ــ معلوماتٌ سجّلها الكُتُبي أحمد وهبي الحلبي الذي عرفه أثناء إقامته القصيرة في حلب سنة 1287 هـ / 1870 م ، ثم أثناء مرضِهِ ووفاتِهِ فيها سنة 1299 هـ / 1881م ، وسجّل ما عرفه عنه وما سمعه منه .

(2)

والذي يُؤخذُ من مُجمل هاتيك المصادر وغيرها ، أنّه وُلِد ونشأ في النجف ، في أُسرةٍ ترجع بأُصولِها إلى جنوب العراق . والظاهـرُ أنّ أوّلَ مَــن

برُزَ من الأُسرة في بيئة النجف العلميّة هو الشيخ نوح بن قاسم القرشي (1213 ــ1300هـ / 1798ــ1882م) . وهو فقيهٌ جليل ومُدرّسٌ بارع ، تخــرّج عليه جَمْعٌ من الجيل التالي للفقيه البارز الشيخ محمد حسن النجفي صاحب كتاب (جواهر الكلام) . ولكن يُفهمُ من الانطباعات التي سجّلها عن الشاعر مُعاصراهُ صاحبُ كتــاب (الحصون المنيعة) وصاحبُ (معارف الرجال) أنّه لم ينصرف إلى الدّراسة الفـقهيّة شأنَ كلِّ مَن نعرفهم من أبناء بيته [5] ، بل إنهما وكلُّ مَن أخذ عنهما ، وما أكثرهم ، يصفونه بالأديب الشاعر اللغوي [6] وما إلى ذلك . وهـذه كلُّها معارفُ يُمكنُ أن تُستفاد من دراسة المُقدّمات الأدبيّة من نحوٍ وصَرف وبلاغة في برنامج الدراسة التقليدي المعمول به في النجف ، بالإضافة إلى بيئة النجف الخصبة ، بما فيها من نوادي أدبيّة ومُناسـباتٍ اجتماعيّة يُحييها الشعراء والأُدباء . إذن فنعتُهُ بـ " الشيخ " في كلّ المصادر هو من قبيل التساهُل ، ونظراً لوسطهِ الأُسَري .

وإذن فلا غَرابةَ في أن يفشلَ القرشيُّ في الاندماج في البيئة النجفيّة ، حيث لا محلّ للبروز فيها لغير الفقهاء . نعم وللأدب والأُدباء أيضاً ، ولكن على هامش الفقه والفقهاء . وإذن فلا غروَ أيضاً في أن يهجرَ وطنَه غيرَ آسِف ، بل وأن يُفلسفَ ولعَهُ بالأسفار فلسفةً فيها من التكلُّف ما فيها . ما من ريبٍ في أنّهُ لم يكُنْ لَيركبَها لو أنالتهُ بيئةُ النجف ما يرجو . فلنسمعهُ يقول مُخاطباً زوجتَه فيما يبدو :

تلومني وبلائي أنّها جهلت من التجاربِ ما أُوتيتُ في سفري
يُسرُّها أن أُقيمَ الدهرَ مُرتفِقاً وسلوَ بيتي بلا سَمعٍ ولا بصــرِ
والمــرءُ ما لم يــرَ الدنيا وساكنَها
ومـا بهـــا فهـو مَعـدودٌ من البقرِ [7]

(3)

مهما يكُن ، فإنّه في تاريخٍ ما قبل السنة 1287 هـ بمُدّةٍ غير قصيرة خرج من النجف مُيمّماً شطرَ جبل عامل . فنزل بلدة جُباع مُستأنساً ببيئتِها العلميّة الشّبيهة بالنجف ، بما كان فيها من بقايا نهضة جبل عامل الغابرة ، المُتمثّلة بأُسرة آل الحُرّ العريقة ، التي كانت قد فقدتْ مكانتَها العلميّة آنذاك ، مُخليةً الساحةَ لأُسرةٍ جديدةٍ هي آل نعمة ومُؤسّسِ مجدِها الطريف الشيخ عبد الله بن علي المعروف بالكبير (ت : 1303 هـ / 1885 م) .

في جُباع نظم أكثرَ شعرِه كما وصلنا في ديوانِه . وهو ، أعني الديوان ، حافلٌ بذكر جُباع ، وبغزليّاته الماجنة بغلمانِها وغلمان غيرها من البلدان المُجاورة [8]، وبمَدائح آل الحُرّ ، وأيضاً بهجاء آل نعمة هجاءً فاحشاً ، مع تلقيبهم غالباً بلقبهم الأصليّ آل المشطوب [9]، وبمديح كبير زُعماء جبل عامل آنذاك الأمير علي بيك الأسعد (ت : 1282 هـ / 1865م) ، الذي عُرف برغبته بالعلم والأدب وبرعايتِهِ لأهلهما ، بحيثُ راجتْ في أيامِهِ سُوقُ الشِّعر والأدب . وكان يُقيمُ في قاعدة أسلافه قلعة تبنين المُجاورة ، التي وسّعها وبنى فيها السّرايات والدُّور . وقد أتى الشاعرُ على ذكرِها مراراً في ديوانه . كما ذكر من بلدان جبل عامل بلدة القاقعيّة غير البعيدة عن جُباع ، وذكر عكّا وبيروت [10] بما يُفهمُ منهُ أنّه طرقهما ، ومعشوقةً مسيحيّةٌ له في هذه كُنيتُها (أُمّ أنطون) شبّب بها ببيتين ، نفهم منهما أنّه قطن بيروت مُدّةً ببيتٍ بجوار بيتها ، وأنّه اضطر إلى الابتعاد عنها وترْك جوارها آسفاً بسبب سفرِهِ إلى إيران لوفاة أخيه موسى فيها [11]. والحقيقةُ أنّ فترة لبنان من سيرة صاحبنا حافلةٌ بأُمورٍ وأُمور . ولا نرى من ضرورةٍ في هذه العُجالَة للغوص فيها بأكثرِ ممّا قُلناه عليها .

(4)

لكنّ الأمرَ الجامعَ بين عناصر سيرته في فترة لبنان ، أنّه كان تحت الرعاية التامّة للأمير ابن الأسعد . والحقيقةُ أيضاً أنّ كلاًّ من الأمير والشاعر قد وجد بُغيتَهُ في الآخَر . الأمير المُغرَم بالأدب وبمدائح الشعراء له ، قد وجد بُغيتَه في هذا الشاعر القادم من النجف ، بما لها عند قومِهِ كافّة ولأهلِها من صيتٍ عريض يصِلُ إلى حدِّ التقديس . والشاعر الغريب الدّار ، الذي كان السّعيُ في سبيل الرزق من الأسباب الأساسيّة على الأقلّ لضرْبِهِ في البلدان ، وجد في نفائحِ الأمير ما يرجوه وزيادة .

ممّا لاريب فيه أنّ وفاةَ الأمير المُفاجئة بداء الكوليرا في دمشق كانت نهايةَ الفترة الهانئة للقرشي في جُباع ، التي سيظلُّ يحِنُّ إليها في شعرِهِ . ويبدو أنّه غادرها بعد مُدّة ليقطُن بيروت بجوار أُمّ أنطون ، ثم ليُغادرَ هذه أيضاً مُكرَهاً أسِفاً ليتجهَ إلى إيران كما قُلنا قبل قليل . حيثُ سيبدأ مرحلةً جديدةً في حياتِه .

في شهر ربيعٍ الثاني سنة 1287 هـ / آب 1870 م " مَــرّ" ، حسبَ صديقه أحمد وهبي الحلبي الكُتُبي كاتبِ سيرتِهِ وناسخِ ديوانِه ، بحلب " **راجعاً من سياحته في البلاد الحجازيّة والمصريّة والشاميّة وجبل لبنان** " [12] . وبعد أن أقام في حلب مدة ثلاثين يوماً خرج منها قاصداً وطنَه ، ومنه اتجه إلى إيران . وفي هـذه التقى مَن سيكونُ راعيهِ عدّةَ سنواتٍ قادمةٍ ، اعني الوزيرَ العثماني مُنيف باشا ، الذي كان إذ ذاك سفيراً للدولة العثمانيّة في إيران .

إذن فدخولُهُ حلباً حصل بعد أن قضى مُدداً مُتفاوتة في تلك الأقطار ، التي ارتبك صاحبُهُ الحلبي في أسمائها ، فذكر " **البلاد الشاميّة وجبل لبنان** " ، وكأنّ هـذا الأخير ليس من البلاد الشــاميّة . مُثنّياً بـ " **جبـــل**

لبنان " معطوفاً على " **البلاد الشاميّة** "، والعطفُ يقتضي المُغايرة ، دون أن يذكرَ جبل عامل ، ممّا يدلُّ على جهلهِ بجغرافيّة المنطقة ، أو على أنّ القرشـيَّ قـد اجتنب ذكـرَهُ إمعانـاً منهُ في إخفـاءِ مذهبِه ، لأنّ جبل عامـل معروفٌ عند القاصي والدّاني بأنّه موطنُ الشيعة . ممّا نفهمُ منه أنّه كان يُخفي مذهبَه حيث يكونُ في أنحاء الدولة العثمانيّة . وذلك أمرٌ مفهومٌ جدّاً ، بالنظر إلى ما نعرفُهُ جيّداً من نظرة العثمانيين إلى التشيُّع وأهلِه . وقد لاحظَ محمد حرز الدين في الترجمة التي علّقها له ، أنّه عندما رآه في النجف قادماً من استامبول كان يتزيّا بزيّ الفقهاء العثمانيين [13] ، ممّا يدلُّ على أنّه كان يفعلُ كلَّ ما بوسعه لإخفاء مذهبه . كما أنّه ، أي الحلبي ، يذكرُ أنّهُ عرّج على مصر ، وما رأينا الشاعرَ قـد أشار إلى ذلك في شعرِه كما عوّدنا فيما يخُصُّ ما طرقه من بلدان فكيفَ بمصر ، وفيها كلّ ما يُغري شاعراً مثله . هنا أيضاً يَرِدُ في الذهن احتمالُ أن يكونَ قد أضافَه هو إلى قائمةٍ البلدان التي زارها للسبب نفسِه الذي جعله يُخفي جبل عامل ، لكن لعكس المقصود .

(5)

في طهران ، التي عرفنا أنّه قد اتجهَ إليها بعد أن عرّج تعريجاً على العراق إثرَ خروجِهِ من حلب ، توثّقتْ علاقته بمُنيف باشا . بحيث غدا أشــبهَ ما يكون بشاعرِه . مع أنّه من غير المعروف والمألوف أن يُحيطَ الرجالاتُ العثمانيّون أنفسَهم بالشعراء المَدّاحين شأنَ بعض رجالات العرب والفُرس . وعلى كلِّ حال ، فإنّ من الثابت المُؤكّد أن القرشي قد أقام بضع سنين في إيران تحت الرعاية التّامة لمُنيف باشا . كما أنّه ملأ ديوانَه بمدائحِه . ممّا يجِدُ القارئُ بعضَها فيما انتخبناهُ من شِعره أدناه .

كان من عُمق العلاقة بين القرشي ومُنيف باشا ، أن هذا عندما انتهت

خدمتُهُ سفيراً لبلده في إيران ، ورجع إلى استامبول ليكونَ وزيراً للمعارف العموميّة ، اصطحبهُ إليها . بل وأنزلهُ معهُ " **بمنزلِهِ مُدّةً طويلة** " [14] . ثم أنّه تدبّر له أمرَ الحصول على وظيفة مُحرّر أو مُصحِّح في الجريدة العثمانيّة الرّسميّة بالعربيّة (الجوائب) التي أنشأها في الآستانة أحمد فارس الشدياق سنة 1860 م . وكان صاحبُه الحلبي يتسقّطُ أخبارَه من على صفحاتِها [15] ، ممّا يُفهمُ منه أنه استمرّ بعملِهِ هذا مدّةً غير قصيرة .

لسنا ندري كيف ولماذا انتهت علاقتُهُ براعيهِ العثماني ، بحيثُ رأيناه يُغادرُ استامبول مُتجهاً إلى حلب . تُرى هل توفي الوزير ، أم تبدّلت به الأحوال ، أم حصل ما فرّق بينهما ؟ الثابت الوحيد هنا أنّ الشاعر الذي حشا ديوانَه بصنوفِ المدائح فيه سكت فجأةً فلم يعُدْ يذكرهُ لا بخيرٍ ولا بشرّ. ولو انّ السبب كان وفاة الوزير لكان من المُتوقّع أن يرثيه بمقدار خسارتِه بوفاتِه . ثم لو كان السببُ ازورارَه عنه لهجاه ، كما نعرفُ من مزاج صاحبِنا ، الذي يمدحُ أو يهجو بميزان المَنْحِ والمَنْع فقط . لذلك فإنّنا نُرجّحُ أنّ السببَ هو تبدُّل الأحوال بالوزير بحيثُ لم يعُدْ في الموقع المُناسب لرعاية الشاعر . ومن المعلوم للعارف بحال الدولة العثمانيّة في فترة انهيارِها البطئ الثابت وهذه منها، أنّ أحوالَ رجال الحُكم فيها كانت عُرضَةً للصعود ثم للهبوط هُبوطاً قاسياً ، من ضمن مُسلسل الصراعات الداخليّة في البلاط وعلى هامشِه . فكأنّ الوزير كان ضحيّةَ إحدى هاتيك النّوازل . وكأنّ صاحبَنا لم يعُد له بعدُ إلا أن يُقلعَ ناجياً بنفسِه كي لايُصيبه ما أصاب راعيه .

مهما يكُن فإنّه في أوّل شهر رمضان 1299 هـ / تموز 1881 م عاد القرشي فجأةً إلى حلب مريضاً . وفي سفره الطويل مريضاً دليلٌ إضافيٌّ على أنّه كان في خُروجِهِ من استامبول أشبهَ بالمُكرَه . فلبث فيها أربعة أشهرٍ

إلا أياماً. يبدو أنّه أثناءَها ، أو أثناءَ بعضِها على الأقلّ ، عمل على تحرير شعره في ديوان ، وعلى تنقيح بعضِه بالضرب على بعض ما فيه من كلمات نابية غير لائقة ممّا حفل به ديوانه واستبدالِها بغيرِها . وعلى كلّ حال فإنّه أثناءَها كان تحت العناية التامّة لصديقه الكُتُبي أحمد وهبي الحلبي ، الذي ندينُ لهُ بهذه المعلومات عن الأيام الأخيرة للشاعر. ليتوفى بتاريخ 22 ذي الحجّة 1299هـ / 1 تشرين الثاني 1881 م . " **فشيّعنا جنازَتَه بمزيد الأسف عليه . ودُفن بمقبرة العبادة خارج باب الفرج بحلب** "[16] . وعلى أثر وفاته وضعتْ السُلطةُ المحليّةُ يدَها على متروكاتِه لبيعِها وإيداع ثمنِها صندوقَ الدولة شأنَ مَن لا وارثَ لــه في البلد .

ونحن قـد نرى الشاعرَ في بعض شعره ، في غُربتهِ ووَحدتِهِ ومرضِه هذه ، وقد استفاق من غفلتِه ، وأسِف على ما فرّط في أمر نفسِه ، وقدّر ربما بعد فوات الأوان ، قيمةَ الأهل والوطن ، فنفثَ إذ ذاك هذين البيتين :

أسـفي فارقــتُ أهلـي ضِلّــةً وأرانـــي هالِكـــاً مـن أسـفي
أرنـــي يـاربُّ أهلـــــي سـالِماً وأمِتْنـــي بينهـم فـي النجــفِ [17]

على أنّ من استكمال الصُورةِ للشاعر في هذه السّيرة ، أن نقولَ أنّه لم يُحرَم ، وهو يضربُ في الآفاق ، من لحظاتٍ استيقظَ فيها حسُّه الإنسانيّ الطبيعيّ ، فتغلّب على نمطِ الحياة الّلاهية الأثير لديه ، وسجّل ذلك في بعض شعره :

نزحنا عن الأوطـان حتى كأنّنا وجدنا بوَخْد العِيس عنها لها قُربـا
كأنْ لم تكُن تلك البـلاد بلادُنـا وأصحابنا فيها كأن لم تكُن صَحبا [18]

إنْ قـــدّرَ اللهُ الرُجــوعَ إلـــى بلـدي وسـاقتني يـــــدُ اليُســـرِ
فـلأعقلنّ هنـــاك راحلـتـــــي ولألبثَـنْ فيهـــــا إلـــى الحشـرِ

نفســي فداؤكَ جهّــزني إلى وطني قد طـالَ شـوقي إلى أهلي وأوطاني
فإنْ أنــا لــم أشــكـــركَ عـارفـــةً فالخيـرُ بالخيرِ عنـد الله مِثـلان[19]

ولعلّ هذين البيتين ممّا خاطب بهما الشاعرُ صاحبَه الحلبي إبان مرضه الأخير .

---

4 ــ شِعـرُه

(1)

ممّا لاريب فيهِ عندي أنّ القرشي كان يُمكن أن يكونَ شاعراً شهيراً ، كغيرِهِ من الشعراء الكثيرين الذين أنبتتهم بيئةُ النجف . فهو قد مَلَــكَ ثروةً لُغويّةً مُمتازةً ، إلى مقدرةٍ جيّدة على تفليق المعاني وتركيبِها . كلُّ ذلك طبعاً بالإضافةِ إلى الموهبة وأيضاً إلى الثقافة الشِّعريّة ، التي برعت البيئة النجفيّة في شحذِها وتخصيبِها ، وأحسنَ هو الإفادةَ منها .

لكنّ يبدو لي أنّ نمطَ الحياة النُّؤاسيّ الذي اختارَه لنفسِه وقضى الشطرَ الأكبرَ من عُمُره يركُضُ وراءَه في الأقطار شرقاً وغرباً ، بالإضافةِ إلى شبكة العلاقات المُتأجّجة مديحاً وهجاءً ، التي نسجَها على قاعدةِ المَنْحِ والمَنْع ، بمقتضاها يمدحُ أو يهجو مُبالِغاً في الحالَين ، دون أدنى اعتبارٍ لأقدار الرجال الذين نالهم بهجائِه لأسبابٍ تافهةٍ ، فضلاً عن تصريحِهِ المُتَكَرّر بدهريّتِه وإنكار الخلق والخالق واليوم الآخر. كلُّ ذلك أقامَ جداراً عالياً حالَ بين شعرِ الشاعر وبين المِزاجِ العامّ الذي يُتوقّعُ أن يكونَ الحاضنة والمِرقاة الطبيعيّة لشعرِه .

فلقد ملأَ ديوانَهُ بالغلمانيّات والخمريّات ، ليس على النحو الذي قد نجِدُهُ عند غيرِهِ من الشعراء مَرموزاً بهِ أو إليه . ولكنّه عنده حافلٌ بالأوصاف الحيّة وبالأسماء الصريحة ، ممّا لا يترِكُ لقارئهِ مندوحةً دونَ أن يفهمَ أنّهُ عن واقعٍ حـيّ ، وليس فقط من غواية الشعراء . كان له حيثما حلَّ غلامٌ يتعشّقُهُ علناً : ونّاس في العراق ، وطهماسب (يُسمّيه طهماس) وأخوهُ بيتر الأرمنيّان في إيران ، وجواد في جُباع ، ونُور في زغرين . هذا إلى غزلِهِ الماجن بغلمان

بيروت وطهران إجمالاً .

هجا " الفُرس " هجاءً قبيحاً ظالماً ، وآلَ نعمة في جُباع ، بمَن فيهم شيخَهم الجليل الشيخ عبد الله الكبير أبرز علماء جبل عامل في زمانِه ، كما هجا آل محفوظ في الهرمل شمال لبنان ، وآل عُسيران في صيدا . ولا شك أن هجاء هؤلاء كان لأنّهم لم يمنحوه نوالَهم أو لم يُضيّفوه . وأمّا هجاؤه لآل نعمة أو كما يُسمّيهم آل المشطوب ، وهجاء شيخهِم فلأنّ هذا فيما يبدو لم يرضَ عن سيرتِه .

هذا كما أنّه صرّح بدهريّتِه وأنّه يرى أن لا خلقَ ولا خالق ولا بعثَ ولا نشور . قال :

لا يزالُ الدهرُ والـــدُنيا وهذا الملكوت
وجميعُ الخلق يحيى البـــعضُ فيهِ ويمـــوت
نعتوا شـــيئاً فلمّـــا قصُرتْ عنه النُعوت
حدّثونـا بـأحـاديثَ ما لهـا إلا السُكوت[20]

عجبـاً لأقوالٍ تُزخرَفُ للورى أبـداً تُلَفّـقُ تـارةً وتُـرقّـعُ
لا تنقضـي دنياك هذي إنما شمسٌ تغيبُ بها وشمسٌ تطلعُ
إن كـان يرجعُ يا مُغفّل ما مضـى
مــن أمسِكَ المــاضي فإنّا نرجِعُ [21]

على أنّ من الإنصاف للرجل ، غفر اللهُ له ، أن نقولَ أنّه لم يكُن يخلو من لحظاتٍ يُحدّث نفسه فيها بأن يرعوي عن كلّ ذلك ، عن الدّهريّة وعن المعاصي :

لاتحسَـبَـن أنّـــــي إذا جِئـتُ القيامـةَ من خَــلاصِ
ثـقـتـي بعفـو الله تبعثُـــــــي علــى فعل المعاصــي [22]

تحِـنُّ إلـى البِيضِ الحِسان وقد ترى مُرورَ الليالي شـــاب منهُ قذالكـــا
فما أنتَ بعد الشيبِ ويحـكَ والهـوى متـى ترعـوي عباس طال ضلالُكا [23]

ندمتُ على فعل المعاصي وغادرت لها بين جنبيَّ النّدامةُ ما يُشجـي
فـإنْ كُنتَ لا تُنجي من النار عاصياً على أنّه استعفاك ياربُّ مَن يُنجي [24]

كما أنّه ربمـا نـدم على تسرّعه في هجـاء مَن هجــاه ، ممّا كان السـببَ في عَداء الكثيرين ممّن أقام بين ظهرانيّهِم ، وساهمت على الأقلّ في إقلاق حياته :

عدمتُهُ من لسانٍ لم يزَلْ أبداً مُبغّضي عندَ أحبابٍ وإخوانِ
ما استودعَ المَرءُ سـرّاً منه في أُذُني
إلا وأفشـاهُ للقاصــي وللدّانــي [25]

(2)

هوذا ما يرجعُ إلى حظّ الشاعرِ من شعرِه . وقد رأينا كم كان مَنكوداً ، لم يجنِ منه صاحبُهُ غيرَ قبْضِ الرّيح . باستثناء فتراتٍ تطولُ أو تقصُرُ نال فيها من مُتَعِ الحياة ما أباحهُ لنفسِه ، أو حظي فيها برعاية وحماية هذا أو ذاك من القِلّة الذين نجح في بناء علاقةٍ طيّبةٍ معهم . ولكن هاتيك الفترات كانت دائماً مُؤقّتةً ، تنتهي به شريداً أو مَن هو بالشّريدِ أشبه . إلى أن يحظى بالرّاعي التالي .

لكنّ شـــعرَه كان أحظى من صاحِبِه . ولقد كان من حقّهِ أن يضيع ،

كِفاء حياة الشاعر التي لم تعرف الاستقرار، وكِفاءَ ما ملأه به من صُنوف المجون والهجاءِ الشنيع والأفكار غير المقبولة بحيث صدفَ الناسُ عنه . ممّا بسطنا الكلامَ عليه قبل قليل .

ومع ذلك فإنّ شعرَهُ وصلَ إلينا كاملاً ومن أوثقِ طريق ، وذلك بنُسخة الأصل من ديوانه بخطّه ، المحفوظة في مكتبة الأسد بدمشق برقم عام 8818. وهذا امتيازٌ نادرٌ جدّاً ، لستُ أتذكّرُ الآن له ثانياً . وذلك بفضل سلسلةٍ من المُصادفات ، التي لولاها لَما وصل إلينا . فكأنّ حظوظَ الشاعر كانت مَذخورةً لديوانِه دونَه .

أوّلُ هاتيك المُصادفات وفاتُهُ بحلب حيث صديقه أحمد وهبي الحلبي ، الذي عرفنا أنّه اعتنى به في أيامِه الأخيرة . ولو انّه توفي في غيرِها ، حيث لا صديقَ له وفيّاً كأحمد، لكان من المُرجّح أن يضيعَ شعره إلى الأبد .

ثانيها أنْ وضعتْ السُلطةُ المحلّيّةُ يدَها على تركته ، ثم عرضتْ للبيع ما فيها من متروكاتٍ عينيّةٍ . هنا طلبَ أحدُ أصدقاء أحمد منه أن يشتري لــه " **من متروكات الشيخ مجموعةَ الأشـعار التي نظمها الشيخُ بحياتِه** [26]" وهكذا كان . وما ندري مَن كان هذا الذي يعودُ إليه الفضل في استنقاذ النسخة وحفظِها ، وكم بقيتْ عنده ، وكم اجتازتْ من المُصادفات وهي تجتازُ طريقَها الطويل إلينا ، بحيثُ استفدنا منها استفادةً لا غنى عنها في وضْعِ هذه الدراسة على الشاعر.

ولقد كان من حِرْص ذلك الصديق المُخلص على إرثِ صاحبِه ، أنّهُ عمد إلى استنساخ ثانيةٍ عن نُسخة الأصل التي تحت يدِه مؤقّتاً [27] ، يبدو أنّها هي التي اشتراها فيما بعدُ الشيخ عباس بن خليل النُبّلي " **من بعض مكتبات حلب ببضع ليراتٍ سوريّةٍ** [28]" ، وحملها إلى النجف ، حيث دفعهــا إلى

أحد أفراد أُسرة الشاعر سنة 1366 هـ / 1946 م . كما يبدو أنّها هي النسخة التي رآها آغا بُزُرك الطهراني لدى الشيخ حسن بن محمد علي القرشي [29].

وما حال دون نشرِها ، فيما نُخمّن ، إلا مافيها من نفَسٍ نؤاسي ، لا يُناسب ماللأُسرة من مكانة .

هـــوامـش الفصـــل

1ـ الطبعة الثانية : 3 / 975 ـ 78. .

2 ـــ الخاقاني : شعراء الغري ، ط. قم 1408 هـ : 4 / 459 .

3 ـــ نفسه : 4 / 456 .

4 ـ كتابنا : أعلام الشيعة ، ط. بيروت 1431 هـ / 2010 م : 2 / 779 .

5 ـ انظر ثبتاً وافياً بهم في : معجم رجال الفكر والأدب في النجف / 975 ـ 78 .

6 ـ مثلاً : شعراء الغري : 4 / 447 و الكرام البررة / 390 و معارف الرجال : 1 / 390 و أعيان الشيعة : 7 / 422 .

7 ـــ ديوانه المخطوط ، مكتبة الأسد بدمشق رقم عام 8818 / ورقة 20 / ب .

8 ـ مثلاً : ديوانه 31 / آ .

9 ـ ديوانه الورقة 52 آ ـــ 56 آ و 57 آ و 60 آ .

10 ـــ ديوانه 21 / ب .

11 ـــ قال :

يا أُمَّ أنطـــون لولا ما أصبتُ بـــه من فَقْـــدِ موسى لكُنّا جِيرةً أمَما

لكن أصـابَ سوادَ العين فقدُ أخي موســى فشتّتَ شملاً كان مُلتئِما

(ديوانــه 27 / ب)

12 ـــ شعراء الغري : 4 / 448 . وقد اشتبه الأمرُ هنا على شيخنا الطهراني فجعل سنة 1287 هـ بدايةَ رحلتِه في الأقطار . الذريعة : 9 / 680 .

13 ـــ محمد حرز الدين : معارف الرجال ، ط. النجف 1383 هـ / 1964م : 1 / 391 .

14 ـــ شعراء الغري : 4 / 449 .

15 ـــ نفسـه .

16 ـــ أيضاً : 4 / 450 .

17 ـــ ديوانُــه / 16ب / 17 آ .

18 ـــ نفسـه / 28 / ب .

19 ـ أيضـــاً / 29 / آ .

20 ـ أيضاً / 17 / آ ـ 18 / ب .

21 ـ أيضاً / 21.

22 ـ أيضـــاً / 17 / ب .

23 ـ أيضاً / 16 / ب .

24 ـ ايضاً / 22 / ب .

25 ـ أيضـاً / 26 / ب .

26 ـ شعراء الغري : 4 / 450 .

27 ـ نفسه .

28 ـ طبقات أعلام الشيعة / الكرام البررة / 691 .

29 ـ الذريعة : 9 / 680.

ـ مُنتَخَبَاتٌ من شعره

مَثنويّات

أُفٍّ لهـــذا الدهــر لـــم يتـــ ـرك حُـراً علــى الأرض بـلا ظُلمِ
يسـقي خبيثَ الأصـلِ من شهدِهِ وطـيّـبَ العُنصُـرِ مـن سُـــمِّ

دعْ ذكــرَ شـــيءٍ قـــد مضــى لا يخطُــرَنْ أبـــداً ببــــــالِكْ
لـــم يُغْـــنِ عنـك تـذكُّـرُ الـ ـمـاضــي وقـــد يُزري بحـالِـكْ

أسـعِـفْ أخـــاكَ مــا اسـتطعتَ بفضــ ـلِ مالِـكَ أو بــجـاهِـكْ
إنْ كـــــان لا يَجـزيـكَ عـنـهُ فـــلا يضيـــعُ لــــدى إلهِـكْ

لا تركبَـنّ من الأعمـــالِ سـيّئَهـا فليـــس للمـــرءِ إلا صالح العملِ
واسلُكْ سبيلَ ذوي التّقوى تفوزُ ولا تُجالِسَـــنّ كثيـرَ الهـزْلِ والجدَلِ

يقضي الحوائِجَ باغيها بسـاعتِها
وليس تُقضى مع التّسويفِ حاجـــاتُ
فلا تُضِـعْ ساعةً في غيرِ واجبـةٍ فاجهَـدْ فإنّ حيـاةَ المــرءِ ساعاتُ

يغتـابُنـي مَــن ودّ لو أنّـنــــي من قبـلِ ذا كُنـتُ لـــه والِـــدا
عـن حسَـــدٍ ذا ولا خـيــرَ فـــي مَــن لا تـــرى يـومـاً له حاسِدا

أقـــولُ شعراً لا أُبـــالــــي بـهِ كـــانّمـا أغـــرُفُ مـــن بـحــــرِ
ســهـلَ القــوافـي مُحكماً نسْجُهُ مُهــذّبــاً مــن جيّـــدِ الشـــعرِ

أنا الفتى من قُريشٍ طاب مَحتَدُهُ في ذروةِ المجـدِ بين العــمِّ والخالِ
ما فـيَّ عيـبٌ إذا أنصفتني كرماً إلا إذا كـان عيبـــاً قِلّــةَ المـــالِ

أتُنكِــرُ فخـــــرَ قـريـــش البِطـاح جهـــلاً إذا فخَـــرتْ فخــرَهـــا
إذا شـــــئـتَ فـاطمُـسْ نُجومَ السّما بكفِّــكَ واسـتُرْ بـهـــا بـــدرَهـا

نفســي فداؤكَ جهّــزني إلى وطني قد طـالَ شـوقي إلى أهلي وأوطاني
فإنْ أنــا لـم أشــكـــركَ عـارفــةً فالخيـرُ بالخيـرِ عنـد الله مِثــلان

لا فُضّ فُـكَ ولا تـــزلْ أبـــــداً مُتنعّمـــاً في عيشِـــكَ الأهنـــى
أفهمتَنــي معنـــى الكـــلام ولــــم أفهــــم لــــه في مـامضى معنى

تَحِنُّ إلـى البِيضِ الحِسان وقد ترى مُرورَ الليالي شـابَ منــهُ قذالِكـــا
فما أنت بعـد الشيب ويحكَ والهوى متـى ترعوي عباس طـال ضـلالُكـا

لا تحســـبــنْ مــــالـــــي إذا جــئــــتُ القيـامـــةَ من خَلاصِ
ثقتـي بعفـــو اللـــــــه تبــــعـــثُـــــنـــي علـى فعل المَعـاصــــي

لـــم تـــرني الأزمــــانُ فيما مَرّا فتىً أبـــيَّ النفس شهمـــاً حُـــرّا

صبـراً علـى فعــل الزمـانِ صبرا أُكـــرَمُ ســـرّاً وأُهــانُ جهـــرا

أن فــــي النفــــسِ لشـيئاً طـــالـــمـــا قــــد كتمتهُ
تــتّـقـي الناسَ بـــــــهِ ليتَهـــــا قــــد أظهـــرتهُ

ســـتـــعـودُ الـــروحُ مِـمّــا قـدِمَـــتْ مـــنــــهُ إليـــــه
ويصيـــرُ الجســـمُ رسـمـــاً تـــــدرُجُ الـــرّيـحُ عليـــه

وممّـا يزيـدُ الشـوقَ والوجـد أنّني أرى دارَكـم داري وأهلكمُ أهلـــي
فما أقربَ الـــدارَ التي أنتم بهــا وأبعـدَ ما بيـن المُـلاقاة والوصـلِ

لا تسلني عمّن يقـولَ بهذا العصـــر شعراً مــن ناعِلٍ أو حـافي
حسبُكَ اليومَ بي من الناس في الشـعــرِ إذا ما عـويتُ إثْـرَ القوافــي

يـــاربُّ زِدْ حلباً من كلِّ عارفـةٍ واغفر ذنوباً أتتْ من ساكني حلبِ
كم فيهمُ من أخي علمٍ ومعرفــــةٍ يهتـــزُّ مثلَ اهتـزازِ السيف للأدب

لسـتُ من أمـري بـريـبٍ إنّمـــا تُظهـرُ الألسـنُ ما تُخفـي القلـوب
لا أرى للــدهرِ عندي آخِــــراً هكـــذا الدهــرُ شُـــروقٌ وغُروب

لئن كان إدراكُ التِّـرات من العِدى على المـــرءِ لُؤمـاً إنّني للئيــمُ
وما خِلتُ إلا سوف تُدركُ ثــارَها عظامي إذا ما مِـتُّ وهـــي رميــمُ

أخـلِـقْ بدارٍ أسـاءَ النازلون بهـا إلـيَّ أن تتلظّـى وسطَهـا النـــارُ
ماذا عليّ إذا لـم أُلـــفُ مُعـتدياً أن لايضيعَ علـــى الأيـام لي ثارُ

عدمتُهُ من لسـانٍ لم يَزَلْ أبـــداً مُبغّضي عنــد أحبابٍ وإخـــوانِ
ماالســتودعَ المَرءُ سـراً منه في أُذُنـــي
إلا وأفشــــــاهُ للقـــاصي وللـــدّاني

إنْ قــــدّرَ اللهُ الرّجـوعَ إلـــى بلـــدي وساقتني يدُ اليُسْـــرِ
فـلأعقِلَـنّ هنــــاك راحلتـــي ولألبثـــنّ بــه إلــى الحشـــرِ

أســـفي فـارقـتُ أهلـــي ضِلّـةً وأرانـــي هالكـــاً من أسـفي
أرنـــي ياربُّ أهلـــــي سـالمـاً وأمتنـــي بينهـم فـي النجـفِ

إذا قـــدِمَ الشـتاءُ عليك فالبـس ثياباً لونُهـــا لـونُ الدخــــانِ
أو استقـــراك ضيفُ الثلج فاجعل قِراهُ منــــك جَـــزْلُ السـنديـانِ

من شـعره في وعلى الفترة اللبناية من سياحته

يمدحُ الزعيم العاملي علي بك الأسعد :
أبا السُّعود إن يفِضْ ماءُ النّـدى فإنّــه مـــن كفّـكَ اليُمنى نَبَـــع
أو يُورِ في داجي الخُطُوبِ ثاقبٌ فإنّـهُ من رأيــــكَ الواري ســـطع
لـو يقتـدي في ظنِّكَ الجاهلُ في مـا قـــدّرَ اللهُ على الغيبِ اطّلَع
إنّ الذي بارك فـي شـــأوِ العُلى بـــه العثـارُ مُـولَـعٌ أيَّ ولَـــــع

كأنّمـا سـعيـدُ بابـنِ أسـعـدٍ عِثـارُهُ فهـــو يقـــومُ ويقـــع
لا يســتقرُّ جنبُـــهُ بمَضـجَعٍ كـأنّه منـكَ على الجمرِ اضطجع
لم يـكُ فيمـا قسـمَ اللهُ لـــهُ بقـانـعٍ لو كــان ذا حــظٍ قـنِــع
مَن مُبلِغٌ عبدَ العزيــزِ أنّ مـن ســطوتِكَ الضّــانُ مـع الذئبِ رتع
محوتَ بالعـدلِ الذي سِرتَ بـهِ ما نقشَ الجـــورُ وخطّـت البِدَع
حملتَ أعبـاءً من السُّـؤدَدِ لــو يحمــل بعضَهـا ثبيـرُ لا نصـدع
فلا يسَـلْ عن الغـوادي ماحـلٌ أنــت لـه الغيثُ إذا الغيثُ انقطـع
فاسـلمْ وسُـدْ ونَـلْ وطُلْ ومُـرْ ما أشــرقت شمسٌ وما نجـمٌ طلـع

يُخاطب علي الأسعد نفسه :

نـمْ ياعليُّ فـوقَ صهـوةِ أشـــقـــرٍ نَهْـدِ المراكِلِ كالسُّـــعالَةِ إن جـرى
واسـتنتج المجـدَ الأثـيـلَ بصـولَـــةٍ لو صـادفـت رَضـوى لدكدك وانبـرى
وانهـــض بهمّــةِ حـــازمٍ أنت الذي رصّعـتَ تيجانَ الرّيـــاسة جوهــرا
واجعل حســامكَ جادِعـاً عرنينَ مَن فـي عاملٍ قـــد مـدّ طَرْفاً أخـــزرا
صُلْ بالعناجيج الشّـــوازبِ جاعِـــلاً ســـوقَ الكواكـبِ والمجـرّة منبـــرا
فلـــديك عضْبٌ لـــو ضربتَ بحدّهِ طـــوداً من الشُّـمّ الرعـان تفطّـــرا
لا تحسـبنّ بعاملٍ أســـــداً فـــــلا والله لــم يـــكُ غيركم أُسـدُ الشّــرى
تلِــــدُ الظُّبــا ماضـي الغرار وإنّما تلِـدُ الوشـــيجةُ زاغبيّـاً أســـمرا
أملـي بــــأنّ اللهَ سوف يُـــزيلُهـــا وتعـــود مَلْكـــاً ياعليُّ مُظفّـــرا

يذكر سجنَ الأسعد في بيروت :

تــــاللهِ ماسجنَ السّجان مـن رجلٍ طلْق اليـــدين كمسجونٍ ببيروتا

كـــان الأرامــــلُ والأيتام في ســـعةٍ فاصبحتْ لـم تجِـــدْ من بعدِهِ قُوتا

يمدحُ محمد بك المنكري من زعماء جبل عامل :

وريـــــحٍ عاصـفٍ تُـزجي سحابـاً تُــــذكِّـرنا العـــهاد علـى العهادِ
فمـا زالــــــتْ تسـحُّ السُّحبُ حتى ظننّـــــاهـــــا نـوالَ أبـي الجـــوادِ

ما زِلــتَ فـي جُبَـــعٍ تهـذي وساكِنِها هيهات منك الأُلى أضحوا على جُبعِ
فارقتَهُـم لا هَنــاك العيش بعـدهــــمُ ولا بقيـتَ فمُـتْ بالوجـدِ والجــــزعِ

زُرْتُ ابــــنَ أســـعدَ فانهلّتْ أناملُهُ عليَّ بالجُــــودِ مثلَ الوابــلِ الغَـدِقِ
ثــم انهـزمــــتُ بـلا إذنٍ ولا عجـبٌ إنّــي خشيتُ على نفسـي من الغرقِ

في رثاء علي الأسعد :

لـــو كـان غيـــر الحِمـام مُعتدياً علـى علـيٍّ لأدركنــــا لــــه ثـــــارا
لكنّما الموت مَضــروبٌ ســــرادقهُ على النفوس لــــه ما شـــاءَ واختارا

مُراسِلاً الشيخ حسن يحيى في جُبع من إيران :

ياســـــاكني جُبَـعٍ أرومُ لقاءَكـــــم ومَنــــالُ أقصـى النّجـمِ دون مَرامي
كيف اللقـــــاءُ وكيف تدنو دارُ مَن بالــــــريّ ممّـــن دارُهُ بالشــــــامِ
إنّــــــي ندمـتُ علـى الفراق فليتني عُوجلـتُ قبلَ فراقكــــم بحِمـــامـي
يالهـفَ نفسي لو علمتُ لكان في جُبَـعٍ إلـى حيـنِ الممـــات مقـامـي
شـوقـــي إليكـم ما حُييت فإنْ أمُتْ تشْتَـقْ إلــــى ذاك التراب عظـــامـي

فكـأنّمـا أيــامُنـــا اللاتـــي مضت في قــربكـم كانـــت مــن الأحـــلامِ

إذا رُمــتَ الجنـــــانَ وأنـــت حــيٌّ فــلا تعـــدل قلـوصَكَ عــن جُباعِ
فقـد أعطـت لســـاكِنِها أمانـــاً وطـابـت فـي مشـارِعِـهــا المَساعـي
لـهـــا عــــن جنّـــةِ المـأوى مزايـا تـــروقُ ولا تُعــــارضُ بالـدّفـــاعِ
ففــــي الفردوس عينـــانٌ وفيها ثــــلاثُ مِئيـن تجـــــري باطّـلاعِ

ما أنــــسَ أو أنســى ليـاليّ التـي كانـت بكـم تجمعُنـــي فيهـــا جُبَـع
لا غَـــروَ أنّ الدهـــرَ مـن عاداتِهِ أوحـى مـن الظُّرفِ إذا أعطى رجــــع

تصبّــــر لا تقُـلْ طـالَ اشـتياقي إلـى مَـن حــلّ فـي جُبَــــٍ ووجـدي
لعـــــلّ أبـا جـلالِ الديـن يقضي لنـــا بالقُـرب منهـــم بعــدَ بُعـدي

يـا أُمَّ أنطون لولا ما أُصبتُ بــــهِ من فقْدِ موسـى لكُنّــا جِيـرةً أمَمــــا
لكن أصـاب سـوادَ العين فقدُ أخي موســـى فشـتّتَ شمْلاً كان مُلتئمــا

نُـزُولَ القاقعيّـــــةِ أدركــــــونـي مـن الأشـــــواق صِرْتُ على شفيرِ
نُـــزولَ القاقعيّتةِ مَــنْ لصَــــبٍّ غـــدا منكـم علـى لهـبِ السّعيـرِ
فلو تـزِنونَ مـا لكـــمُ بقلبـــي مـن الأشـــواق زاد علـــــى ثَبيـرِ

أعـزُّ أهـلِ الأرضِ فـــي مَشرقٍ ومغـربٍ جـــاراً بنـــــو الحُـــــرِّ
يحِـلُّ إن حــــلَ بهم جارُهُـــم بنَجـــوةٍ مــــن حـــادثِ الدّهـــرِ

طـــابوا وما طـــابت ذُرى دوحةٍ مـالــم تكُـــنْ طيّبةَ النّجــــــــرِ
بنــــو فتــىً قد شكـر الله باللـ ـطفِ لـهُ عـــارفَــةَ النّصــــــرِ

أشــهدُ باللهِ بــــــأنّ النّــــدى والبـأس في أيــــدي بنـــي مُنكَرِ
قومٌ هـــمُ القومُ الــذين امتطـوا ســـناسـنَ العـــزّةِ والمفخــــــرِ
ســـالمْهُمُ تســــــلـــم وإلا فكُـنْ حربــــاً لهـــم فـــرِدْ ولا تصدُرِ

مـن شعره في الفترة الإيرانيّة من سياحته

مُخاطباً ناصر الدين شاه مُنَدّداً بتاجرٍ جشع احتكر الأقوات :

يا ناصـرَ الديـن ومَـــن مُبلِغُ الـ ـشـكوى منّــي علـــــى الشّـحْـطِ
طهــــران كانــت خيـرَ مَسـكونَـةٍ خُصـّـتْ برَغْـدِ التعيـشِ والبســـطِ
فـــاحـتكـــــرَ الكنـــديُّ أقواتَها فاحتـرقـتْ بالنّـــــــارِ والقحْــــطِ
أحــــرقـــه الله بنيـــــرانِـــهِ مُلَفّـعــاً بالقـــــــارِ والنّفــــطِ
قـــد أهلـكَ الناسَ أمــــا آن أن تُهلِكُــــهُ منـك يــــدُ السّـخْــــطِ
واللهِ مــــا الكنــــديُّ إلا فتــــــىً لــــم يــــكُ فينـا غير مُشـــــتطِّ
مـا ذاك فـــي العلـمِ ســوى لفظةٍ مـــن غيـــــر إعــرابٍ ولا نقـــطِ
قـــــد أحبـط الرحمـانُ أعمالَه والعمــــــلُ الفـاســـدُ للحَبْـــطِ

يـا أُمَّ كلثـــوم ما ذا أنتِ صانعةٌ إنْ قيـلَ حــلّ الرّدى يومــاً بعبـاس
هـل أنــتِ باكيــةٌ يومـاً لمُغتَرِبٍ نـــاءٍ قضى نحبَهُ في حُبِّ ونّــاسِ
مالي إذا مِتُّ في طهران من أحدٍ يبكـــي عليّ بهــا من سائرِ النـاسِ

في سعيد خان وزير خارجيّة إيران :

قُــل للوزيـر الذي نــراهُ نحسٌ على المُعتَفي وشُــــــوم
مَن لايـرى للنّدى محــلاً ولا يُصلّـــــي ولا يصــــــــوم
ويفعلُ فعلَ امرئٍ جاهلٍ ولا يُــبـالـي بمَــــنْ يلـــــوم
فذاك الـذيُّ الذي قد نفوه عــــن دارِه الخائـــنِ الظَّلــوم
فـأصبحـت بعـدَه خَـلاءً سُـــكّانُهــا جَـدْجَـدٌ وبُـــــومُ
أنت أُمروٌ لستَ للمعالي وأيـــنَ مــن كفّـك النجـــــومُ
سـعيدُ لازلتَ في اغترابٍ ما دُمـتَ حيـاً لـــه يــــــدومُ
أهلَ خراســـان أخرجوهُ من بينكِـم إنّـــــه مَشــــــومُ
أو فانهضـوا فاقتلوهُ جهراً إلـى متـى تصبـــرون قومــوا
يلـوحُ في وجهـــهِ إذا ما أبصـــره المُبصـــرون لــــومُ
وكيف تزكو فـروعُ مَـن ليـــس تـزكــــو لـــــهُ أرومُ
أيُّ عــــدوٍ لـنـا يُعـادي لـــم تبـدُ في عِرضـه كُلـــومُ
فارقـتَ طهـران باكتئابٍ ومُقلـــةٍ دمعُهــــا سَـــــجومُ
وددتَ يومَ الخروجِ ريــح الـــجـنــــوب لـو أنّهــــا سُــمومُ
كم لـك مـن حسرةٍ عليها ومُهجـــةٍ حولَهـــــا تحــــومُ
هيهــــات واللهِ لن تراها كيف يــــرى الجنّـةَ الأثــومُ

في هجاء وزير خارجيّة إيران سعيد خان مُخاطباً ناصر الدين شاه :

إذا شــئتَ أن تُهلــك المُفســدين بطهـران ياناصر الدين فاقتل سعيدا
فإنّ الفســــادَ عفــى رســمُهُ فجـــاء ســعيـدُ فعـــادَ جـديـدا
وخُـــذْ منـــهُ ما ملكته اليمين طـــــارفَ أمــوالِـــهِ والتّليــــدا

وخلّـدهُ فـي السّجن حتى يموت وأوقِــره ما دام حيّــاً حــديـــــدا
وعـــــذّبـهُ حتـى يمـلَّ الحيـاة في كـــلِّ يـــومٍ عذاباً شـــديدا
لقـد بـادَ لُـؤمُ جميعِ الأنـــــام ولُـؤمُ ســعيدٍ أبـى أن يبيـــــدا
ألا لعــــن اللهُ ذاك اللئـيــم وآبـــــاءَ ذاك اللئيــم العبيـدا
منحتُـكَ يـا ابـن استِها مِدحَةً فدنّـسَ لُـؤمُـكَ شـعراً مجيــدا
أرى الكلـبَ كلباً ولـو علّقـوا علـــى جِيـدِهِ من عُقـودٍ فريـدا
ولو كُنتَ من بعضِ أهل التُقى بطـهران لم تُمْـسِ منهـا طريــدا
خـــرجــتَ فكـــان لسُكّانِها خُروجُـك يـاألأمَ النـاسِ عـيـــدا
أقـــرّ خُـروجُك منها العيون فاذهـب إلى النّــارِ عنّا بعيــدا
فيالـكَ مـن غصّــةٍ جرّعت سـعيداً ولم يهـو شُربـاً صديـدا
علـيَّ هجـاؤك حتى تتـــوب علـى شـــاعـرٍ أن ترُدّ القصيدا
وعندي مَـزيـدٌ علـى ما ترى من الـهجـوِ إمّا طلبتَ المَزيـــدا

عجِبـتُ لطهـــران ماذا بهــا لمُعتبِــرٍ عاقـلٍ مـن عِبَــــرْ
إذا جِئتَهـا فاصطبِـر لـلأذى وهيهـات مـا لَـكَ مـن مُصطَبَـرْ
لقـد تركتهـــا وُلاةُ الأُمـــور سُـدىً وهـاذاك أهــــلُ الخبرْ
فألهـاهَمُ صيدُهُم في الجبال فلا يعلمـون بهــــا مـا الخبرْ
أُصيبـتْ بصائـرُهُـم بالعمى فضلّـوا وأبصــارُهُم بــالعَــوَرْ
فـأيـنَ المَفَـــرُّ ألا يعلمــون بيـومٍ يُقــالُ بــــــهِ لا مَفَـــرّ

يمــدحُ والـي خُراســان شهابَ المُلْك حسين :

مــــنْ كشـــهاب المُلْـكِ إذ جِئتُـهُ عاجلــنـي بالجُــودِ أن أقعُــــدا

قـد مـــلأً الكـــفَّ لنـــا فضّـــةً ولـــو قعـدنـــا مُلئــتْ عسـجدا

يمدح مُنيف باشا سفير الدولة العثمانيّة في إيران :

عليك طهـــران لا تسـتبدلنّ بهـــا تـنَـلْ بطهـــران أوطـــاراً وأعمـالا

أضحـى مُنيفٌ بهـــا للنازحين عن الـ أوطـــانِ مـأوىً وللعافيـــن أمـــوالا

حتـى كـــأنّ لـــه مـا بينهم رحِمـاً ولــــم يكُـن لهـــمُ عمّـاً ولا خـالا

لكنّــه فـي النّــدى يجـــري لعــادتِهِ ولا يحـــولُ إذا مـــاغيـــرُهُ حالا

يمدحُ الشيخ محمد حسن الآشتياني ، وكان من علماء إيران البارزين وساهم في الثورة على ناصر الدين شاه المعروفة بثورة التنباك :

أنـــا أصبحت بحُبِّ الأ شــــتيانــيِّ مُتيّــم

قـــال لـي الجاهلُ خَـفْ ربّــكَ لا تفعل مُحرّم

قلـتُ هــبْ لي أسـدَ الله ودعـنــي فـي جهنّــم

من شعره في الفترة التركيّة من سياحته

يمدحُ مُنيف باشا عندما كان ناظرَ المعارف العموميّة في استامبول عام 1296 هـ / 1878 م :

بانَ اصطبارُكَ لمّا بانـــتْ الظّعَـنُ واقفرتْ مـن هـواكَ المُسعفِ الدّمَــنُ

والنفسُ إن فقدتْ عهـدَ السرور ولم تركُنْ إلـى صبرِهـا أودى بهـا الحزَنُ

ما صبرُ ذي غُربَـةٍ بالروم ليس لـه إلـفٌ بـــدارٍ ثـــوى فيها ولا ســكَنُ

يقضي النهارَ فإنْ جنّ الدُّجى طرقتْ همومُــهُ وتحــــامـى جفنَـهُ الوســـنُ

لا تعذلوني على ماقد مُنيتُ بـــهِ إنّي بمـــا قـــدّرَ الرحمـــان مُرتَهَـنُ
وبي من البين وَجْدٌ لا خَفاءَ بـــهِ بادٍ وآخـــرُ مثل النـــار مُكتَمِـنُ
قد كان شَرخُ شبابي في غَضارتِهِ تُظلُّنـــي والهوى أفنانُـــهُ اللُّـدُنُ
فاخلقتْ جِـدّةُ الأيّـام وانصرمت تلك الجبال وولّـــى ذلـــك الـدّرنُ
واصبح الشّيبُ في رأسي يلوحُ بهِ للنفسِ منّي إلى وِرْدِ الرّدى سُـــننُ
دع ذا وقُـــلْ في مُنيفٍ ما يُكافئهُ عن بِرّهِ فلقـــد زادتْ لـــهُ المِنَنُ
كم قد أفـادكَ من مـالٍ ومعرفةٍ وحكمـةٍ ما وعَـــتْ أمثالَهـا أُذُنُ
فتىً جميعُ سجايا الخير قد كمُلتْ فيـــه فمُنفـردٌ منهـا ومُقتَـــرنُ
مَن لـم تَـزَلْ دارُهُ في كـلِّ آونـةٍ مأوىً لكـلّ غريـبٍ مـا لـه وطـنُ
وكلُّ عـافٍ وذي قُربـى وأرملـةٍ وبائـسٍ ويتيـمٍ خانَـهُ الزمـنُ
جادتْ عليهم يـــداهُ بالنّوال كما جادتْ علـى مُمحِـلٍ بالوابل المـُزنُ
ولا يصونُ نفيس المجدِ من أحدٍ إلا امـرؤٌ لنفيس المـالِ مُمتَهَـنُ
قد صغّر الناسَ في عينيّ مخبرُهُ فما بهـم مَن يُساويهِ إذا وُزنـــوا
كأنّمـــا هـو روحٌ لايُحـيـطُ بــه وصفٌ وهُم إن تناهى وصفهم بـدنُ
لقـد تعادلَ فيـهِ خِصلتـا كـرَمٍ قـولٌ مُصيبٌ وفعـلٌ كلُّهُ حسـنُ
يزينُهُ الصمـتُ عمّا لا انتفاعَ بـهِ فإن تكلّـمَ فهـو المُصقِعُ اللّسِـنُ
لم ياتمِن أحداً فـي السّرِ وهو على ما اسـتودعوهُ من الأسـرارِ مُؤتمَنُ
حتى لقد كـان يُخفي سرَّ صاحبِهِ عن موضـعٍ حلّ فيه الحُبُّ والإحَنُ
مُؤيّدُ العـزم لا يشـكو إلـى أحـدٍ صرفَ الزمـان إذا حلّتْ بـه المِحنُ
حلوٌ لإخـوانِهِ لانـتْ خلائقُـــهُ لهم ومُـرٌّ علـى أعـدائِـه خشـــنُ
ماضي العزيمَةِ ما في طبعه خِـوَرٌ عند الخُطـوب ولا في رأيـه أفَـــنُ
نعـم المَلاذ مُنيفٌ عنـــد نائبـةٍ لم يُغْنِ في دفعِها الإخوانُ والخبنُ

هو الأديـبُ الـذي تجلـو بديهتُـهُ كُنهَ الأُمـور التي يعيى بهـا الفَطِنُ
ما ضاق يومـاً لـه بـاعٌ بمكـرُمَـةٍ ولا تعلـّـق فـــي أعــراضِــهِ درنُ
وما لـهُ غيرَ أن يسـعى بمهمتِــهِ لعـــزِّ دولتــهِ أو دينـــهِ شـــجـنُ
إنّ الزعـيمَ بنصـرٍ واعتـلاءِ يـــدٍ لدولـــةٍ هـــو مـن أركانِهـــا ركِـــنُ
قـــادَ المَعـاليَ فانقــادتْ باجمعِها لـهُ فاضحـى لـــهُ فـي كفِّهـا رسـنُ
لاتعجبوا منهُ أن نالَ العُلى ومضى قِـــدْماً فمثّلَ ضيفـاً بالعُلى قَمِـنُ
من معشَـرٍ ما اعتراهم يومَ مَسغَبَةٍ أو يـــومَ مَلحَمَـــةٍ بخـلٌ ولا جَبَـــنُ
ولا تــرى دوحَـةً طـابتْ أرومَتُهـــا إلا وطـــاب لهـا في عَرْفِها فنـــنُ

مُراسلاً مُنيف باشـا نفسه :
لَعَمْري لقـد أجـرى دموعي وشفّني تذكُّـرُ مَـن بالشـــام أضحتْ ديارُها
أليس مُنيـفٌ بعـــد ربّي قـــــادرٌ على قُـربِ مَـن قد شـطّ عنّي مَزارُها
بلـى وجلالِ الله لـــو شـاء كان لـي مُنى النفس فيمـا شاءَهُ وقـــرارَهـــا
إلـى الله أشكو ما بنفسي من الجَوى ولوعـــةَ وجْـــــدٍ لا يبـــوح أُوارُهـــا

بجُـــودِ مُنيفٌ لا يُبـالـــي كأنّمـا نـوى أو حصـى في راحتيه الدراهمُ
الا لاتلـومـوهُ علـــى الجُـــودِ إنّــهُ ليـــزدادُ جُـوداً كلّمـــا لامَ لائــــمُ

من غزليّاتـــه

أَلِطَيــفٍ طــارقٍ زا ركَ من نحـو الحبيب
موهِنــاً بِـــتَّ عليـ ـهِ في بكـــاءٍ ونحيب

أوَ لم تَنهَكَ عن جهـ ـلِـكَ لوماتُ المَشيـب
عاذلي دعني فما رأ يُك عنـدي بمُصيــب
خلّني أبكي بعين الو الــهِ الصّـــبِّ الكئيب
فلعـلّ الدمع يُطفــي ما بقلبـي مـن لـهيــب
قد سباني وصفُ مَن أهوى بميـــدان النَسيب
ينتمي طهماسُ بالقـ ـدِّإلى الغُصن الرّطي ب
وبحُسنِ الجِيدِ والعينِ إلــى الظبـي الرّبـيـب
أيُّ بدرٍ فوق أيِّ البا نِ فـي أيِّ كثيــــــب
إنْ أمُتْ وجداً فمـــا واللهِ موتـي بعجيــــب
بغلامٍ صاغهُ الرحمـ ـنُ من حُسنٍ وطيـب
ليتني من قبل موتـي فُــزتُ منــه بنصيــب
ياقريبَ الدّار لكـــن لسـتَ منّــي بقريـــب
وحبيبَ النفس أفديـهِ بنفســي مــن حبيـــب
فتمنّعتُ فظـلّ الـــ ـقلبُ منّي في وجيـب
أنا بالوَجدِ وأنت اليـ ـومَ بالحُســنِ الغريــب
ما لنــا والله في النـا سِ جميعاً من ضَريـب
وظُبا لحظيكَ لــولا خــوف واشٍ ورقيـــب
لتديّنتُ لحُبي لـــك في ديـنِ الصليــــب

كــم بـــي مــن ابنــةِ معبَـــدٍ مـــن لـــوعـةٍ لـــم تبـــرُدِ
شـــطّ اصطبـــاري يـــــــومَ شـطّ مَــــزارُها وتجلّـــدي
فكـــأنّمـــا جمـــرُ الغَضـــا مـن بعـــد خــولـة مرقــدي

مـابــالُ طيفِـكَ لا يـــــزورُ ولا يـفــــــي بــالمــوعـــدِ
هيهـــــــات كيـف يــــــزو رُ منـك الطيفُ مَن لم يرقُـدِ
ومـــن البَـليّــــــةِ أنـنـــــي ســـلِـسٌ بكفِّك مِقــــودي
وأنـــــا إذا اســتنجدتُ صبري لم يكُــــنْ مــــن مُنجـدِ
يـا حبّـذا سـقـمي لو انّـــك كُــنــتَ بعضَ العُــــوّدِ
لــــو قيل لــي يومــاً تَمَـــنَّ قلـــتُ أن لا تـبـعـــــدي
كـــم مـــن طــريـقٍ بيننـــا لــــو تعلميـــن عَمَــرّدِ
وجبــــالِ سُــــوءٍ مُشـمخـر اتٍ صِعـــابِ المَصعَــــدِ

خليـطٌ تنـــاءى وشـــطّ المَزار قِفـا نبكِ وهنـاً رُســومَ الـديـــار
ولله خــــالٌ عــلـــــى خـــدّهِ كنُقطــةِ مســكٍ علــى جُلّنــار
وســــيفٍ بجفنيـــهِ لــو يُنتَضَـى رأيـــتَ اليمانـــيَّ عَضـبَ الغرار
أداوي اشــــتياقــــي بتَـذكـارِهِ وهـــل تنطفي النــــارُ يومــاً بنار
أُكفكـفُ دمعــــي فـي الكاشحيـــن ويدعـــوهُ شـوقي البِـــدارَ البِـدار
رآنــــي صغيــــراً فلـــم يعتَبر مقـامـــي وأعلــــى النجوم الصّغـار
يروقـون طبعـــــاً بمَـــرّ الدهور كــــانّ خـــلائقهم مــــن نضـار
وكـم مـــن حَســـودٍ يـودُّ اللحاقَ فيهـم فلــم يعتلِـــق بالغُبــــار

يــامَن لقلبٍ بــراهُ الوَجدُ فانصدعا وهائمٍ في غيابات الهــــوى وقعـا
فليذهـب الشّـوقُ بـي ما كنتُ أولَه مـن طاولـتــهُ يـدُ الأشواق فـاتّـبـعـا
أبقـت بنظرتِهـا عيني على كبدي لشــــقوتي وبلائي الهــمَّ والـجـزعا
تفــرّق الحسنُ ما بين المِلاح ولا أراه إلا بقيـسٍ ضــــمّ واجتمعـــا

يا لائمي أنت لو شاهدتَ صُورتَـهُ للُمـتَ مَن لم يَمُتْ في حبّه ولعـا
إذا بـدا في الثياب السُّـود مُرتدياً تخالُـهُ البـدرُ في جُنح الدُجـى طلعا
تالله ما مـرّ إلا واجتلـى نظـري من رايـقِ الحُسـن في أعطافه برعا
أحلـى وأعـذب مـن تقبيل وجنتهِ إذا أردتَ لـه التقبيـل فامتنـعـا
ياعين أعثرتُ قلبـي فـي محبته لو كان في غير قيس قلتُ ويك لعا
يومـاً بأحسن منه يـوم تنظـرهُ عند التفاتتـه جِيـداً ولا تلعـا
ما ظبيـةٌ راعهـا القنّاصُ فالتفتت مذعـورةً أشعرت أحشـاءها فزعا
سعى إليه بـيَ الواشي فغيّـرَهُ فـازورّ عنّي لـواشٍ بالفراق سعـى
لـم يُبقِ لي هجرُ قيسٍ غيرَ ماجسدٍ بالٍ وليس يدري قيسٌ أيّـةً صنعـا
قـد ألبس الجسمَ من نسْجِ الضنا حُللاً
وجـرّع النفـسَ من كاس الـرّدى جُـرعـا
رضيتُ بالوصْلِ منه ان يُكلّمَني أو أن نبيـتَ حتى في الخيال معا

في الرثـــاء والموت

يرثي أخاه موسى المُتوفّى في إيران ، بعد أن نقل الشاعرُ رُفاته إلى النجف. وكان شديدَ الحُبِّ لـه :

فقدتُ موسى ومَن يفقد أخاً كأخي موسى شقيقي يمُتْ من شدّة الحزَنِ
نعم الفتى كان موسى عندَ طارقةٍ جُلّى تُفـرّق بين العينِ والوسَـنِ
فما رأت عينُ راءٍ مَـن يُشـابهُهُ مجـداً ولا سمعتْ شَـرواه من أُذُنِ
يالهفَ نفسي على مَن ليس يخلفُهُ فتـىً من الناس في سـرٍّ ولا علَنِ
تهـونُ كـلُّ الرزايا عندَ ذي جَلَدٍ إلا رزيّـة موسـى الخير لم تَهُـنِ

لله أيَّ فتـــىً وارت حَفيـــــرتُـــهُ وأيَّ ليـــثِ عريـنٍ لُـفّ فـــي كفنِ
قد مــات مَـن كُنتُ أرجـوهُ لنائبةٍ ومَن بـهِ كُنتُ أستعدي علـى الزمن
رزيّــةٌ كالحُســـامِ العَضْبِ مُنصلتاً عن جَفنـهِ أو كصَــدرِ الذّابلِ اللّـدنِ
مُهـــذّبٌ لا يَحِـلُّ الجهلُ حَبوتَهُ إذا الحُلُـومُ هَفَتْ بالـراجِحِ الـــرّزِنِ
بــــأنّهُ ما انحنَتْ يوماً أضالعُـهُ لـــدى المَـودّةِ والقُـربى علـــى أحَـنِ
مَن مُفعـمٌ للمنـايـا بعـــدما نطقتْ فاخرسـت مثلَ هـذا المُصقع اللّسِنِ
بوركتَ من ساكنٍ وادي السلام ويا وادي السـلام لقد بُوركتَ من سَـكَنِ
جاورتَ خيـرَ الـورى بعد النبي فيا طُوبى لمَن بـات جـاراً من أبي حسنِ
أنـــــالكَ اللهُ منــــهُ رحمــةً وسقى ثــرى ضريحِـكَ صَوبَ الوابل الهَتِنِ

يذكـرُ أخاه موسى بعد وفاته :

تعال انظُرْ أبـــــا عمران مـــاذا صنع الدهـــــــرُ
ترى بعــــدكَ شـاب الــــرأ سُ منّــي وانحنــــى الظهرُ
وأيمُ الله فَقـــــدي لــك كَسـ ــــرٌ مــــالـــــهُ جَبْــــرُ
فـلا طيبَ لعيشــي بعــــد مـــا قـــــد ضمّـكَ القبـرُ
ومـا أحســــنَ ما قـا لـــوه لــو يصـــدقنـــا الخُبْـرُ
بـــــأنّـا بعــــد هـذا الموت قــــد يجمعُنـــــا الحشـرُ

فـــي رثـــــاء حفيدٍ لـه :

أيــــــا عيـــنُ بكّي لفَقْـدِ الرضيـ ـع وسّـــــدتُـــهُ لحـــــدَه بيـــدي
ومـــن عـجـــبِ الدهـــر أنّ امرءاً يمــوتُ لـهُ ابـنُ ابنــهِ وهـو حيّ
أظـــنُّ الـــرّدى عميــت عينُـــهُ فلـم يـرَ إنســـانهـا كلَّ شــــيّ

فيختطــفُ الطـفـلَ قبــلَ الفِطــام ويـتـــركُ شـــيخـــاً كبيـراَ لـــديّ

لـهــفَ نفســـي أيّ طفـلٍ حمـلـوهُ نحـــــوَ لحـــدِه
أقـفـرتْ مـنـــهُ سُـروجُ الـ ـخـيـلِ لا أعـــوادُ مهـدِه
قــــد رمـاهُ الدهـرُ عن قو سِ امـــــرئٍ فَردٍ بحقـــدِه
رميـــةً ما أخطـأتـــــــهُ ليتَـــها كـــانـت بجَــــدّه
طمسـتْ مـن ذاك نجــماً طـالعـــاً فـي بُـرج سَـــعدِه
شـــــاءَ ربُّ العــرش أن يُسـكنه جـــنّـــــةَ خُلـــدِه
وإذا جـــــــــــاء قضــاءُ اللــــــــهِ لا نســــــطيعُ ردّه

في رثاء الشيخ حسين زغيب الذي توفي في قرية يونين قُرب بعلبك سنة 1294 هـ / 1877م .

في ذمّـة الله مَــن ســارت به الظِعَنُ وأشرقتني بدمعي بعـــدَهُ الدّمــــنُ
ما أنصفَ اللّومُ لو أنّ المَلامَ على أن لم أمُتْ كمـداً إثرَ الأُلى ظعنوا
لهفٌ على ابنِ زُغيبٍ حين فارقنـا وصار أولى بــهِ من دارِهِ الجنـــنُ
تلك الرّزيّــــةُ لا ما حدّثـــوك بــهِ من الرّزايـــا التي قد ساقها الزمنُ
والدّهــرُ ليس بناجٍ منـه مَغفـــرةً كناسـها من أعــالـي يذبُلُ الفَنّـــنُ

لا يـــزالُ الـــدّهـر والدنيـا وهـــــــذا الملكــــــوت
وجميـعُ الخلقِ يحيى البعـ ـــضُ منـهـــم ويـمــــوت
نعتـــوا شـــيئـاً فلمّـــا قصُــــرتْ عنـهُ النّعـــوت
حــــدّثـونـــا باحاديـــــــــثَ لهـــا منّــــا السُــكوت

عجبــاً لأقـوالٍ تُزَخرَفُ للـورى أبـــداً تُلفّقُ تـــارةً وتُـرقّـــعُ
لا تنقضي دُنياك هذي إنّمـــا شمسٌ تغيبُ بها وشمسٌ تطلـعُ
إن كان يرجع يامُغفّلُ مامضى من أمسِك الماضي فإنّا نرجعُ
